أحاديث قومية



وزارة التربية والتعليم
إدارة الشئون العامة

أحاديث قومية

١ ــ فلسفة الثورة .

٢ ــ دستور الغد .

٣ ــ طريق الحرية .

٤ ــ أول الوهن فى الدولة الإسلامية الكبرى .

٥ ــ الجمهورية العربية المتحدة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه أحاديث إلى الشعب كله . . . وليست إلى فرد بذاته أو طائفة بذاتها ... إنها أحاديث قومية إلى المواطنين جميعاً ، تتناول المشاكل التى تحيط ببلادنا ، والمراحل التى قطعتها البلاد فى كفاحها الطويل الشاق ، وماوصلنا إليه من تقدم وما حققناه من نجاح ...

فى هذه الأحاديث ، يقرأ كل مواطن فلسفة الثورة المصرية الحديثة ، ويعرف أسبابها ودوافعها وميدانها والأسس التى تقوم عليها ، وماضيها الذى تتشعب جذوره منذ قرون .

وفى هذه الأحاديث يقف القارىء على نهاية مرحلة من مراحل كفاحنا الوطنى فى سبيل الحرية والقضاء على آخر معاقل الاحتلال بعد أن عقد اتفاق الجلاء ...

وفى هذه الأحاديث ، يطالع القارىء قصة كفاحنا من أجل الحرية ، والطريق الذى سرنا فيه منذ أجيال وأجيال ، حتى حققنا حريتنا واستقلالنا ...

وفى هذه الأحاديث يتدبر القارىء عوامل التفرق وأسبابه فى بناء

الوحدة العامة ، تتجه المطامع الشخصية أو العصبيات الإقليمية ، وما أدى إليه ذلك من ضعف وانحلال ، حتى تمكن منا الاستعمار والاحتلال ...

وفى هذه الأحاديث يعرف القارىء بعض إمكانيات بلادنا ، ووضعها الجغرافى والتاريخى ، وما كسبته فى المجال العربى ، والمجال الإسلامى ، والمجال الآسيوى الإفريقى والمجال الدولى !... والدور الذى يمكن أن تقوم به بلادنا فى بناء حضارة العصر الحديث !...

كل حديث من هذه الأحاديث يمهد للآخر ويتكامل به ... حتى يحيط القارىء بماضينا البعيد والقريب ، ويشارك فى تجارب الحاضر الذى نعيش فيه ، باعتباره فرداً فى أمة ودعامة فى بناء نهضة ، حمل أجدادنا وآباؤنا راياتها الخفاقة سنين طويلة ، ثم أسلموها لنا لنتابع السير فى موكب الحرية والكرامة الإنسانية ، ونتحمل واجبنا فى معركة الكفاح ؛ من أجل العزة القومية !...

فلسفة الثورة

بقلم

جمال عبد الناصر

تقديم

كمال الدين حسين

وزير التربية والتعليم

من السيد وزير التربية والتعليم
إلى السادة المعلمين

إخواني المعلمين !...

لقد كانت هذه الثورة التي نسير في أضواء مشعلها منذ عامين ، حدثا عظيما وفريدا في تاريخ مصر . . .

إنها فاصل كبير وعميق بين مرحلتين من تاريخنا الممتد في القدم إلى أول أيام الإنسانية المتحضرة على الأرض ، والممتد في الأمل إلى أبعد آماد المستقبل . . .

لا سبيل إلى إنكار هذه الحقيقة بعد ، فإن مصر منذ اليوم ، غيرها قبل « ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ » . . .

لقد تغير كل شيء في مصر عما كان قبل أن تشتعل هذه الشرارة المضيئة ، واختلفت الصور والمشاعر اختلافا كبيراً في مرأى العين وفي إحساس النفس جميعاً . . .

الحاكمون الأجانب الذين كانوا يجلسون على عرش مصر والأنهار تجري من تحتهم ، قد انطوى تاريخهم في هذه البلاد ؛ فنحن الحاكمون والمحكومون في بلادنا منذ اليوم ، وما تحت أرجلنا من أرض الوطن ملك مشترك لنا جميعا على سواء ؛ فليس منا ملك وسوقة . . .

ذوو الشوارب المفتولة والبطون الممتلئة الذين كانوا يهوون بالسياط على ظهور العمال والفلاحين ؛ ليستنبطوا لهم المال يشترون به شهواتهم ؛ — قد ابتلعتهم الموجة ، أو قد قذفت بهم إلى الشواطىء البعيدة ، فليس منهم فى مصر اليوم إلا الذين آمنوا بدستور الأخوة ليكدحوا مع الكادحين فى سبيل نفع الجماعة ! . . .

جيوش الاحتلال التى كانت تدنس أرض الوطن ، وتدب على ظهرها بالنعال النجسة ، قد حزمت اليوم متاعها ، وأخذت أهبتها للرحيل إلى غير رجعة ! . . .

الجبل الشاهق الأملس الجدار ، الذى كان يحول بيننا وبين تنور الآفاق البعيدة ، فلا نستطيع أن نزحزحه من طريقنا لنمضى ، ولا أن نعلو جداره لنرى ؛ — قد انزاح منذ اليوم عن موضعه وانفتح أمامنا الطريق إلى الغايات البعيدة . . .

العزلة الرهيبة التى كنا نعيش بين جدرانها منقطعين عن إخوة لنا فى الشرق والغرب والجنوب ؛ فلا نستطيع أن نمد إليهم يدا ، ولا أن يمدوا إلينا يدا ؛ — قد تهاوت جدرانها ، فلم يبق بيننا وبينهم باب مقفل ، ولا جدا رقائم ، ولا سلك شائك ! . . .

المخاوف التى بذر الاستعمار والطغيان بذورها فى نفوسنا ؛ فلا ينظر بعضنا إلى بعض إلا على حذر وتوجس وريبة ؛ — قد حل محلها السلام والأمن والثقة بالمستقبل ! . . .

مستقبلنا اليوم واضح المعالم ... أهدافنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية قريبة سهلة المنال ... جونا وبحرنا وأرضنا، بكل ما فيها من ثروة ومن ثمرات ظاهرة ومستترة ؛ ـ ملك أيماننا : نستطيع أن نستنبطها بأيدينا لا بأيدى غيرنا ، ولنفعنا ونفع إخواننا وجيراننا ، لا لنفع المستعمرين والطغاة من حكامنا الأجانب !. . .

كل هذا صنعته الثورة المصرية منذ «٢٣ يولية سنة ١٩٥٣» ، لتضع به لمصر تاريخا جديدا ، يغاير تاريخها الذى كان قبل أن تشتعل هذه الشرارة المضيئة ! . . .

هذه الثورة إذن ، هى حدث عظيم وفريد فى تاريخ مصر ، وهى إلى ذلك فاصل كبير وعميق بين مرحلتين متباينتين كل التباين من ذلك التاريخ ، وليس من اليسير على كل مواطن يعيش الآن على أرض مصر ، أن يحس هذه الحقيقة إحساسا كاملا ، ينفعل به عقله وضميره ونفسه ، وتتأثر به تصرفاته العامة ؛ فإن التطور النفسى مع الأحداث الكبيرة ، لا يقدر عليه ولا يطيقه إلا ذوو النفوس الكبيرة ، الذين يملكون قوة التجرد فى الحكم على الأحداث الجديدة والصور الجديدة !... ومن أجل ذلك قد يحس بعض الضعاف بالقلق حين يرون اختلاف القيم وتغير الموازين فى الحياة العامة التى يحيونها ، ويقعون فى حيرة من أمر أنفسهم ، ومن أمر ما حولهم ومن حولهم من الأحداث والناس ، وقد يتساءلون سراً أو جهراً : أين نحن مما كنا ؟... وأين يومنا من غدنا ؟... وأين الأسباب من مسبباتها ؟...

هؤلاء الحائرون القلقون ، من حقهم أن نلتمس لهم بعض العذر ، وأن نصفح عن بعض ما يقعون فيه من زلات بغير قصد ؛ لأنها زلات القلق الحائر الضعيف ، الذى لا يعى — وعيا ناصحا — مدى التطورات التى حوله ، والتى تفرض عليه أن يتطور فى نفسه وخلقه ، ويلبس للمستقبل النظيف ثوبا نظيفا؟ . . .

وقد يكون من واجبنا نحن الذين نؤمن بهذه الثورة ، ونعى أسبابها وأهدافها وعيا صحيحا ، أن نحاول توجيه هؤلاء الحائرين القلقين ، ونقودهم بلطف إلى حيث يستطيعون أن يروا بوضوح وأن يحكموا بدقة ، وأن يوازنوا بأمانة وتجرد ! . . .

ولكنّ عليكم أنتم ، أيها المعلمون ، واجبا آخر ؛ فإن بين أيديكم جيلا ناشئا ، نقيا نقاء الفطرة ، لم يتلوث بعد بأوساخ الاستعمار ، ولم ترسب فى دمه رواسبه ، ولم تثقل على ضميره مواريث الماضى ، أو تربطه به روابط منفعة تفسد حكمه ، أو وشائج عاطفية شخصية تلون رأيه ، أو ذكريات قريبة وبعيدة تملأ نفسه قلقا واضطرابا وحيرة .

جيل جديد ، يتطلع لمستقبل جديد ، لا يربطه إلى ذلك الماضى إلا رباط التاريخ ، ولا يتصل به إلا اتصال النتيجة بأسبابها العقلية . ولكن كل تلميذ من هذا الجيل ، وهو — مع ذلك — جزء من بيئته ، وفرد من أهله ، فى أذنيه بقية من أحاديث يسمعها ، وأمام عينيه صور يراها ، وفى نفسه — من هذه الصور ومن تلك الأحاديث — أصداء يعيها

وينفعل بها !... ولكن أصداء حديثكم أنتم أبقى أثرا فى نفسه ، وأعمق غورا ؛ فأنتم معلموه ، وعليكم هدايته وتوجيهه ، أنتم تصنعون له مستقبله ، لتصنعوا به مستقبل وطنه ، فوجهوه برفق إلى طريق الحق ، واكشفوا له عن الماضى ومآسيه ، وعن الحاضر وأسبابه ، وعن المستقبل وأهدافه ووسائله ؛ ليمضى — حين يمضى — إلى المستقبل على هدى وبصيرة وإيمان ، ويعرف أين حاضر أمته من ماضيها ، وأين يومها من غدها ، وأين مكانه هو من أحداث اليوم والغد والمستقبل البعيد ، ثم ليرى كذلك بوضوح ويحكم بدقة ، ويوازن بأمانة وتجرد ، ويتجنب كل ما حوله من عوامل القلق والاضطراب والحيرة ! . . .

وبسبيل من هذا الغرض ، أملى «جمال عبد الناصر» كتابه: « فلسفة الثورة » ؛ ليكشف عن بعض أسباب الثورة ومسبباتها ، ويلقى الضوء على بعض الأحداث المهمة وما سبقها ، ويحدد بعض أهداف الثورة وغاياتها ؛ ليكون كل ذلك جوابا عن بعض الأسئلة القلقة الحيرى ، التى تتردد على بعض الشفاه ، أو تهمس فى بعض النفوس ، فما أحوج المعلمين أن يعوه ، وما أحوج التلاميذ !... ومن أجل ذلك أقدمه بهذه الكلمة إلى السادة المعلمين . . .

***

هو طرف من قصة الثورة ، أملاه «جمال عبد الناصر» على التاريخ — كما لا يزال يملى على التاريخ من فصول !...

ولكن قصة الثورة فى هذا الكتاب ليست قصة بالمعنى المفهوم ، ترتبط فيها الحوادث وتتساوق حتى تنتهى إلى غاياتها كما حدثت فى ظاهر الحياة ؛ — وإنما هى القصة كما كانت تجرى فى باطن النفس ، منذ كانت انفعالات ، إلى أن صارت فكرة ، إلى أن أصبحت تدبيراً وسياسة ، إلى أن تجمعت لها عناصر الظهور ، فبدت للعيون حقيقة من حقائق الحياة الواقعة فى مصر ! . . .

فهى إذن خواطر الثورة لا حوادث الثورة ، وقد كنا إلى معرفة هذه الخواطر أحوج منا إلى معرفة الحوادث ؛ لأن الحوادث يراها ويعرفها كل ذى عين وذى أذن ، فيختلف حكمه لها أو عليها باختلاف نفسه وحسه ووعيه ، وما يناله من نفعها أو مضرتها ، وصلتها به وبمن حوله ، ممن يرتبط بهم ارتباط المنفعة أو ارتباط العاطفة ، أما الخواطر فشىء فى طيات النفوس ، مخبوء عن كل ذى عين وذى أذن ، فلا ينفذ إلى حقائقها من ينفذ إلا بعد أناة وروية وبحث طويل ، والعلم بها — مع ذلك — ضرورى لاكتساب قوة الحكم على الأشياء والحوادث ومحدثيها ، بنزاهة وتجرد . . .

ومن أجل ذلك هى « فلسفة الثورة » لا قصة الثورة ، ولكنها مع ذلك قصة ، وإن كانت حوادثها تجرى فى باطن النفس ، لا فى ظاهر الحياة ! ...

وهذه القصة فصول ثلاثة ، يختص الفصل الأول منها بالحديث عن بذور هذه الثورة ومقدماتها :

— أهى ثورة «جمال عبد الناصر» وزملائه ؟ ...

— أم هى ثورة الجيش ، حمل رايتها «جمال عبد الناصر» وزملاؤه ؟

— أم هى ثورة الأمة كلها ، نهض الجيش بأعبائها ، ودفع رايته إلى «جمال عبد الناصر» وزملائه ؟ ...

ثم ما هى أسبابها ومقدماتها ؟ . . .

— أهى حرب فلسطين ، وقضية الأسلحة الفاسدة ، وأزمة نادى الضباط ؟ . . .

— أم هى «معاهدة سنة ١٩٣٦» ، وحادث «٤ فبراير سنة ١٩٤٢» ، وتحالف الإنجليز وفاروق على قمع روح المقاومة فى الشعب بعد ذلك ؟ ...

— أم هى تطور طبيعى للكفاح الشعبى منذ سنة ١٨٠٠ ، إلى «الثورة العرابية» ، إلى «ثورة سنة ١٩١٩» ، إلى «ثورة سنة ١٩٣٥» ، إلى أن غلت الدماء بعد ذلك بالحوادث المتتابعة ، حتى قذف القدر وعاءها ؛ فكانت «ثورة سنة ١٩٥٢» ؟ ...

ثم كيف نمت هذه البذور ، وتفاعل بعضها مع بعض ، وتطورت حتى بلغت هذا المبلغ ؟ ...

ثم كيف كانت مشاعر الشعب قبل الثورة ، ويوم الثورة ، وبعد أن بدأت الثورة ، ثم بعد ذلك إلى اليوم ؟ . . .

ثم ما هى صلة ذلك بأخلاق الشعب ، وطبيعته ، وبما ترك الاستعمار

والطغيان فى أعصابه وفى دمه من رواسب ، يتأثر بها حكمه على الأشياء وعلى الحوادث ومحدثيها ؟ . . .

ثم لماذا تختلف بعض مظاهر الثورة فى مرأى بعض الناس ؛ فهى حيناً رفيقة لينة ، تؤمن بمبدإ العفو والتسامح ، وهى حيناً حازمة صارمة ، لا تجامل ولا تحاول اكتساب التأييد والرضا ، بالإغضاء عن بعض السيئات ، وعدم التضييق على بعض الطوائف ؟ ...

وأخيراً ، هل هى ثورة سياسية أو ثورة اجتماعية ؟ ...

هذه الأسئلة ، وكثير غيرها ، يجيب عنها الفصل الأول من فلسفة الثورة ؛ فيذكر الأسباب ومسبباتها ، ويضع الحقائق عارية مكشوفة تحت المجهر ، ليعرف من شاء كل ما يريد أن يعرف من جواب ! ...

* * *

أما الفصل الثانى ، فيختص بالجواب عن سؤالين ، هما :

— ما الذى تريده الثورة ؟ ...

— وما هو الطريق إليه ؟ ...

والجواب عن السؤال الأول صريح واضح ، لا يحتاج إلى مزيد من الإيضاح ؛ لأن الذى تريده الثورة : هو الذى يريده كل مصرى لبلاده ، وهو مصر المتحررة القوية ! . . .

وأما السؤال الثانى فتدور حوله خواطر شتى ، وفى سبيل تحديد الجواب الصريح الواضح ، يتسلل «جمال عبد الناصر» وراء خواطره ،

فيصف عواطفه ، وأهدافه ، ووسائله للوصول إلى هذه الأهداف ، منذ كان تلميذاً فى المدرسة يهتف للجلاء والحرية ، إلى أن قاد ثورة الجيش الشعبية ، وهو فيما يصف من مراحل تطوره الفكرى واختلاف وسائله ، كأنما يصف إحساس كل مصرى فى كل مرحلة من تلك المراحل ؛ فهى صور غير شخصية ؛ لأنها صور معبرة عن الشعور الجماعى العام ! ...

ثم هو فى خلال ذلك التصوير يحاول أن يرد كل تطور فى الفكر أو فى الوسيلة إلى أسبابه ، وتمضى به المحاولة إلى تتبع أدوائنا الاجتماعية إلى أصولها فى التاريخ : منذ الحروب الصليبية ، إلى غارة المغول ، إلى عهد سلاطين المماليك ، إلى عهد الاحتلال العثمانى ، إلى عهد محمد على وخلفائه ، إلى اليوم ، وتتكشف لعينيه الحقائق حين يتتبع الصور المتعاقبة على مصر منذ ذلك التاريخ البعيد ، فلا يلبث أن يضع أصبعه على مخلفات الماضى التى ترسب فى نفوسنا ، فتصنع أخلاقنا العامة ، وتوجهنا فى الحياة على دستور ! ...

دستور يجب أن تمحى صفحته من تاريخنا ؛ لأنه يقوم على مبادىء : الخوف ، والضعف ، والأثرة ، والبغى ، وسوء الظن ، والتربص ، وما يستتبع ذلك من سيئات !...

حينذاك تعرف الثورة طريقها لتحقيق ما تريده للبلاد ، وهو إزالة الصخور والعقبات من الطريق ، وهداية القافلة الضالة !...

* * *

أما الفصل الثالث فيحدد الأهداف البعيدة للثورة :

مصر وحدة ضخمة من «وحدات الجامعة العربية» ...

— مصر بلد من بلاد «الكتلة الإسلامية» ...

— مصر جزء من « إفريقيا » ...

— لقد مضى عهد العزلة ، ومصر بما تملك من أسباب العمل ، تستطيع أن تؤدى خيراً كثيراً لنفسها ، وللعرب ، وللمسلمين ، ولجيرانها فى «إفريقيا» ، وأن تكون بذلك كله ، قوة ذات أثر فى توجيه السياسة الدولية ! ...

* * *

إن هذا الكتيب الذى يتحدث عن فلسفة الثورة ، أو عن خواطر الثورة ، كما أحسها «جمال عبد الناصر» فى نفسه وفى كل من حوله ؛ — هو كتاب لا بد منه لإلقاء أضواء كثيرة على الثورة ، تهدى القلقين والحيارى ، والذين لم يستطيعوا بعد أن يتطوروا بأنفسهم مع أحداثها الكبيرة ؛ ليكونوا قوة إيجابية عاملة لخير البلاد ، ولتحقيق مستقبل لا تحده آفاق !... وهو درس لا بد منه فى كل مدرسة ولكل تلميذ !...

إخوانى المعلمين ! ...

هذه التربية الوطنية الجديدة ، عليكم عبؤها فى هذا العهد ؛ لتصنعوا لمصر جيلا جديداً متحرراً من كل مساوىء الماضى ، ومؤهلا بالوعى الناضج لحمل أمانة المستقبل !! . . .

[signature]

وزير التربية والتعليم

فلسفة الثورة

مقـــدمة

إن هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ، ليست محـاولة لتأليف كتاب ! . . .

ولا هى محاولة لشرح أهداف « ثورة ٢٣ يوليو » وحوادثها . . .

إنما هى شيء آخر تماما ! . . .

إنها أشبه ما تـكون بدورية استـكشاف . . .

إنها محاولة لاستـكشاف نفوسنا ؛ لـكى نعرف من نحن ، وما هو دورنا فى تاريخ مصر المتصل الحلقات ؟ ! . . .

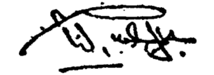
ومحاولة لاستـكشاف الظروف المحيطة بنـا فى الماضى والحاضر ؛ لـكى نعرف فى أى طريق نسير . . .

ومحاولة لاستـكشاف أهدافنا ، والطاقة التى يجب أن نحشدها ؛ لنحقق هذه الأهداف ! . . .

ومحاولة لاستـكشاف الظروف المحيطة بنا ؛ لنعرف أننا لانعيش فى جزيرة يعزلها الماء من جميع الجهات ! . . .

هذا هو الذى قصدت إليه ! . . .

مجرد دورية استكشاف فى الميدان الذى نحارب فيه ... معركتنا الكبرى من أجل تحرير الوطن من كل الأغلال !



الجزء الأول

(١)

ليست فلسفة

قبل أن أمضى فى هذا الحديث ، أريد أن أقف قليلا عند كلمة « فلسفة » .

إن الكلمه ضخمة و كبيرة .

وأنا أحس وأنا واقف حيالها أنى أمام عالم واسع ليس له حدود ، وأشعر فى نفسى برهبة خفية تمنعنى من أن أخوض فى بحر ليس له قاع ، ولا أرى له — على البعد من الشاطىء الذى أقف فيه — شاطئاً آخر أنتهى إليه ! . . .

والحق أنى أريد أن أتجنب كلمة « فلسفة » فى هذا الذى سأقوله. . .

ثم أنا أظن أنه من الصعب على أن أتحدث عن « فلسفة الثورة » !...

من الصعب لسببين :

أولهما أن الحديث عن فلسفة « ثورة ٢٣ يوليو » ، يلزمه أساتذة ، يتعمقون فى البحث عن جذورها الضاربة فى أعماق تاريخ شعبنا ! . . .

وقصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوات يملؤها الهباء[1]، وكذلك ليس فيها مفاجآت تقفز إلى الوجود دون مقدمات ! . . .

إن كفاح أى شعب ، جيلا بعد جيل ، بناء يرتفع حجراً فوق حجر . . .

وكما أن كل حجر فى البناء يتخذ من الحجر الذى تحته قاعدة يرتكز عليها ، كذلك الأحداث فى قصص كفاح الشعوب ! . . .

كل حدث منها هو نتيجة لحدث سبقه ، وهو — فى نفس الوقت — مقدمة لحدث ما زال فى ضمير الغيب ! . . .

(٢)

محاولات ثورية سابقة

ولست أريد أن أدعى لنفسى مقعد أستاذ التاريخ . . .

ذلك آخر ما يجرى به خيالى . . .

ومع ذلك فلو حاولت محاولة تلميذ مبتدىء ، فى دراسة قصة

---

(١) يعنى أنه لا يمكن أن تقع حادثة من حوادث التاريخ ، دون أن يكون لها سبب أو أسباب من الماضى ، لأن التاريخ سلسلة متصلة الحلقات ، كل حلقة منها تتصل بالحلقة التى قبلها ، والحلقات التى بعدها ، ولا يمكن أن يكون بين هذه الحلقات فراغ ليس فيه إلا الهباء ! ...

كفاح شعبنا ، فإنى سوف أقول مثلا : إن « ثورة ٢٣ يوليو » هى تحقيق للأمل الذى راود شعب مصر ، منذ بدأ فى العصر الحديث يفكر فى أن يكون حكمه بأيدى أبنائه ، وفى أن تكون له نفسه الكلمة العليا فى مصيره . . .

(١) لقد قام بمحاولة لم تحقق له الأمل الذى تمناه ، يوم تزعم « السيد عمر مكرم » حركة تنصيب « محمد على » والياً على مصر ، باسم شعبها[1] . . .

---

(١) كان « السيد عمر مكرم » أول مصرى فى التاريخ الحديث ، نادى بحق الشعب فى الحرية وفى السيادة . وكان أول شهرته خلال الحملة الفرنسية على مصر ؛ إذ كان من قواد حركة المقاومة الشعبية التى انتهت بجلاء الفرنسيين ، ثم قاد حركة المقاومة ضد طغيان المماليك والباشا العثمانى ، وكان محمد على فى ذلك الوقت ضابطا لإحدى الفرق العثمانية فى مصر ، فانضم إلى حركة المقاومة الشعبية ، ووثق صلته بالزعيم عمر مكرم ، فانخدع به ورشحه للولاية ، فبايعه الشعب والياً ، وكتب زعماؤه بذلك إلى الخليفة العثمانى فى استنبول ، فأقر الخليفة هذه البيعة مكرها ، نزولا على إرادة الشعب . فلما تم لمحمد على ما أراد ، وصار والياً على مصر ، تنكر للشعب ، وخان عهده للزعماء ، ونفى السيد عمر مكرم إلى دمياط ، ثم إلى طنطا ، فظل منفياً حتى مات !

وصار عرش مصر وراثة لأسرة محمد على ، يتوارثونه أميرا عن أمير ، وكان فاروق المخلوع آخر هذه السلسلة ، فأبعد عن العرش فى ٢٦ يوليه سنة ١٩٥٢ ، ثم انتهت الملكية وأعلنت « جمهورية مصر » فى يونيه سنة ١٩٥٣ ، بعد قرن ونصف قرن من اعتلاء محمد على لعرش مصر .

(ب) وقام بمحاولة لم تحقق له الأمل الذى تمناه، يوم حاول « عرابى » أن يطالب بالدستور[1] ...

(حـ) وقام بمحاولات متعددة ، لم تحقق له الأمل الذى تمناه ، فى فترة الغليان الفكرى التى عاشها بين « الثورة العرابية » و « ثورة سنة ١٩١٩[2] » .

---

(١) كان أحمد عرابى ضابطا فى الجيش المصرى ، وكان مصرياً صميما ، فى حين كان أكثر ضباط الجيش من الترك والشركس والأرمن والأرناءوط ، ولم يكن مسموحاً للضباط المصريين أن يتجاوزوا الترقية رتبة معينة ، مهما بلغوا من النشاط والكفاية ، وكانت مرافق البلاد كلها فى أيدى الأجانب . وكان الخديو توفيق يقربهم ويحتظيهم ويجعل لهم الامتياز والسيادة على أهل البلاد . وكان نظام الحكم استبدادياً والضرائب ثقيلة ومجحفة ، وخزانة الدولة خاوية ، والديون التى تورط فيها إسماعيل بحماقة تثقل كاهل الحكومة والأهالى وتجعل للدائنين الأجانب السلطة العليا ... رأى « أحمد عرابى » هذا ، ورآه زملاؤه الضباط المصريون فى الجيش ، فأجمعوا أمرهم على خطة لمقاومة هذا الطغيان ، ولإصلاح نظام الحكم ، والاعتراف بحق الشعب فى السيادة .

واجتمع الجيش كله فى ميدان عابدين ، ليطلب إلى الخديو باسم الشعب ، إصلاح أداة الحكم ، وإنشاء حكم نيابى ، والحد من سلطة الأجانب ...

فاضطر توفيق إلى الاستجابة لمطالب الشعب ، وحقق له ما أراد ، ثم راح يدبر أمره مع الإنجليز فى الخفاء ، ليقضى على روح المقاومة فى الشعب ، وكانت العاقبة كما أراد ، فاحتل الإنجليز مصر ، واعتقلوا « أحمد عرابى » وزملاءه ، ونفوهم إلى إحدى جزر المحيط الهندى . وكان هذا أول الاحتلال البريطانى الذى جثم بأثقاله على صدر الوطن اثنتين وسبعين سنة ، حتى أكرههم المصريون فى سنة ١٩٥٤ على الجلاء ...

(٢) فى هذه الفترة التى عاشتها مصر بين الثورتين ، فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، انتشرت الأفكار الحرة ، وبدأ الوعى القومى ينضج ، وكان =

(ى) وكانت هـذه الثورة الأخيرة — ثورة ١٩١٩ بزعامة «سعد زغلول» — محاولة أخرى لم تحقق له الأمل الذى تمناه[1] .

= لآراء السيد « عبد الرحمن الـكوا كبي » ، والسيد « جمال الدين الأفغانى » ، أثرها فى إيقاظ الوعى ، فآمن الشعب بحقه فى الاستقلال والحرية ، وبدأ يدبر أمره لتحقيق هذين المطلبين ، وكان من زعماء هذه الفترة : « محمد عبده » ، و «مصطفى كامل » ، و « محمد فريد » ، و « عبد العزيز جاويش » .

(١) لمـا احتلت بريطانيا مصر فى سنة ١٨٨٢ زعمت أن احتلالها مؤقت ، وأنها ستجلو عن مصر حين تستقر أمورها الداخلية ، وظلت على هذا الزعم حتى نشبت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ ، فـكشفت عن خبيئتها وفرضت على مصر الحماية البريطانية ، ولـكى تخدر شعور المصريين ، زعمت أن هـذه الحماية مؤقتة كذلك ، وأن ظروف الحرب هى التى اقتضتها ...

فلما انتهت الحرب فى أواخر سنة ١٩١٨ اجتمع المصريون على ضرورة إنهاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ، وذهب سعدزغلول ، وكيل الجمعية التشريعية ، إلى دار المعتمد البريطانى فى القاهرة ، مع على شعراوى وعبد العزيزفهمى ، ليطلبوا إليه باسم مصر ، أن ينقل إلى حكومته فى لندن رغبـــة المصريين فى إنهاء الحماية والاعتراف بالاستقلال ، فلم تطق بريطانيا صبراً على هذا المطلب ،واعتقلت« سعدا » وأصحابه ، ونفتهم إلى مالطة ، فكان هذا سبباً لاشتعال «ثورة سنة ١٩١٩» .

وتعتبر هذه الثورة مرحلة من المراحل الرئيسية فى تاريخ العلاقات بين مصر وبريطانيا .

(٣)

أسباب مباشرة لا دوافع حقيقية...

وليس صحيحاً أن « ثورة ٢٣ يوليو » قامت بسبب النتائج التى أسفرت عنها حرب فلسطين[١] . . .

---

(١) كانت فلسطين — إلى الحرب العالمية الأولى — جزءاً من أملاك الدولة العثمانية فلما نشبت تلك الحرب ، احتلتها بريطانيا باعتبارها من أملاك دولة معادية ، ولكى تكسب بريطانيا تأييد العرب لها فى تلك الحرب ، أعلنت أنها سترد إليهم بلادهم ، وتعترف باستقلالهم ، إذا أعانوها على حرب الترك ، فكان هذا الوعد سبباً لانضمامهم إلى صف بريطانيا فى تلك الحرب ، ولكن بريطانيا لم تكد تبلغ النصر، حتى تنكرت للعرب ، واعتبرت بلادهم غنيمة حرب ، وفرضت سلطانها على فلسطين ؛ لتمهد لليهود أن ينشئوا لهم فيها وطناً قومياً ، فثار عرب فلسطين على هذا الوضع ولم يرتضوه ، ولكن بريطانيا لم تبال بثورات العرب المتعاقبة ، وأخذت تهيء لليهود فى سائر بلاد العالم ، وسائل الهجرة إلى فلسطين والاستقرار بها ؛ لتكون لهم وطناً ، حتى اجتمع منهم نحو ثلث مليون ، يزحمون أهل البلاد فى أرزاقهم ويزحزحونهم عن أرضهم ، فلما بلغ اليهود من الكثرة والقوة فى فلسطين هذا المبلغ ، انسحبت منها بريطانيا وتركت العرب الوطنيين واليهود الطارئين يتقاتلون وجها لوجه ، هؤلاء يطمعون فى الاستيلاء على وطن لم يكن لهم فيه شبر من أرض ، وأولئك يدافعون عن وطنهم ومثوى آبائهم وأجدادهم...

ولم يكن لعرب فلسطين من القوة ما يهيء لهم أسباب الغلبة ، فقررت الدول العربية أن تساعدهم على الظفر بحقهم وطرد العدو الدخيل من بلادهم ...

وبدأت فرق المتطوعين المصريين تأخذ مراكزها فى ميدان المقاومة ، بقيادة ضباط مصريين أحرار ، تطوعوا لبذل دمائهم فى سبيل الإبقاء على عروبة فلسطين ، وكان لهم بلاء يذكر بالإعجاب .

=

وليس صحيحاً كذلك أنها قامت بسبب الأسلحة الفاسدة التى راح ضحيتها جنود وضباط[1] . . .

وأبعد ذلك عن الصحة ما يقال من أن السبب كان أزمة انتخابات نادى ضباط الجيش[2] .

ثم دخل الجيش المصرى فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، وأوغل فى البلاد ، وفر اليهود أمامه مذعورين يتخلون عن معاقلهم معقلا بعد معقل ، وظهرت تباشير النصر القريب ...

فى أثناء ذلك ، وقلوب العرب فى شتى بلادهم تخفق بعنف وهم يترقبون الساعة التى تأتيهم فيها أنباء النصر الحاسم ، حدثت خيانة كبيرة ، كان فاروق ملك مصر المخلوع شريكا فيها ، فوقعت الدول العربية صك الهدنة وهى فى أوج انتصارها ... وأفلتت الثمرة الدانية من أيدى العرب ! ...

(١) فى أثناء هـذه الهدنة التى فرضتها الخيانة على الجيش المصرى والجيوش العربية المنتصرة ، زودت بريطانيا ، وخلفاؤها ، اليهود بكل مايحتاجون إليه من الأسلحة الثقيلة والخفيفة ؛ ليكونوا على أهبة كاملة حين تستأنف الحرب ، وكان فاروق وسماسرته خلال ذلك يستولون على أموال الخزانة ، بدعوى شراء الأسلحة للجيش المصرى المرابط فى ميدان القتال ، فيأخذونها لأنفسهم ، ويرسلون إلى الجيش بثمنها أسلحة فاسدة ، تصيب أصحابها ولا تصيب العدو ، فكانوا بذلك عوناً لليهود على النصر ، وسبباً لهزيمة مصر ، وقد راح ضحية هذه الأسلحة جنود وضباط مصريون ، وراحت فلسطين نفسها ، وغلب عليها اليهود ، ولم تزل تحت أيدى اليهود حتى اليوم ، وأهلها مشردون فى الفلوات لا يجدون مأوى ! ...

(٢) كان الضباط الأحرار قد شكلوا هيئتهم قبل ذلك وصاروا قوة ذات أثر فى كل فرقة من فرق الجيش ، استعداداً لتخليص البلاد من الطغيان ، ومن الفساد ، ومن الاحتلال البريطانى . وكان فاروق يضع على رأس الجيش جماعة من سماسرته وبطانته ، هم عناوين الجيش البارزة أمام الناس ، فمنهم الرؤساء الكبار ، والقادة

إنما الأمر فى رأيى كان أبعد من هذا وأعمق أغوارا .

ولو كان ضباط الجيش حاولوا أن يثوروا لأنفسهم لأنه قد غرر بهم فى فلسطين ، أو لأن فضيحة الأسلحة الفاسدة أرهقت أعصابهم ، أو لأن اعتداء وقع على كرامتهم فى انتخابات نادى ضباط الجيش ؛ — لما كان الأمر يستحق أن يكون ثورة ، ولكان أقرب الأشياء إلى وصفه بأنه مجرد تمرد ، حتى وإن كانت الأسباب التى أدت إليه منصفة عادلة فى حد ذاتها .

لقد كانت هذه كلها أسبابا عارضة . . .

وربما كان أكبر تأثير لها أنها كانت تستحثنا على الإسراع فى طريق الثورة ، ولكننا كنا من غيرها نسير على هذا الطريق .

= العاملون ، وممثلو الجيش فى كل مناسبة يراد أن يمثل فيها الجيش ، ومنهم هيئة الإدارة فى نادى الضباط ، فلما حان موعد الانتخاب لرياسة النادى فى سنة ١٩٥١ حرص الضباط الأحرار على إبعاد سماسرة فاروق وبطانته عن رياسة النادى ، فانتخبوا رئيساً منهم ، تحديا لإرادة فاروق ، فطاش فاروق وألغى الانتخاب ، وكان ذلك أول مظهر صريح من مظاهر الخلاف بينه وبين الجيش ! ...

(٤)

بذور الثورة

وأنا أحاول اليوم ، بعد كل ما مر بى من أحداث ، وبعد سنوات طويلة من بدء التفكير فى الثورة ، أن أعود بذاكرتى وأتعقب اليوم الأول الذى اكتشفت فيه بذورها فى نفسى .

إن هذا اليوم أبعد فى حياتى من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٥١ ، أيام ابتداء أزمة نادى الضباط ؛ فى ذلك الوقت كان تنظيم الضباط الأحرار قائما يباشر عمله ونشاطه ، بل أنا لا أغالى إذا قلت إن أزمة انتخابات النادى أثارها أكثرَ من أى شىء آخر ، نشاط الضباط الأحرار ، فقد شئنا فى ذلك الوقت أن ندخل معركة نجرب فيها قوتنا على التكتل وعلى التنظيم .

وهذا اليوم — فى حياتى أيضاً — أبعد من بدء فضيحة الأسلحة الفاسدة ، فقد كان تنظيم الضباط الأحرار موجوداً قبلها ، وكانت منشوراتهم أول نذير بتلك المأساة ، وكان نشاطهم وراء الضجة التى قامت حول الأسلحة الفاسدة .

بل إن هذا اليوم فى حياتى أبعد من يوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٨ ذلك اليوم الذى كان بداية حياتى فى حرب فلسطين .

(٥)

ذكريات من فلسطين

وحين أحاول الآن أن أستعرض تفاصيل تجاربنا فى فلسطين ، أجد شيئا غريبا ؛ فقد كنا نحارب فى فلسطين ، ولكن أحلامنا كلها كانت فى مصر .

كان رصاصنا يتجه إلى العدو الرابض أمامنا فى خنادقه . ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذى تركناه للذئاب ترعاه . . .

وفى فلسطين كانت خلايا الضباط الأحرار تدرس وتبحث وتجتمع فى الخنادق والمراكز .

فى فلسطين جاءنى « صلاح سالم » و « زكريا محيي الدين[١] » ، واخترقا الحصار إلى « الفالوجة » ، وجلسنا فى الحصار لا نعرف له نتيجة ولا نهاية ، وكان حديثنا الشاغل وطننا الذى يتعين علينا أن نحاول إنقاذه . .

وفى فلسطين جلس بجوارى مرة « كمال الدين حسين[٢] » ، وقال

(١ ، ٢) من أعضاء مجلس قيادة الثورة .

لى وهو ساهم الفكر شارد النظرات : هل تعلم ماذا قال لى « أحمد عبد العزيز » قبل أن يموت [1] ؟ . . .

قلت : ماذا قال ؟ . . .

قال « كمال الدين حسين » وفى صوته نبرة عميقة وفى عينيه نظرة أعمق : لقد قال لى : اسمع يا « كمال » ، إن ميدان الجهاد الأكبر هو فى مصر ! . .

(٦)

بذور الثورة تنمو . . .

ولم ألتق فى فلسطين بالأصدقاء الذين شاركونى فى العمل من أجل مصر ، وإنما التقيت أيضاً بالأفكار التى أنارت أمامى السبيل .

وأنا أذكر أيام كنت أجلس فى الخنادق وأسرح بذهنى إلى مشاكلنا . . .

كانت الفالوجا محاصرة ، وكان تركيز العدو عليها ضربا بالمدافع والطيران تركيزا مروعا .

---

(١) فدائى مصرى عظيم ، كان ضابطاً فى الجيش المصرى ، ثم قاد قوات المتطوعين المصريين للدفاع عن فلسطين ، قبل أن تقرر الدول العربية الاشتراك فى المعركة ، وكان له بلاء مشهود فى كثير من المعارك ، وقضى شهيدا فى الميدان سنة ١٩٤٨ انظر الهامش ص ١٠٢ .

وكثيرا ما قلت لنفسى : ها نحن أولاء هنا فى هذه الجحور محاصرين ! . . . لقد غُرر بنا ، دفعنا إلى معركة لم نعد لها ! . لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات ، وتركنا هنا تحت النيران بغير سلاح ! . .

وحين كنت أصل إلى هذا الحد من تفكيرى كانت إحدى خواطرى تقفز فجأة عبر ميادين القتال ، وعبر الحدود إلى مصر ، وأقول لنفسى : هذا هو وطننا هناك ، إنه « فالوجة » أخرى على نطاق كبير . . . إن الذى يحدث لنا هنا صورة من الذى يحدث هناك . . صورة مصغرة . . وطننا هو الآخر حاصرته المشاكل والأعداء وغرر به . . . ودفع إلى معركة لم يعد لها ، ولعبت بأقداره مطامع ومؤامرات وشهوات ، وترك هناك تحت النيران بغير سلاح ! ...

(٧)

درس من إسرائيل

وأكثر من هذا ، لم يكن الأصدقاء هم الذين تحدثوا معى عن مستقبل وطننا فى فلسطين ، ولم تكن التجارب هى التى قرعت أفكارنا بالنذر والاحتمالات عن مصيره ، بل إن الأعداء أيضا لعبوا دورهم فى تذكيرنا بالوطن ومشاكله . . .

ومنذ أشهر قليلة قرأت مقالات كتبها عنى ضابط إسرائيلى اسمه « يردهان كوهين » ونشرتها له جريدة « جويشن أوبزرفر » ؛ وفى هذه المقالات روى الضابط اليهودى كيف التقى بى أثناء مباحثات واتصالات عن الهدنة ، وقال : « لقد كان الموضوع الذى يطرقه « جمال عبد الناصر » معى دائما ، هو كفاح إسرائيل ضد الإنجليز ، وكيف نظمنا حركة مقاومتنا السرية لهم فى فلسطين ، وكيف استطعنا أن نجند الرأى العام فى العالم وراءنا فى كفاحنا ضدهم » .

(٨)

حادث ٤ فبراير ١٩٤٢

ثم إن هذا اليوم — اليوم الذى اكتشفت فيه بذور الثورة فى نفسى — أبعد من حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ [١] الذى كتبت بعده خطابا إلى صديق قلت له فيه :

« ما العمل بعد أن وقعت الواقعة وقبلناها مستسلمين خاضعين خانعين ؟ . . .

« الحقيقة أنى أعتقد أن الاستعمار يلعب بورقة واحدة فى يده بقصد التهديد فقط ، ولكن لو أنه أحس أن بعض المصريين ينوون

---

(١) فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، كانت الجيوش الألمانية قد اجتازت حدود مصر الغربية ، بقيادة « روميل » ، تتعقب الجيوش البريطانية المنهزمة ، حتى بلغت « العلمين » على مقربة من الإسكندرية ، وأدرك الإنجليز يومئذ أن آخرتهم فى مصر قد حانت . وكان أشد ما يخشونه أن ينضم المصريون إلى أعداء بريطانيا ، انتقاماً لأنفسهم من المظالم التى نالهم بها الاحتلال البريطانى خلال ستين سنة ، فكأنما خيل للانجليز أنهم يستطيعون أن يتقوا هذا الشر ، لو كان على رأس الحكومة المصرية رجل يأمنون جانبه ويأمنون جانب الشعب معه ، فذهب سفيرهم فى ٤ فبراير إلى قصر الملك ، يطلب إليه إسناد رياسة الوزارة إلى مصطفى النحاس ، وأنذروه إن لم يفعل ، أن يتحمل نتائج رفضه . ثم زحفت دبابات الإنجليز على قصر الملك ، فخضع فاروق وأسند رياسة الوزارة إلى مصطفى النحاس ؛ استجابة لرغبة بريطانيا .

التضحية بدمائهم ويقابلون القوة بالقوة لانسحب كأى امرأة من العاهرات . . »

وطبعا هذا حاله ، أو تلك عادته . . .

أما نحن ، أما الجيش ، فقد كان لهذا الحادث تأثير جديد على الروح والإحساس فيه ؛ فبعد أن كنت ترى الضباط لا يتكلمون إلا عن الفساد واللهو ، أصبحوا يتكلمون عن التضحية والاستعداد لبذل النفوس فى سبيل الكرامة ، وأصبحت تراهم وكلهم ندم ؛ لأنهم لم يتدخلوا — مع ضعفهم الظاهر — ويردوا للبلاد كرامتها ، ويغسلوها بالدماء ، ولكن إن غداً لناظره قريب . . .

لقد حاول البعض بعد الحادث أن يعملوا شيئا بغية الانتقام ، ولكن الوقت كان قد فات ، أما القلوب فكلها نار وأسى . . .

والواقع أن هذه الحركة . . . أن هذه الطعنة ، ردت الروح إلى بعض الأجساد ، وعرفتهم أن هناك كرامة يجب أن يستعدوا للدفاع عنها ، وكان هذا درسا قاسيا .

(٩)

ذكريات من ١٩٣٥

وكذلك فإن فى هذا اليوم أبعد فى حياتى من الفوران الذى عشت فيه أيام كنت طالباً أمشى مع المظاهرات الهاتفة بعودة دستور سنة ١٩٢٣ — وقد عاد الدستور بالفعل — فى سنة ١٩٣٥[1] . . .

---

(١) لم يكن قصد الملك فؤاد — والإنجليز من ورائه — حين أعلن الدستور فى سنة ١٩٢٣ ودعا الشعب إلى انتخاب ممثليه فى البرلمان — إلا أن يصدع وحدة الشعب ؟ وشغله — بالمنافسات الحزبية حول مقاعد البرلمان ومناصب الحكم — عن أمانيه القومية ، ولقد تحقق له وللانجليز ما أرادوا من ذلك ، فتصدعت وحدة الشعب التى زلزلت كيان بريطانيا سنة ١٩١٩ ، وصار الشعب أحزاباً وشيعاً ، يكيد بعضهم لبعض ، ويتربص بعضهم ببعض ، وشغلهم الصراع على المناصب عن الكفاح لتحقيق الاستقلال ، ورأى فؤاد الفرصة سانحة فى سنة ١٩٣٠ ليسترد الدستور الذى أعلنه فى سنة ١٩٢٣ ، ليعود إلى نوع من حكم الفرد سموه بعنوان دستورى زائف ، فأعلن إلغاء الدستور واستبدل به دستوراً آخر لا يحقق للشعب سلطة ولا سيادة ، وقهر البلاد بالعنف على الاستسلام والرضا ، وفرض عليها حكومة استبدادية ، تنتحل صفة دستورية زائفة ، بضع سنين ، ولكن الشعب لم يخضع ، ولم يتخل عن مثله العليا وأمانيه القومية التى يكافح فى سبيلها منذ سنين ذات عدد ، فما هو إلا أن أتيحت له الفرصة فى سنة ١٩٣٥ ، حتى ثار ثورة حاطمة ، مطالباً بعودة دستور سنة ١٩٢٣ ...

وطأطأ فؤاد رأسه للشعب ، كما طأطأ أخوه توفيق من قبل للثورة العرابية ، ورد للشعب دستور سنة ١٩٢٣ ، ودعاه لانتخاب ممثليه فى البرلمان على النظام الذى يرتضيه ...

وأيام كنت أسعى مع وفود الطلبة ، إلى بيوت الزعماء نطلب منهم أن يتحدوا من أجل مصر ، وتألفت الجبهة الوطنية سنة ١٩٣٦ ، بالفعل على أثر هذه الجهود .

وأذكر أننى فى فترة الفوران هذه كتبت خطابا إلى صديق من أصدقائى ، قلت فيه ، وكان تاريخه ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٥ .

« أخى . . .

« خاطبت والدك يوم ٣٠ أغسطس فى التليفون ، وقد سألته عنك فأخبرنى أنك موجود فى المدرسة . . .

« لذلك عولت على أن أكتب إليك ما كنت سأكلمك فيه تليفونياً . . .

« قال الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . . » فأين تلك القوة التى تستعد بها لهم ؟ . . .

إن الموقف اليوم دقيق ، ومصر فى موقف أدق . . . ونحن نكاد نودع الحياة ونصافح الموت ، فإن بناء اليأس عظيم الأركان ؛ فأين من يهدم هذا البناء . . . ؟ »

= ولكن ، كما كان خضوع توفيق فى سنة ١٨٨١ تمهيداً للاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ ، كان خضوع فؤاد من بعد تمهيداً لمعاهدة سنة ١٩٣٦ التى تربط مصر إلى عجلة بريطانيا رباطاً أبدياً لا فكاك منه ، فعلى أثر عودة الدستور ، تألفت الجبهة الوطنية التى تضم زعماء الأحزاب جميعا ، لتدخل مع بريطانيا فى مفاوضة جديدة لحل المسائل المعلقة بين البلدين ، ثم انتهت هذه المفاوضات إلى المعاهدة الأبدية ، التى مزقتها الثورة الشعبية بعد ذلك وأكرهت الإنجليز على الجلاء الذى لا رجعة بعده .

ثم مضيت فى الخطاب إلى آخره . . .

وإذن فمتى كان ذلك اليوم الذى اكتشفت فيه بذور الثورة فى أعماق ؟ . . .

(١٠)

ميراث أجيال !

فلو أضيف إلى هذا كله ، أن تلك البذور لم تكن كامنة فى أعماق وحدى ، وإنما وجدتها كذلك فى أعماق كثيرين غيرى ، هم الآخرون بدورهم لايستطيع الواحد منهمأن يتعقب بدايةوجودها داخل كيانه ؛ — لا تضح إذن أن هذه البذور ولدت فى أعماقنا حين ولدنا ، وأنها كانت أملا مكبوتا خلفه فى وجداننا جيل سبقنا . . .

(١١)

فى داخل الدوامة !

ولقد استطردت وراء هذا كله؛ لأشرح السبب الأول الذى من أجله وجدت من الصعب على أن أتحدث عن فلسفة الثورة ، وقلت إن هذا الحديث يلزمه أساتذة يتعمقون فى البحث عن جذورها الضاربة فى أعماق تاريخ شعبنا . . .

أما السبب الثانى فهوأننى كنت بنفسى داخل الدوامة العنيفةللثورة .

والذين يعيشون فى أعماق الدوامة قد تخفى عليهم بعض التفاصيل البعيدة عنها . . .

وكذلك كنت بإيمانى وعقلى وراء كل ما حدث ، وبنفس الطريقة التى حدث بها ؛ وإذن فهل أستطيع أن أتجرد من نفسى حين أتكلم عنه ، وحين أتكلم عن المعانى المستترة وراءه ؟...

(١٢)

يجب أن نتجرد لنحكم

أنا من المؤمنين بأنه لا شىء يمكن أن يعيش فى فراغ . . . حتى الحقيقة لا يمكن أن تعيش فى فراغ ...

والحقيقة الكامنة فى أعماقنا هى ما نتصور نحن أنه الحقيقة . أو بمعنى أصح : هو الحقيقة مضافاً إليها نفوسنا . . .

نفوسنا هى الوعاء الذى يعيش فيه كل ما فينا ، وعلى شكل هذا الوعاء سوف يتشكل كل ما يدخل فيه ، حتى الحقائق[1]

وأنا أحاول — بقدر ما تستطيع طاقتى البشرية — أن أمنع

---

(١) يعنى أننا لا نستطيع أن نحكم على الشىء بدقة تجعل حكمنا عليه قريباً من الحقيقة ، إذا كنا نحن أنفسنا جزءاً من هذه الحقيقة ، فإن شرط القاضى أن يتجرد ، وألا يحكم فى قضية يتصل موضوعها بشخصه أى اتصال ، حتى لا يتلون حكمه بلون من ألوان عاطفته .

نفسى من أن تغير كثيراً من شكل الحقيقة ، ولكن إلى أى حد سوف يلازمنى التوفيق ؟ . . .

هذا سؤال !

وبعده أريد أن أكون منصفاً لنفسى ، ومنصفاً لفلسفة الثورة ؛ فأتركها للتاريخ يجمع شكلها فى نفسى ، وشكلها فى نفوس غيرى ، وشكلها فى الحوادث جميعاً ، ويخرج من هذا كله بالحقيقة كاملة[1] . . .

---

(١) يعنى أنه ما دام التجرد للحكم غير مستطاع ، فإن الإنصاف يفرض عليه أن يترك الحكم للتاريخ .

(١٣)

مراحل هذه الثورة

أمل ، ثم فكرة ، ثم تدبير ، ثم تجارب . . .

وإذن فما الذى أريد أن أتحدث عنه إذا كنت قد استبعدت كلمة « فلسفة » ؟...

الواقع أن الذى أملكه فى هذا الصدد شيئان :

أولهما مشاعر اتخذت شكل الأمل المبهم ، ثم شكل الفكرة المحددة ، ثم شكل التدبير العملى ؛ حتى منتصف ليل ٢٣ يوليو .

وثانيهما تجارب وضعت هذه المشاعر ـ بأملها المبهم ، وفكرتها المحددة ، وتدبيرها العملى ـ موضع التنفيذ الفعلى فى منتصف ليل ٢٣ يوليو حتى الآن . . .

وعن هذه المشاعر والتجارب أريد أن أتحدث . . .

(١٤)

لماذا قام الجيش بالثورة؟
ولماذا استمر؟

لطالما ألح على خواطرى سؤال، هو :

« هل كان يجب أن نقوم، نحن الجيش، بالذى قمنا به فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ؟ » .

لقد قلت منذ سطور، إن ثورة ٢٣ يوليو كانت تحقيقاً لأمل كبير، راود شعب مصر، منذ بدأ فى العصر الحديث يفكر فى أن يكون حكمه فى أيدى أبنائه، وفى أن تكون له نفسه الكلمة العليا فى مصيره ...

وإذا كان الأمر كذلك، ولم يكن الذى حدث يوم ٢٣ يوليو تمردا عسكريا، وليس ثورة شعبية ؛ فلماذا قدر للجيش، دون غيره من القوى، أن يحقق هذه الثورة ؟...

ولقد آمنت بالجندية طول عمرى، والجندية تجعل للجيش واجبا واحدا، وهو أن يموت على حدود وطنه ؛ فلماذا وجد جيشنا نفسه مضطرا للعمل فى عاصمة الوطن، وليس على حدوده ؟...

ومرة أخرى، دعونى أنبه إلى أن الهزيمة فى فلسطين، والأسلحة

الفاسدة ، وأزمة نادى الضباط ... لم تكن المنابع الحقيقية التى تدفق منها السيل ؛ لقد كانت هذه كلها عوامل مساعدة على سرعة التدفق ، ولكنها — كما سبق أن قلت — لا يمكن أبدا أن تكون هى الأصل والأساس .

وإذن فلماذا وقع على الجيش هذا الواجب ؟ ...

قلت إن هذا السؤال طالما ألح على خواطرى ...

ألح عليها ونحن فى دور الأمل والتفكير والتدبير قبل ٢٣ يوليو .

وألح عليها فى مراحل كثيرة من التجربة بعد ٢٣ يوليو .

ولقد كانت أمامنا مبررات مختلفة قبل ٢٣ يوليو تشرح لنا لماذا يجب أن نقوم بالذى قمنا به ...

(ا) كنا نقول : إذا لم يقم الجيش بهذا العمل فمن يقوم به ؟...

(ب) وكنا نقول : كنا نحن الشبح الذى يؤرق به الطاغية أحلام الشعب ، وقد آن لهذا الشبح أن يتحول إلى الطاغية نفسه فيبدد أحلامه هو . . .

(جـ) وكنا نقول غير هذا كثيرا ، ولكن الأهم من كل ما كنا نقوله ، أننا كنا نشعر شعورا يمتد إلى أعماق وجودنا بأن هذا الواجب واجبنا ، وأننا إذا لم نقم به نكون كأننا قد تخلينا عن أمانة مقدسة نيط بنا حملها ...

ولكنى أعترف أن الصورة الكاملة لم تتضح فى خيالى إلا بعد فترة طويلة من التجربة عقب ٢٣ يوليو ...

وكانت تفاصيل هذه التجربة ... هى بعينها تفاصيل الصورة !...

(١٥)

الطليعة تنتظر المدد

وأنا أشهد أنه مرت على بعد يوم ٢٣ يوليو نوبات اتهمت فيها نفسى وزملائى وباقى الجيش بالحماقة والجنون الذى صنعناه فى ٢٣ يوليو ...

لقد كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة ، وأنها لا تنتظر إلا طليعة تقتحم أمامها السور ، فتندفع الأمة وراءها صفوفا متراصة منتظمة تزحف زحفا مقدسا إلى الهدف الكبير . .

وكنت أتصور دورنا على أنه دور طليعة الفدائيين ، وكنت أظن أن دورنا هذا لا يستغرق أكثر من بضع ساعات ، ويأتى بعدنا الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة إلى الهدف الكبير ، بل قد كان الخيال يشط بى أحيانا فيخيل إلى أنى أسمع صليل الصفوف المتراصة ، وأسمع هدير الوقع الرهيب لزحفها المنظم إلى الهدف الكبير ، أسمع هذا كله ويبدو فى سمعى من فرط إيمانى به حقيقة مادية ، وليس مجرد تصورات خيال ...

ثم فاجأنى الواقع بعد ٢٣ يوليو ...

(١٦)

أين المدد من الشعب ؟

قامت الطليعة بمهمتهـا ، واقتحمت سور الطغيان ، وخلعت الطاغية ، ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة إلى الهدف الـكبير ...

وطال انتظارها ...

لقد جاءتها جموع ليس لها آخر ... ولـكن ما أبعد الحقيقة عن الخيال !

كانت الجموع التى جاءت أشياعا متفرقة ، وفلولا متناثرة ، وتعطل الزحف المقدس إلى الهدف الـكبير ، وبدت الصورة يومها قاتمة مخيفة تنذر بالخطر ...

(١٧)
شعار الثورة

وساعتها أحسست — وقلبي يملؤه الحزن، وتقطر منه المرارة — أن مهمة الطليعة لم تنته فى هذه الساعة، بل أنها من هذه الساعة بدأت . . .

كنا فى حاجة إلى النظام، فلم نجد وراءنا إلا الفوضى . . .

وكنا فى حاجة إلى الاتحاد، فلم نجد وراءنا إلا الخلاف . . .

وكنا فى حاجة إلى العمل، فلم نجد وراءنا إلا الخنوع والتكاسل . . .

ومن هنا — وليس من أى شيء آخر — أخذت الثورة شعارها[1]!...

---

(١) شعار الثورة : النظام، والاتحاد والعمل . وقد حلل الأستاذ عباس محمود العقاد، ووازن بينه وبين شعار كل من الثورة الفرنسية، والثورة التركية، والثورة الروسية، والثورة الصينية، وأسهب فى تعليل كل شعار منها ومدى انطباقه على واقع كل ثورة من تلك الثورات . انظر « فلسفة الثورة فى الميزان » للأستاذ عباس محمود العقاد .

(١٨)

فرصة للانتقام!

ولم نكن على استعداد . .

وذهبنا نلتمس الرأى من ذوى الرأى ، والخبرة من أصحابها . .

ومن سوء حظنا لم نعثر على شىء كثير . . .

كل رجل قابلناه لم يكن يهدف إلا إلى قتل رجل آخر .

وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف إلا إلى هدم فكرة أخرى !

ولو أطعنا كل ما سمعناه ، لقتلنا جميع الرجال وهدمنا جميع الأفكار ، ولما كان لنا بعدها ما نعمله إلا أن نجلس بين الأشلاء والأنقاض نندب الحظ البائس ونلوم القدر التعس !...

وانهالت علينا الشكاوى والعرائض بالألوف ومئات الألوف ، ولو أن هذه الشكاوى والعرائض كانت تروى لنا حالات تستحق الإنصاف ، أو مظالم يجب أن يعود إليها العدل ؛ — لكان الأمر منطقيا ومفهوما ، ولكن معظم ما كان يرد إلينا لم يزد أو ينقص عن أن يكون طلبات انتقام . . . كأن الثورة قامت لتكون سلاحا في يد الأحقاد والبغضاء!

(١٩)

أين الإنصاف؟

ولو أن أحدا سألنى فى تلك الأيام ، ما هو أعز أمانيك ؟

لقلت له على الفور : أن أسمع مصريا يقول كلمة إنصاف فى حق مصرى آخر . . .

أن أحس أن مصريا قد فتح قلبه للصفح والغفران والحب لإخوانه المصريين . . .

أن أرى مصريا لا يكرس وقته لتسفيه آراء مصرى آخر . . .

(٢٠)

انتهازيون !

وكانت هناك بعد ذلك كله أنانية فردية مستحكمة . . .

كانت كلمة « أنا » على كل لسان . . .

كانت هى الحل لكل مشكلة ، وكانت الدواء لكل داء . . .

وكثيراً ما كنت أقابل كبراء — أو هكذا تسميهم الصحف — من كل الاتجاهات والألوان ، وكنت أسأل الواحد منهم فى مشكلة ألتمس منه حلا لها ، ولم أكن أسمع إلا « أنا » . . .

مشاكل الاقتصاد « هو » وحده يفهمها ، أما الباقون جميعا فهم في العلم بها أطفال يحبون .

ومشاكل السياسة « هو » وحده الخبير بها ، أما الباقون جميعا فما زالوا في « ألف باء » لم يتقدموا بعدها حرفا واحدا .

وكنت أقابل الواحد من هؤلاء ، ثم أعود إلى زملائي فأقول لهم في حسرة : لا فائدة . . . هذا رجل لو سألناه عن مشكلة صيد السمك في جزائر هاواي لما وجدنا عنده جوابا إلا كلمة « أنا » ! ...

(٢١)

درس في الجامعة

أذكر مرة كنت أزور فيها إحدى الجامعات ودعوت أساتذتها وجلست معهم أحاول أن أسمع منهم خبرة العلماء .

وتكلم أمامي منهم كثيرون . . . تكلموا طويلا . . .

ومن سوء الحظ أن أحدا منهم لم يقدم لي أفكارا ، وإنما كل منهم لم يزد على أن قدم لي نفسه ، وكفاياته الخلقية وحده لعمل المعجزات ، ورمقني كل واحد منهم بنظرة الذي يؤثرني على نفسه بكنوز الأرض وذخائر الخلود ! ...

(٢٢)

المعجزة التى نستطيعها . . .

وأذكر أنى لم أتمالك نفسى ، فقمت بعدها أقول لهم :

إن كل فرد منا يستطيع فى مكانه أن يصنع معجزة : إن واجبه الأول أن يعطى كل جهده لعمله ، ولو أنكم ، كأساتذة جامعات ، فكرتم فى طلبتكم ، وجعلتموهم — كما يجب — عملكم الأساسى ، لاستطعتم أن تعطونا قوى هائلة لبناء الوطن .

إن كل واحد يجب أن يبقى فى مكانه ويبذل فيه كل جهده .

لا تنظروا إلينا ، لقد اضطرتنا الظروف أن نخرج من أماكننا ؛ لنقوم بواجب مقدس ، ولقد كنا نتمنى لو لم تكن للوطن حاجة بنا إلا فى صفوف الجيش كجنود محترفين ، إذن لبقينا فيه .

(٢٣)

ثوار ولكنهم أساتذة

ولم أشأ ساعتها أن أضرب لهم المثل من أعضاء مجلس قيادة الثورة، ولم أشأ أن أقول لهم إنهم قبل أن يدعوهم الطارىء الذى دعاهم إلى الواجب الأكبر ، كانوا يبذلون فى عملهم كل جهدهم .

ولم أشأ أن أقول لهم إن معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا أساتذة فى كلية أركان الحرب ، وهذا دليل امتيازهم فى ناحيتهم كجنود محترفين . . .

وكذلك لم أشأ أن أقول لهم إن ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، هم «عبد الحكيم عامر» ، و« صلاح سالم » ، و« كمال الدين حسين » ، رقوا ترقيات استثنائية فى ميدان القتال فى فلسطين .

لم أشأ أن أقول لهم شيئاً من هذا ؛ لأنى لا أريد أن أفاخر الناس بأعضاء مجلس قيادة الثورة ، وهم إخوتى وزملائى .

(٢٤)

أزمة نفسية

وأعترف أن هذا الحال كله سبب لى أزمة نفسية كئيبة .

ولكن التجارب فيما بعد ، وتأمل هذه التجارب واستخلاص معانيها الحقيقية ، خففت من وقع الأزمة فى نفسى ، وجعلتنى ألتمس لهذا كله أعذارا من الواقع ، عثرت عليها حين اتضحت أمامى — إلى حد ما — الصورة الكاملة لحالة الوطن ؛ وأكثر من هذا أعطتنى الجواب عن السؤال الذى قلت إنه طالما راودنى ، وهو :

« هل كان يجب أن نقوم ، نحن الجيش ، بالذى قمنا به فى ٢٣ يوليو ؟ » .

والجواب : نعم ، ولم يكن هناك مهرب أو مفر !

(٢٥)
نحن نعيش فى ثورتين

وأنا الآن أستطيع أن أقول إننا نعيش فى ثورتين وليس فى ثورة واحدة . . .

ولكل شعب من شعوب الأرض ثورتان :

ثورة سياسية ، يسترد بها حقه فى حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه ، أو من جيش معتد أقام فى أرضه دون رضاه ،

وثورة اجتماعية ، تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد .

لقد سبقتنا على طريق التقدم البشرى شعوب مرت بالثورتين ولكنها لم تعشهما معاً ، وإنما فصل بين الواحدة والثانية مئات من السنين ؛ أما نحن فإن التجربة الهائلة التي امتحن بها شعبنا هى أن نعيش الثورتان معاً فى وقت واحد . . .

(٢٦)

بين شقى الرحى !

وهذه التجربة الهائلة مبعثها أن لكل من الثورتين ظروفاً مختلفة ، تتنافر تنافراً عجيباً وتتصادم تصادماً مروعاً . . .

(ا) إن الثورة السياسية تتطلب لنجاحها : وحدة جميع عناصر الأمة وترابطها وتساندها ونكرانها لذاتها فى سبيل الوطن كله .

(ب) والثورة الاجتماعية ، من أول مظاهرها تزلزل القيم وتخلخل العقائد، وتصارع المواطنين مع أنفسهم أفراداً وطبقات ، وتحكم الفساد والشك والكراهية . . . والأنانية . . .

وبين شقى الرحى هذين ، قدر لنا أن نعيش اليوم فى ثورتين :

ثورة تحتم علينا أن نتحد ، ونتحاب ، ونتفانى فى الهدف . .

وثورة تفرض علينا — رغم إرادتنا — أن نتفرق ، وتسودنا البغضاء ، ولا يفكر كل منا إلا فى نفسه . . .

(٢٧)

لماذا أخفقت ثورة ١٩١٩ ؟

وبين شقى الرحى هذين — مثلا — ضاعت ثورة ١٩١٩ ولم تستطع أن تحقق النتائج التى كان يجب أن تحققها .

الصفوف التي تراصت فى سنة ١٩١٩ تواجه الطغيان ، لم تلبث إلا قليلا حتى شغلها الصراع فيما بينها أفراداً وطبقات . . .

وكانت النتيجة فشلا كبيراً ؛ فقد زاد الطغيان بعدها تحكماً فينا ، سواء بواسطة قوات الاحتلال السافرة ، أو بصنائع الاحتلال المقنعة التى كان يتزعمها فى ذلك الوقت السلطان فؤاد وبعده ابنه فاروق ، ولم يحصد الشعب إلا الشكوك فى نفسه ، وإلا الكراهية والبغضاء والأحقاد فيما بين أفراده وطبقاته .

وشحب الأمل الذى ينتظر أن تحققه ثورة ١٩١٩ .

ولقد قلت شحب الأمل ، ولم أقل تلاشى ؛ ذلك لأن قوى المقاومة الطبيعية التى تدفعها الآمال الكبيرة التى تراود شعبنا ، كانت لا تزال تعمل عملها وتستعد لمحاولة جديدة .

وكان ذلك هو الحال الذى ساد بعد ثورة ١٩١٩ ، والذى فرض على الجيش أن يكون وحده هو القوة القادرة على العمل .

(٢٨)

مرة أخرى: لماذا قام الجيش بالثورة ؟

كان الموقف يتطلب أن تقوم قوة يقرب مابين أفرادها إطار واحد، يبعد عنهم إلى حد ما صراع الأفراد والطبقات . . .

وأن تكون هذه القوة من صميم الشعب . . .

وأن يكون فى يدهم من عناصر القوة المادية ما يكفل لهم عملا سريعاً حاسماً . . .

ولم تكن هذه الشروط تنطبق إلا على الجيش . . .

وهكذا لم يكن الجيش — كما قلت — هو الذى حدد دوره فى الحوادث، وإنما العكس كان أقرب إلى الصحة، وكانت الحوادث وتطوراتها هى التى حددت للجيش دوره فى الصراع الكبير لتحرير الوطن .

(٢٩)

الظروف تفرض الثورتين معاً

ولقد أدركت منذ البداية أن نجاحنا يتوقف على إدراكنا الكامل لطبيعة الظروف التى نعيش فيها من تاريخ وطننا ، فإننا لم نكن نستطيع أن نغير هذه الظروف بجرة قلم ، وكذلك لم نكن نستطيع أن نؤخر عقارب الساعة أو نقدمها ونتحكم فى الزمن . . . وكذلك لم يكن فى استطاعتنا أن نقوم على طريق التاريخ بمهمة جندى المرور ، فنوقف مرور ثورة حتى تمر ثورة أخرى ونحول بذلك دون وقوع حادث اصطدام ، وإنما كان الشيء الوحيد الذى نستطيعه هو أن نتصرف بقدر الإمكان، وننجو من أن يطحننا شقا الرحى !

وكان لا بد أن نسير فى طريق الثورتين معاً .

ويوم سرنا فى طريق الثورة السياسية فخلعنا فاروق عن عرشه ، سرنا خطوة مماثلة فى طريق الثورة الاجتماعية فقررنا تحديد الملكية .

(٣٠)

تناقض طبيعى فرضته الضرورات

وما زلت حتى اليوم أعتقد أنه ينبغى أن تظل ثورة «٢٣ يوليو» محتفظة بقدرتها على الحركة السريعة والمبادأة ؛ لكى تستطيع أن تحقق معجزة السير فى ثورتين فى وقت واحد ، مهما بدا فى بعض الأحيان من التناقض فى تصرفاتنا .

وحين جاءنى واحد من أصدقائى يقول لى : « أنت تطالب بالاتحاد لمواجهة الإنجليز ، وأنت فى نفس الوقت تسمح لمحاكم الغدر أن تستمر فى عملها . . . »

استمعت إليه وكانت فى خيالى أزمتنا الكبيرة ، أزمة شقى الرحى .

ثورة تقتضينا أن نتحد صفاً واحداً وننسى الماضى .

وثورة تفرض علينا أن نعيد الهيبة الضائعة لقيم الأخلاق ، ولا ننسى الماضى ! ...

ولم أقل لهذا الصديق : إن منفذنا الوحيد إلى النجاة ، أن نحتفظ

— كما قلت — بسرعة الحركة والمبادأة ، وبالقدرة على أن نسير فى طريقين فى وقت واحد .

ولم أشأ أنا ذلك ، ولا شاءه كل الذين شاركوا فى ٢٣ يوليو .

ولكن القدر شاء ، وتاريخ شعبنا ، والمرحلة التى يمر بها اليوم .

الجزء الثانى

(١)

أهداف الثورة ووسائلها

(ا) ولكن ما الذى نريد أن نصنعه ؟

(ب) وما هو الطريق إليه ؟

الحق أنى فى معظم الأحيان كنت أعرف الإجابة عن السؤال الأول ، وأخال أنى لم أكن وحدى المنفرد بهذه المعرفة ، وإنما كانت تلك المعرفة أملا انعقد عليه إجماع جيلنا كله .

أما الإجابة عن السؤال الثانى « طريقنا إلى هذا الذى نريده » فأنا أعترف أنها تغيرت فى خيالى كما لم يتغير شيء آخر ، وأكاد أعتقد أيضاً أنها موضوع الخلاف الأكبر فى هذا الجيل ؟

وما من شك فى أننا جميعاً نحلم بمصر المتحررة القوية . ذلك أمر ليس فيه خلاف بين مصرى ومصرى .

أما الطريق إلى التحرر والقوة ، فتلك عقدة العقد فى حياتنا

ولقد واجهت تلك العقدة قبل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وظللت أواجهها بعد ذلك كثيراً حتى اتضحت لى زوايا كثيرة ، كانت الظلال تسقط عليها فتخيفها ، وبدت أمام بصيرتى آفاق كان الظلام الذى ساد وطننا قرونا طويلة يلفها فلا أراها ! ...

(٢)

العمل الإيجابى

ولقد أحسست منذ انبثق الوعى فى وجدانى ، أن العمل الإيجابى يجب أن يكون طريقنا . . . ولكن أى عمل ؟ ! ...

ولقد تبدو كلمة « العمل الإيجابى » على الورق كافية لتحل المشكلة ، ولكنها فى الحيـــــاة ، وفى الظروف العسيرة التى عاشها جيلنا ، وفى المحن التى كانت تنشب أظفارها فى مقدرات وطننا ؛ — لم تكن كافية ! ...

(٣)

ليس هو المظاهرات . . .

وفى فترة من حياتى كانت الحماسة هى العمل الإيجابى فى تقديرى .

ثم تغير مثلى الأعلى فى العمل الإيجابى وأصبحت أرى أنه لا يكفى أن تضج أعصابى وحدى بالحماسة ، وإنما على أن أنقل حماستى كى تضج بها أعصاب الآخرين . . .

وفى تلك الأيام قدت مظاهرات فى مدرسة النهضة ، وصرخت من أعماق بطلب الاستقلال التام ، وصرخ ورائى كثيرون ، ولكن صراخنا ضاع هباء ، وبددته الرياح أصداء واهنة لا تحرك الجبال ولا تحطم الصخور .

(٤)

وليس هو اجتماع الزعماء . . .

ثم أصبح العمل الإيجابى فى رأيى أن يجتمع كل زعماء مصر ؛ ليتحدوا على كلمة واحدة ، وطافت جموعنا الهاتفة الثائرة بيوتهم واحداً واحداً ، تطلب إليهم باسم شباب مصر أن يجتمعوا على كلمة واحدة ؛ ولكن اتحادهم على كلمة واحدة كان فجيعة لإيمانى ؛ فإن الكلمة الواحدة التى اجتمعوا عليها كانت معاهدة سنة ١٩٣٦[1] .

---

(١) انظر التعليق ص ٣٦ .

(٥)

وليس هو الاغتيالات السياسية...

وجاءت الحرب العالمية الثانية وما سبقها بقليل على شبابنا ، فألهبته وأشاعت النار فى خلجاته ، فبدأ اتجاهنا ، اتجاه جيل بأكمله ، يسير إلى العنف .

وأعترف — ولعل النائب العام لا يؤاخذنى بهذا الاعتراف — أن الاغتيالات السياسية توهجت فى خيالى المشتعل فى تلك الفترة ،على أنها العمل الإيجابى الذى لا مفر من الإقدام عليه إذا كان يجب أن ننقذ مستقبل وطننا .

وفكرت فى اغتيال كثيرين وجدت أنهم العقبات التى تقف بين وطننا وبين مستقبله ، ورحت أعد جرائمهم ، وأضع نفسى موضع الحكم على أعمالهم ، وعلى الأضرار التى ألحقوها بهذا الوطن ، ثم أشفع ذلك كله بالحكم الذى يجب أن يصدر عليهم .

وفكرت فى اغتيال الملك السابق وبعض رجاله الذين كانوا يعبثون بمقدساتنا .

ولم أكن وحدى فى هذا التفكير .

ولما جلست مع غيرى انتقل بنا التفكير إلى التدبير .

(٦)

خطط للاغتيال !

وما أكثر الخطط التي رسمتها في تلك الأيام ، وما أكثر الليالي التي سهرتها ، أعد العدة للأعمال الإيجابية المنتظرة .

كانت حياتنا في تلك الفترة كأنها قصة بوليسية مثيرة .

كانت لنا أسرار هائلة ، وكانت لنا رموز ، وكنا نتستر بالظلام ، وكنا نرص المسدسات بجوار القنابل ، وكانت طلقات الرصاص هي الأمل الذي نحلم به !

وقمنا بمحاولات كبيرة على هذا الاتجاه ، وما زلت أذكر حتى اليوم انفعالاتنا ومشاعرنا ونحن نندفع في الطريق إلى نهايته .

(٧)

الاغتيال جريمة وحشية !

والحق أنني لم أكن في أعماق مستريحاً إلى تصور العنف على أنه العمل الإيجابي الذي يتعين علينا أن ننقذ به مستقبل وطننا .

كانت في نفسي حيرة ، تمتزج فيها عوامل متشابكة ، عوامل من

الوطنية ومن الدين ، ومن الرحمة ومن القسوة ، ومن الإيمان ومن الشك ، ومن العلم ومن الجهل .

ورويداً رويدا وجدت فكرة الاغتيالات السياسية التي توهجت فى خيالى ، تخبو جذوتها وتفقد قيمتها فى قلبى كتحقيق للعمل الإيجابى المنتظر .

وأذكر ليلة حاسمة فى مجرى أفكارى وأحلامى فى هذا الاتجاه . . .

كنا قد أعددنا العدة للعمل .

واخترنا واحداً قلنا إنه يجب أن يزول من الطريق .

ودرسنا ظروف حياة هذا الواحد ووضعنا الخطة بالتفاصيل .

وكانت الخطة أن نطلق عليه الرصاص وهو عائد إلى بيته فى الليل .

ورتبنا فرقة الهجوم التى تتولى إطلاق النار ، ورتبنا فرقة الحراسة التى تحمى الهجوم ، ورتبنا فرقة تنظيم خطة الإفلات إلى النجاة بعد تنفيذ العملية بنجاح .

وجاءت الليلة الموعودة ، وخرجت بنفسى مع جماعات التنفيذ . . .

وسار كل شيء طبقاً لما تصورناه .

كان المسرح خالياً كما توقعنا ، وكمنت الفرق فى أماكنها التى

حددت لها ، وأقبل الواحد الذى كان يجب أن يزول ، وانطلق نحوه الرصاص .

وانسحبت فرقة التنفيذ ، وغطت انسحابها فرقة الحراسة ، وبدأت عملية الإفلات إلى النجاة ، وأدرت محرك سيارتى وانطلقت أغادر المسرح الذى شهد عملنا الإيجابى الذى رتبناه .

وفجأة دوت فى سمعى أصوات صراخ وعويل ، وولولة امرأة ، ورعب طفل ، ثم استغاثة متصلة محمومة .

وكنت غارقا فى مجموعة من الانفعالات الثائرة ، والسيارة تندفع بى مسرعة .

ثم أدركت شيئاً عجيباً . . .

كانت الأصوات مازالت تمزق سمعى . . .

الصراخ ، والعويل ، والولولة ، والاستغاثة المحمومة . . .

لقد كنت بعدت عن المسرح بأكثر مما يمكن أن يسرى الصوت ، ومع ذلك بدا ذلك كله كأنه يلاحقنى ويطاردنى .

ووصلت إلى بيتى ، واستلقيت على فراشى وفى عقلى حمى ، وفى قلبى وضميرى غليان متصل .

وكانت أصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة تطرق سمعى .

ولم أنم طول الليل . . .

(٨)

خطرات نفس!

بقيت مستلقياً على فراشي فى الظلام ، أشعل سيجارة وراء سيجارة ، وأسرح مع الخواطر الثائرة ، ثم تتبدد كل خواطرى على الأصوات التى تلاحقنى . . .

* أكنت على حق ؟

وأقول لنفسى فى يقين :

— دوافعى كانت من أجل وطنى !...

* آكانت تلك هى الوسيلة التى لامفر منها ؟...

وأقول لنفسى فى شك :

— ماذا كان فى استطاعتنا أن نفعل ؟...

* أيمكن حقاً أن يتغير مستقبل بلدنا إذا خلصناه من هذا الواحد أو من واحد غيره ، أم المسألة أعمق من هذا ؟...

وأقول لنفسى فى حيرة :

— أكاد أحس أن المسألة أعمق !!

* إننا نحلم بمجد أمة ، فما هو الأهم : أيمضى من يجب أن يمضى ، أم يجىء من يجب أن يجىء ؟

وأقول لنفسى وإشعاعات النور تتسرب بين الخواطر المزدحمة :

— بل المهم أن يجىء من يجب أن يجىء . . . إننا نحلم بمجد أمة ، ويجب أن يبنى هذا المجد ! . . .

وأقول لنفسى وما زلت أتقلب فى فراشى فى الغرفة التى ملأها الدخان وتكاثفت فيها الانفعالات :

— وإذن ؟ . . .

وأسمع هاتفاً يرد على :

— وإذن ماذا ؟ . . .

وأقول لنفسى فى يقين هذه المرة :

— إذن يجب أن يتغير طريقنا . . . ليس ذلك هو العمل الإيجابى الذى يجب أن نتجه إليه . . . المسألة أعمق جذوراً وأكثر خطورة وأبعد أغوارا .

وأحس براحة نفسية صافية ، ولكن الصفاء ما يلبث أن تمزقه هو الآخر أصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة ، تلك التى ما زالت أصداؤها ترن فى أعماق .

ووجدت نفسى أقول فجأة :

— ليته لا يموت ! . . .

وكان عجيباً أن يطلع على الفجر وأنا أتمنى الحياة للواحد الذى تمنيت له الموت فى المساء ! . . .

وهرعت فى لهفة إلى إحدى صحف الصباح . . . وأسعدنى أن الرجل الذى دبرت اغتياله . . . قد كتبت له النجاة ! . . .

(٩)

الخطوط الأولى للثورة . . .

ولكن تلك لم تكن المشكلة الأساسية . . .

وإنما المشكلة الأساسية . . . هى العثور على العمل الإيجابى

ومنذ ذلك الوقت بدأ تفكيرنا الحقيقى فى شىء أعمق جذوراً وأكثر خطورة وأبعد أغوارا .

وبدأنا نرسم الخطوط الأولى للصورة التى تحققت مساء ٢٣ يوليو ، ثورة منبعثة من قلب الشعب ، حاملة لأمانيه ، مُكملة لنفس الخطوات التى خطاها من قبل على طريق مستقبله .

ولقد بدأت هذا الحديث بسؤالين :

أولها : ولـكن ما الذى نريد أن نصنعه ؟...

والثانى : وما هو طريقنا إليه ؟...

وقلت إن الإجابة عن السؤال الأول أمل انعقد عليه الإجماع !... أما السؤال الثانى — طريقنا إلى الذى نريد أن نصنعه — فهو الذى أطلت فيه الـكلام حتى وصلت إلى يوم ٢٣ يوليو !...

(١٠)

أعباء النصر !

ولـكن أكان الذى حدث يوم ٢٣ يوليو هو كل ما كنا نريد أن نصنعه !...

المؤكد أن الجواب بالنفى ، فإن تلك لم تـكن إلا الخطوة الأولى على الطريق :

والحق أن فرحة النجاح فى ٢٣ يوليو لم تخدعنى ، ولم تصور لى أن الآمال قد تحققت ، وأن الربيع قد جاء . . . بل لعل العكس هو الصحيح .

لقد كانت كل دقيقة تحمل إلى انتصاراً جديداً للثورة ، تحمل إلى فى الوقت نفسه عبئا ضخماً ثقيلا ، تلقيه بلا مبالاة فوق كتفى .

(١١)

رواسب الماضى

ولقد قلت فى الجزء الأول من هذا الحديث : إنى كنت أتصور قبل ٢٣ يوليـو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة . وأنها لاتنتظر إلا طليعة تقتحم أمامها السور فتندفع الأمة وراءها صفوفا متراصة منتظمة زاحفة .

وقلت إننى تصورت دورنا على أنه دور الطليعة . وكنت أتصور أنه لن يستغرق أكثر من بضع دقائق يلحق بنا بعدها زحف الصفوف المتراصة المنتظمة .

ورسمت أيضا فى ذلك الجزء صورة للخلافات والفوضى والأحقاد والشهوات التى انطلقت من عقالها فى تلك اللحظات ، كل منها يحاول بأنانيته أن يستغل الثورة لتحقيق أهداف بعينها .

ولقد قلت وسأظل أقول إن تلك كانت أقسى مفاجأة فى حياتى !

ولـكنى أشهد أنه كان يجب أن أتوقع أن يحدث الذى حدث . . .

لم يكن يمـكن أن نضغط على زر كهربائى فتتحقق أحلامنا . . .

ولم يكن يمـكن فى غمضة عين أن تزول رواسـب قرون ومخلفات أجيال ! . . .

(١٢)

العنف لا يجدى !

ولقد كان من السهل وقتها — وما زال سهلا حتى الآن — أن نريق دماء عشرة أو عشرين أو ثلاثين فنضع الرعب والخوف فى كثير من النفوس المترددة ونرغمها على أن تبتلع شهواتها وأحقادها وأهواءها .

ولكن أى نتيجة كان يمكن أن يؤدى إليها مثل هذا العمل ؟...

ولقد كنت أرى أن الوسيلة لمواجهة أى مشكلة من المشاكل هو ردها إلى أصلها ومحاولة تتبع الينبوع الذى بدأت منه .

وكان من الظلم أن يفرض حكم الدم علينا دون أن ننظر إلى الظروف التاريخية التى مر بها شعبنا ، والتى تركت فى نفوسنا جميعاً تلك الآثار ، وصنعت منا ما نحن عليه الآن .

ولقد قلت مرة إنى لا أريد أن أدعى لنفسى مقعد أستاذ التاريخ ، فذلك آخر مايجرى إليه خيالى ؛ وقلت إنى سأحاول محاولات تلميذ مبتدىء فى التاريخ .

(١٣)
ماضينا البعيد

لقد شاء لنا القدر أن نكون على مفرق الطرق من الدنيا .

وكثيراً ما كنا معبرا للغزاة ومطمعا للمغامرين ، ومرت بنا ظروف كثيرة يستحيل علينا أن نعلل العوامل الكامنة فى نفوس شعبنا إلا إذا وضعناها موضع الاعتبار .

وفى رأيى أنه لا يمكن إغفال تاريخ مصر الفرعونى . ثم تفاعل الروح اليونانى مع روحنا . ثم غزو الرومان . والفتح الإسلامى وموجات الهجرة العربية التى أعقبته .

وفى رأيى أيضاً أنه يجب التوقف طويلا عند الظروف التى مرت علينا فى العصور الوسطى ؛ فإن تلك الظروف هى التى وصلت بنا إلى ما نحن عليه الآن[1] .

---

(١) المقصود هنا بالعصور الوسطى : القرن العاشر الميلادى وما بعده (القرن الرابع الهجرى) ، حين بدأ الوهن يدب فى جسم الدولة الإسلامية وتنازعتها مطامع الأمراء . وفى هذا التاريخ نفسه بدأت الغزوات الصليبية .

(١٤)
الصليبيون والمغول والمماليك

وإذا كانت الحروب الصليبية بداية فجر النهضة فى أوربا [١] فقد كانت بداية عهود الظلام على وطننا .

---

(١) بدأت الحروب الصليبية أول ما بدأت فى إسبانيا ، حين انفرط عقد الدولة الأموية فى الأندلس وتوزعها «ملوك الطوائف» من حكام الولايات وأمراء المدن ، فرآها الإسبان فرصة سانحة للقضاء على الإسلام فى تلك البلاد ، واستثاروا حماسة المسيحيين من أبناء جلدتهم ومن جيرانهم فى فرنسا ومن ذوى دينهم فى إيطاليا وأواسط أوربا لحرب المسلمين حتى يجلوا عن شبه جزيرة الأندلس ، فنشأت المعارك الصليبية الأولى فى تلك البقاع ، ثم استمرت ...

ثم انتقل صدى هـذه الدعوة إلى فرنسا وإيطاليا وأواسط أوربا ، فإذا دعوة أخرى مماثلة تتردد هناك بقصد إجلاء المسلمين عن بيت المقدس وبلاد الشام ، فينتظم تحت رايتها الآلاف من ذوى العصبية المسيحية ، ويتخذون سبيلهم فى البر والبحر إلى الأرض المقدسة ، ومن ثمة كانت تسميتها بالحروب الصليبية ...

على أن هذه الحروب التى بدأت فى القرن العاشر استجابة لدعوة صليبية ، لم تلبث أن انقلبت إلى حرب توسع واستعمار ، أو إلى مغامرات فرسان يطلبون المجد أو يطمعون فى الغنيمة ، فانتظم تحت رايتها الأفاقون والسفاكون والطامحون إلى الإمارة والمولعون بالمغامرة وتجار الرقيق وأصحاب الشهوات ، إلى طوائف من ذوى الغفلة الدينية الذين يستجيبون لكل دعوة باسم الدين ؛ طمعاً فى المثوبة دون بحث أو تحقيق . وكان بين المغامرين فى هذه الحروب ملوك وأمراء وفرسان لا يؤمنون بإله خالق ، ولا يتورعون عن منكر ، ولا يعرفون فرق ما بين دين ودين ، وإنما هى معارك يخوضونها ليكسبوا مالا ، أو ليكسبوا مجداً وسمعة ، أو ليصيروا حكاماً وأمراء حين لا مطمع لهم فى الحكم والإمارة ببلادهم ، أو ليتسعوا فيما يملكون فيصير لهم عرش هنا وعرش هناك . ؟

=

فلقد تحمل شعبنا وحده معظم أعباء الحروب الصليبية ، وخرج بعدها فقيراً ، معدماً ، منهوك القوى .

وفى نفس الوقت الذى هدته المعركة فيه ، شاءت له الظروف أن يعانى الذل تحت سنابك خيول الطغاة القادمين من المغول والشركس[١] .

= وقد استطاع بعض أولئك المغامرين أن يحققوا بعض آمالهم ، فأنشئت على امتداد السواحل الشامية أو فى قلب البادية بعض إمارات « صليبية » يجلس على عروشها بعض أولئك المغامرين لتنشأ بين بعضهم وبعض فيما بعد حروب ومنافسات دموية لا يذكر فيها اسم الله ولا اسم الصليب ...

وقد وقع بيت المقدس فى يد بعض أولئك المحاربين الصليبيين وظلت تحت حكمهم مئة عام ، ثم استردها المسلمون على يد صلاح الدين ...

على أن وقوع بيت المقدس فى أيديهم — وكانت هى الهدف والغاية — لم يحملهم على إنهاء الحروب الصليبية ، فظلت حملاتهم متوالية على سواحل مصر وتونس وغير مصر وتونس من بلاد المسلمين ...

وكان على مصر أكبر العبء فى رد هؤلاء الغزاة المعتدين ، وبكفاحها ارتد الصليبيون مدحورين فلم تثبت لهم قدم فى بلد من بلادنا ، بعد حروب دامت ثلاثة قرون ...

وقد كان اتصال أوربا بالشرق فى الحروب الصليبية ، سبباً من أسباب النهضة الأوربية التى استكملت مظاهرها فى القرن الخامس عشر الميلادى ، فقد رأى الأوربيون فى بلادنا من صور الحضارة ما فتق أذهانهم وكشف الغشاوة عن عيونهم وفتح لهم آفاقاً من المعرفة ظهرت آثارها بينهم بعد قليل ، فكانت هذه الحروب خيراً لهم وشراً علينا .

(١) ولم تكد مصر تفرغ من هم الحروب الصليبية حتى كان المغول الزاحفون من وراء سد الصين قد بلغوا فى زحفهم حدود بلادنا ، بعد أن دمروا فى طريقهم =

كانوا يجيئون إلى مصر عبيداً فيفتكون بأمرائهم ويصبحون هم الأمراء !

وكانوا يساقون إليها مماليك فلا تمضى عليهم فترة فى البلد الطيب الوديع حتى يصبحوا ملوكا !

وأصبح الطغيان والظلم والخراب ، طابع الحكم فى مصر على عهدهم الذى عاشت مصر فى مجاهله قروناً طويلة .

فى تلك الفترة تحول وطننا إلى غابة تحكمها وحوش ضارية ، كان المماليك يعتبرونها غنيمة سائغة ، وكان الصراع الرهيب بينهم هو على نصيب كل منهم فى الغنيمة .

وكانت أرواحنا ، وثرواتنا ، وأراضينا ، هى الغنيمة !

= إلينا بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، ووطئت خيلهم بلاد الشام ، ولم يبق إلا أن يأكلونا كما أكلوا كل الأمم التى اعترضت سبيلهم منذ خرجوا من مجاهلهم يجتاحون البلاد بالويل والدمار ...

وقد أراد الله أن ينقذ الحضارة ويرد السلام إلى الأرض بأيدى المصريين ، فانتصرنا على المغول فى موقعة « عين جالوت » من أرض فلسطين فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ، ولكن هذا الانتصار كان فاتحة لهم جديد ، فقد مكن للمماليك الشراكسة — وكان منهم قادة الجيش الذى انتصر على المغول — فصار إليهم عرش مصر يتوارثونه مملوكا عن مملوك ، ثلاثة قرون ، حتى غلبهم الغازى العثمانى على ما كان فى أيديهم من السلطة فى القرن العاشر الهجرى — السادس عشر الميلادى ، وفقدت مصر استقلالها وحريتها .

(١٥)

آثار الإقطاع

وأحياناً حينما أعود إلى تقليب صفحات من تاريخنا ، أحس بالأسى يمزق نفسى إزاء تلك الفترة التى تكون فيها إقطاع طاغ ، لم يجعل له من عمل إلا مص دماء الحياة من عروقنا ، وأكثر من هذا ، سحب بقايا الإحساس بالقوة والكرامة من هذه العروق ، وترك فى أعماق نفوسنا تأثيراً يتعين علينا أن نكافح طويلا لكى نتغلب عليه ! . . .

(١٦)

آثار الماضى فى الحاضر

والواقع أن تصورى لهذا التأثير يعطينى فى كثير من الأحيان تفسيراً لبعض المظاهر فى حياتنا السياسية .

أحياناً مثلا يخيل إلى أن كثيرين يقفون من الثورة موقف المتفرج الذى لا يعنيه من الأمر إلا مجرد انتظار نتيجة معركة يتصارع فيها طرفان لا تربطه بأيهما علاقة .

وأحياناً أثور على هذا الوضع ، وأقول لنفسى ولبعض زملائى :

لـماذا لا يقدمون ؟ . . . ولماذا لا يخرجون من المكامن التى وضعوا فيها أنفسهم ، ليتكلموا ويتحركوا ؟ . . .

ولا أجد تفسيراً لهذا إلا رواسب حكم المماليك :

كان الأمراء يتصارعون ، ويتطاحن فرسانهم فى الشوارع ، ويهرع الناس إلى بيوتهم يغلقونها عليهم بعيدين عن هذا الصراع الذى لادخل لهم فيه[1] .

(١٧)
الأمانى الحالمة

وأحياناً يخيل إلى أننا نلجأ إلى خيالنا نكلفه أن يحقق لنا فى إطار الوهم ما نريده . ونستمتع نحن بهذا الوهم ونقنع به عن محاولة تحقيقه .

ولم يتخلص كثيرون منا من هذا الشعور بعد ، ولم يهضموا أن البلد بلدهم وأنهم سادته وأصحاب الرأى والأمر فيه .

ولقد ظللت مرة أحاول أن أفهم عبارة كثيراً ما هتفت بها طفلا صغيراً حينما كنت أرى الطائرات فى السماء .

---

(١) لتصور الحياة الاجتماعية فى مصر على عهد المماليك ، تقرأ القصص الآتية :

* ابنة الملوك : لمحمد فريد أبى حديد .
* الأمير حيدر : لابراهيم جلال .
* على باب زويلة : لمحمد سعيد العريان .
* المملوك الشارد : لجورجى زيدان .

لقد كنت أصيح :

« يا ربنا يا عزيز . . . داهيه تاخد الانجليز » .

ولقد اكتشفت فيما بعد أننا ورثنا هذه العبارة عن أجدادنا على عهد المماليك ، ولم تكن يومها منصبة على الإنجليز ، وإنما حورناها نحن أو حورتها الرواسب الكامنة فينا والتى لم تتغير وإن تغير اسم الظالم ، فقد كان أجدادنا يقولون :

« يا رب يا متجلى . . . أهلك العثمانلى ! » .

وبنفس الروح التى لم تتغير جرى المعنى على لساننا ، وإن تغير اسم « الإنجليز » باسم « العثمانيين » ، طبقاً للتغيرات السياسية التى توالت على مصر بين العهدين ! . . .

(١٨)

الحملة الفرنسية

ثم ماذا حدث لنا بعد عهد المماليك ؟

جاءت الحملة الفرنسية ، وتحطم الستار الحديدى الذى فرضه المغول علينا ، وتدفقت علينا أفكار جديدة ، وتفتحت لنا آفاق لم يكن لنا بها عهد .

وورثت أسرة محمد على كل ظروف المماليك ، وإن حاولت أن تضع عليها من الملابس ما يناسب زى القرن التاسع عشر .

وبدأ اتصالنا بأوربا والعالم كله من جديد .

بدأت اليقظة الحديثة !

(١٩)
فى مرحلة النقه بلا وقاية !...

وبدأت اليقظة بأزمة جديدة . . .

لقد كنا فى رأيى أشبه بمريض قضى زمناً فى غرفة مغلقة ، واشتدت الحرارة داخل الغرفة المغلقة حتى كادت أنفاس المريض تختنق . . .

وفجأة هبت عاصفة حطمت النوافذ والأبواب ، وتدافعت تيارات الهواء الباردة تلسع جسد المريض الذى مازال يتصبب عرقا .

لقد كان فى حاجة إلى نسمة هواء ... فانطلق عليه أعصارٌ عاتٍ ، وأنشبت الحمى أظفارها فى الجسد المنهوك القوى .

هذا هو ماحدث لمجتمعنا تماما وكانت تجربة محفوفة بالمخاطر !

(٢٠)
نقلة مفاجئة

كان المجتمع الأوربى قد سار فى تطوره بنظام ، واجتاز الجسر بين عصر النهضة من أعقاب القرون الوسطى إلى القرن التاسع عشر خطوة

خطوة ، وتلاحقت مراحل التطور واحدة إثر أخرى .

أما نحن فقد كان كل شيء مفاجئا لنا .

كنا نعيش داخل ستار من فولاذ فانهار فجأة .

كنا قد انقطعنا عن العالم واعتزلنا أحواله ، خصوصاً بعد تحول التجارة مع الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح (١) فإذا نحن نصبح مطمع دول أوربا ومعبراً إلى مستعمراتها فى الشرق والجنوب .

وانطلقت علينا تيارات من الأفكار والآراء لم تكن المرحلة التى وصلنا إليها فى تطورنا تؤهلنا لقبولها .

كانت أرواحنا ما زالت تعيش فى آثار القرن الثالث عشر ، وإن سرت فى نواحيها المختلفة مظاهر القرن التاسع عشر ثم القرن العشرين .

وكانت عقولنا تحاول أن تلحق بقافلة البشرية المتقدمة التى تخلفنا عنها خمسة قرون أو يزيد ، وكان الشوط مضنيا والسباق مروعا مخيفاً .

---

(١) كانت مصر إلى القرن الخامس عشر الميلادى هى طريق المواصلات الوحيد بين أوربا والشرق ، فكانت المتاجر الأوربية تصل إلى موانينا فى البحر المتوسط ، ثم تعبر البلاد براً إلى موانى البحر الأحمر ، ثم تستأنف رحلتها البحرية إلى الهند والشرق الأقصى ، ولم يكن ثمة طريق غيرهذ بين آوربا والشرق ، إذ كانت السفن البحرية لم تعرف بعد طريقاً تسلكه فى المحيط الأطلسى إلى جنوب إفريقيا لتنفذ من ثمة إلى المحيط الهندى ، ثم اكتشف البرتغال طريق رأس الرجاء الصالح فى القرن الخامس عشر ، فتحولت إليه تجارة أوربا ، وبدا عهد العزلة فى مصر ...

(٢١)
أين الرأى العام المتحد القوى ؟

وما من شك فى أن هذا الحال هو المسئول عن عدم وجود رأى عام قوى متحد فى بلادنا ، فإن الفرق بين الفرد والفرد كبير ، والفارق بين الجيل والجيل شاسع .

ولقد جاء على وقت كنت أشكو فيه أن الناس لا يعرفون ماذا يريدون ، وأن إجماعهم لا ينعقد على طريق واحد يسيرون فيه ، ثم أدركت بعدها أننى أطلب المستحيل ، وأننى أسقط من حسابى ظروف مجتمعنا . . .

إننا نعيش فى مجتمع لم يتبلور بعد ، وما زال يفور ويتحرك ولم يهدأ حتى الآن أو يتخذ وضعه المستقر ويواصل تطوره التدريجى بعد مع باقى الشعوب التى سبقتنا على الطريق .

(٢٢)
مصر صنعت معجزة !

وأنا أعتقد دون أن أكون فى ذلك متملقاً لعواطف الناس ، أن شعبنا صنع معجزة ، ولقد كان يمكن أن يضيع أى مجتمع تعرض لهذه

الظروف التى تعرض لها مجتمعنا ، وكان يمكن أن تجرفه هذه التيارات التى تدفقت علينا ... ولـكننا صمدنا للزلزال العنيف .

صحيح أننا كدنا نفقد توازننا فى بعض الظروف ، ولـكننا بصفة عامة ، لم نقع على الأرض .

(٢٣)

مجتمع غير متجانس

وأنا أنظر أحياناً إلى أسرة مصرية عادية من آلاف الأسر التى تعيش فى العاصمة .

الأب مثلا فلاح معمم من صميم الريف .

والأم سيدة منحدرة من أصل تركى .

وأبناء الأسرة فى مدارس النظام الإنجليزى .

وفتياتها فى مدارس على النظام الفرنسى .

كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ومظاهر القرن العشرين ...

أنظر إلى هذا وأحس فى أعماق بفهم للحيرة التى نقاسيها وللتخبط الذى يفترسنا ، ثم أقول لنفسى :

— سوف يتبلور هـذا المجتمع ، وسوف يتماسك ، وسوف يكون وحدة قوية متجانسة ، إنما ينبغى أن نشد أعصابنا ونتحمل فـترة الانتقال .

(٢٤)
هذه هى أسباب أزمتنا !

تلك إذن هى الأصول التى انحدرت منها أحوالنا اليوم ، وهذه هى الينابيع التى تجرى منها أزمتنا ، فإذا أضيف إلى هذه الجذور الاجتماعية ، ظروف من أجلها طردنا فاروق ، ومن أجلها نريد تحرير بلادنا من أى جندى غريب — إذا أضيف هذا كله بدا لنا الأفق الواسع الذى نعمل فيه ، والذى تهب عليه الرياح من كل ناحية ، وتزمجر فى جنباته العواصف الهوج ، وتتوهج فيه البروق وتهدر الرعود ، والذى قلت إنه من الظلم أن يفرض علينا فيه حكم الدم ، مع مراعاة كل هذه الظروف والملابسات .

(٢٥)
رواد فى طريق القافلة !

وإذن ما هو الطريق ؟

وما هو دورنا على هذا الطريق ؟

أما الطريق فهو الحرية السياسية والاقتصادية .

وأما دورنا فيه فدور الحراس فقط ، لا نزيد ولا ننقص . . . الحراس لمدة معينة بالذات ، موقوتة بأجل .

وما أشبه شعبنا الآن بقافلة كان يجب أن تلزم طريقا معينا ، وطال عليها الطريق ، وقابلتها المصاعب ، وانبرى لها اللصوص وقطاع الطرق ، وضللها السراب ، فتبعثرت القافلة ، كل جماعة منها شردت فى ناحية ، وكل فرد مضى فى اتجاه . . .

وما أشبه مهمتنا فى هـــذا الوضع بدور الذى يمضى فيجمع الشاردين والتائهين ليضعهم على الطريق الصحيح ، ثم يتركهم يواصلون السير .

هذا هو دورنا ولا أتصور لنا دوراً سواه .

ولو خطر لى أننا نستطيع أن نحل كل مشاكل وطننا لـكنت واهما ، وأنا لا أحب أن أتعلق بالأوهام .

إننا لانملك القدرة على ذلك ، ولا نملك الخبرة لنقوم به .

إنما كل عملنا أن نحدد معالم الطريق كما قلت ، وأن نجرى وراء الشاردين ، فنردهم إلى حيث ينبغى أن يبدءوا السير ، وأن نلحق بالسائرين وراء السراب فنقنعهم بعبث الوهم الذى يجرون وراءه .

(٢٦)

خسرنا عطف الجماهير !

ولقد كنت مدركا منذ البداية أنها لن تكون مهمة سهلة ، وكنت أعلم مقدما أنها ستكلفنا الكثير من شعبيتنا .

لقد كان يجب أن نتكلم بصراحة ، وأن نخاطب عقول الناس ، وكان الذين سبقونا قد تعودوا أن يعطوا الوهم ، وأن يقولوا للناس ما يريد الناس أن يسمعوه !...

(٢٧)

العقل والغريزة ...

وما أسهل الحديث إلى غرائز الناس ، وما أصعب الحديث إلى عقولهم ! ...

وغرائزنا جميعاً واحدة ، أما عقولنا فموضع الخلاف والتفاوت ، وكان ساسة مصر فى الماضى من الذكاء بحيث أدركوا هذه الحقيقة ، فاتجهوا إلى الغريزة يخاطبونها ، أما العقل فتركوه هائما على وجهه فى الصحراء .

وكنا نستطيع أن نفعل نفس الشىء .

كنا نستطيع أن نملأ أعصاب الناس بالكلمات الكبيرة التى لاتخرج عن حد الوهم والخيال ، أو تدفعهم وراء أعمال غير منظمة لم تعد لها العدة أو تتخذ لها أهبة ، أو كنا نستطيع أن نترك أصواتهم تبح من كثرة هتافهم :

« ياربنا ياعزيز . . . داهية تاخد الانجليز » !

تماما كما كان أجدادنا تبح أصواتهم أيام المماليك من كثرة هتافهم :

« يارب يامتجلى . . . أهلك العثمانلى » ! ...

وبعدها لاشىء !

لكن أكانت تلك مهمتنا التى شاءها لنا القدر ؟

وما الذى كنا نستطيع أن نحققه فعلا إذا سرنا فى هذا السبيل ؟

ولقد قلت فى الجزء الأول من هذا الحديث إن نجاح الثورة يتوقف على إدراكها لحقيقة الظروف التى تواجهها ، وقدرتها على الحركة السريعة .

وأضيف الآن إلى ذلك أنها يجب أن تتحرر من آثار الألفاظ البراقة ، وأن تقدم على ماتتصور أنه واجبها مهما كان الثمن من شعبيتها ومن الهتاف بحياتها والتصفيق لها !

وإلا فإننا قد تخلينا عن أمانة الثورة وعن واجباتها .

(٢٨)

الغاضبون منا !

وكثيراً ما يجيئنى من يقول لى :

— لقد أغضبتم كل الناس !

وعلى مثل هذه الملاحظة أرد دائماً :

ليس غضب الناس هو العمل المؤثر فى الموقف ، وإنما السؤال : هل كان الذين أغضبوهم يعملون لصالح الوطن أو لغيره ؟

أنا أدرك أننا أغضبنا كبار الملاك . . .

لكن ، هل كان يمكن ألا نغضبهم ونترك تربة وطننا ، وفينا من يملك منها عشرات الألوف من الأفدنة وفينا من لا يملك قطعة يدفن فيها بعد أن يموت ! ...

وأنا أدرك أننا أغضبنا الساسة القدماء . . .

ولكن ، هل كان يمكن ألا نغضبهم ونترك تربة وطننا فريسة لشهواتهم وفسادهم وصراعهم على مغانم الحكم ؟...

وأنا أدرك أننا أغضبنا عدداً كبيراً من الموظفين . . .

ولكن ، هل كان يمكن أن نعطى أكثر من نصف ميزانية الدولة

مرتبات للموظفين ولانستطيع — كما صنعنا بالفعل — أن نخصص أربعين مليونا من الجنيهات للمشروعات الإنتاجية ؟

ماذا علينا لو كنا فتحنا — كما فعل غيرنا — خزائن الدولة ووزعنا مافيها على الموظفين وليكن بعد ذلك الطوفان . . . وليكن — أيضا — أن يجيء العام القادم فلا تستطيع الحكومة أن تدفع مرتبات موظفيها أصلا وأساساً ؟

وما كان أسهل أن نرضى هؤلاء جميعاً وغيرهم . . . ولكن ، ماهو الثمن الذى كان وطننا سيدفعه من آماله ومستقبله فى مقابل هذا الرضا ؟...

(٢٩)

واجبنا فى الحاضر والمستقبل

ذلك دورنا الذى حدده لنا تاريخ وطننا ، ولا مفر أمامنا من أن نقوم به . مهما كان الثمن الذى قد ندفعه .

ولم نخطىء أبدا فى فهم هذا الدور ، ولا فى إدراك طبيعة الواجبات التى يلقيها علينا .

تلك خطوات لإصلاح آثار الماضى ورواسبه . مضينا فيها وتحملنا من أجلها كل شىء .

فلما جاء الكلام عن المستقبل قلنا إننا لا نملك هذا وحدنا .

* من أجل ضمان الحياة السياسية فى المستقبل ، ذهبنا إلى عدد من قادة الرأى من مختلف الطبقات والعقائد وقلنا لهم :

ضعوا للبلد دستوراً يصون مقدساته .

وكانت لجنة وضع الدستور .

* ومن أجل ضمان الحياة الاقتصادية فى المستقبل ، ذهبنا إلى أكبر الأساتذة فى مختلف نواحى الخبرة وقلنا لهم :

— نظموا للبلد رخاءه واضمنوا لقمة العيش لكل فرد فيه .

وكان مجلس الإنتاج .

تلك حدودنا لم نتعدها :

إزالة الصخور والعقبات من الطريق — مهما كان الثمن — واجبنا .

والعمل للمستقبل من كل نواحيه مفتوح لكل ذوى الرأى والخبرة ، فرض لازم عليهم ، وليس لنا أن نستأثر به دونهم ، بل إن مهمتنا تقضى أن نسعى لجمعهم من أجل مستقبل مصر . . . مصر القوية المتحررة !

الجزء الثالث

(١)

مكاننا من العالم

مرة ثالثة أعود إلى فلسفة الثورة .

أعود إليها بعد غيبة طويلة امتدت إلى أكثر من ثلاثة شهور حافلة بالأحداث السريعة والتطورات المتلاحقة .

ثلاثة شهور حاولت خلالها أكثر من مرة أن أجد الساعات التى أسجل فيها هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ، فعصفت رياح الأحداث السريعة والتطورات المتلاحقة بهذه المحاولات وبعثرتها فى الفضاء .

ولكن الرياح التى عصفت بمحاولات التسجيل لم تعصف بالخواطر نفسها ، وصحيح أن هذه الخواطر لم تجر على ورق ، ولكنها ظلت تدور فى تفكيرى وتتفاعل مع غيرها وتبحث عن تفاصيل أخرى ، سواء فى ذاكرتى أو فى الأيام ، تضيفها إليها لتكمل بها صورة صحيحة واضحة .

ولكن ما هى الصورة الصحيحة الواضحة التى أريد أن أرسمها هذه المرة ، وما هى علاقتها بالمحاولات التى قمت بها قبل ذلك فى الجزء

الأول ثم فى الجزء الثانى من هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ؟ ...

لقد تحدثت فى الجزء الأول عن بداية الثورة فى نفوسنا كأفراد وفى نفوسنا كنماذج عادية من شباب جيلنا ، وعن الثورة فى تاريخ أمتنا، وعن يوم ٢٣ يوليو فى هذه الثورة .

وفى الجزء الثانى تحدثت عن محاولات على طريق الثورة ، وكيف حدد لنا تاريخ شعبنا هذه الطريق ، سواء فى نظرتنا المليئة بالعبر إلى الماضى ، أو فى تطلعنا المفعم بالأمل إلى المستقبل .

وإذن فقد كان حديثى فى الجزأين السابقين عن الزمان ، ومن هنا أشعر بأن المكان يطالب بحقه ، وإذن فليكن الحديث فى هذه المرة عنه .

(٢)
أثر الزمان والمكان

وليس هدفى أن أدخل فى بحث فلسفى معقد عن الزمان والمكان ، وإنما الذى لا شك فيه هو أن العالم كله — وليس وطننا فحسب — هو نتيجة لتفاعل الزمان والمكان .

وإذا كنت أقول إننا فى تصورنا لأحوال وطننا لا نستطيع أن ننسى عنصر الزمان ، فإننا أيضاً وبنسبة متساوية لا نستطيع أن ننسى عنصر المكان .

وبعبارة أبسط :

نحن الآن لا نستطيع أن نعود إلى القرن العاشر ، نرتدى ملابسه التى تبدو لعيوننا غريبة مضحكة ، ونتوه فى أفكاره التى تظهر أمامنا اليوم أطباقا من الظلام خلت من كل شعاع .

وكذلك نحن الآن لا نستطيع أن نتصرف على أننا قطعة من ألاسكا المتعلقة بأقصى أصقاع الشمال ، أو على أننا جزيرة « ويك » النائية المهجورة فى تيه الباسفيك .

الزمان إذن يفرض علينا تطوره .

والمكان أيضاً يفرض علينا حقيقته .

ولقد حاولت مرتين أن أمضى مع الزمان ، فلأحاول هذه المرة أن أتجول فى عالم المكان :

(٣)

لقد مضى عهد العزلة !

وثمة شيء يجب أن نتفق عليه أولا وقبل أن نمضى فى هذا الحديث ، ذلك هو تعريف حدود المكان بالنسبة لنا .

إن قال لى أحد إن المكان بالنسبة لنا هو هذه العاصمة التى نعيش فيها فإنى أختلف معه . . .

وإن قال لى أحد إن المكان بالنسبة لنا هو حدود بلادنا السياسية فإنى أيضاً أختلف معه . . .

ولوكان الأمر كله محصوراً فى حدود عاصمتنا أو فى حدود بلادنا السياسية لهان الأمر ، ولأقفلنا على أنفسنا كل الأبواب وعشنا فى برج عاجى نحاول أن نبتعد به بقدر ما نستطيع عن العالم ومشاكله وحروبه وأزماته تلك التى تقتحم علينا أبواب بلادنا وتؤثر فينا دون أن يكون لنا فيها دخل أو نصيب .

لقد مضى عهد العزلة .

وذهبت الأيام التى كانت فيها خطوط الأسلاك الشائكة التى تخطط حدود الدول تفصل وتعزل .

ولم يعد مفر أمام كل بلد من أن يدير البصر بجوله خارج حدود بلاده ؛ ليعلم من أين تجيئه التيارات التى تؤثر فيه ، وكيف يمكن أن يعيش مع غيره ، وكيف ؟ . . . ، وكيف ؟ . . .

ولم يعد مفر أمام كل دولة من أن تجيل البصر حولها تبحث عن وضعها وظروفها فى المكان ، وترى ماذا تستطيع أن تفعل فيه ، وما هو مجالها الحيوى وميدان نشاطها ودورها الإيجابى فى هذا العالم المضطرب ؟

(٤)

دورنا الإيجابى فى العالم

وأنا أجلس أحيانا فى غرفة مكتبى وأسرح بخواطرى فى نفس هذا الموضوع أسائل نفسى :

— ما هو دورنا الإيجابى فى هذا العالم المضطرب ؟ ... وأين هو المكان الذى يجب أن نقوم فيه بهذا الدور ؟ ...

وأستعرض ظروفنا ، فأخرج بمجموعة من الدوائر لا مفر لنا من أن يدور عليها نشاطنا ، وأن نحاول فيها بكل طاقتنا .

إن القدر لا يهزل ، وليست هناك أحداث من صنع الصدفة ، ولا وجود يصنعه الهباء .

ولن نستطيع أن ننظر إلى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان .

(ا) أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها .. حقيقة وفعلا وليس مجرد كلام ؟...

(ب) أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة إفريقية ، شاء لنا القدر أن نكون فيها ، وشاء أيضا أن يكون فيها اليوم صراع مروع حول

مستقبلها ، وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا ، سواء أردنا أو لم نرد ؟...

(ح) أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالماً إسلامياً تجمعنا وإياه روابط لا تقربها العقيدة الدينية فحسب ، وإنما تشدها حقائق التاريخ كذلك ؟ ...

وكما قلت مرة : إن القدر لا يهزل .

فليس عبثا أن بلدنا فى جنوب غرب آسيا يلاصق الدول العربية وتشتبك حياته بحياتها .

وليس عبثا أن بلدنا فى شمال شرق إفريقيا ، ويطل من علٍ على القارة السوداء التى يدور فيها اليوم أعنف صراع بين مستعمريها البيض وأهلها السود من أجل مواردها التى لا تحد .

وليس عبثاً أن الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامى الذى أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الإسلام القديمة — تراجع إلى مصر وأوى إليها فحمته مصر وأنقذته عندما ردت غزو المغول على أعقابه فى «عين جالوت»[1] .

---

(١) دمر المغول فى طريقهم إلينا كل مقومات الحضارة فى البلاد التى وطئتها أقدامهم ، ثم دمرتهم مصر ، فصار عليها وحدها أن تحمى تراث الحضارة ، وأن تنشر آثارها ، فقد ذهب كل التراث ، فى كل البلاد ، ولم يبق إلا مصر ...

وقد عرفت مصر واجبها فى هذا الشأن . فأعادت الخلافة العباسية . وآوتها =

كل هذه حقائق أصيلة ذات جذور عميقة فى حياتنا ، لا نستطيع مهما حاولنا ، أن ننساها أو نفر منها .

(٥)

هذا المسرح فى حاجة إلى بطل !

ولست أدرى لماذا أذكر دائماً عندما أصل إلى هـــذه المرحلة من أفـكارى وأنا جالس وحدى فى غرفتى شارداً مع الأفـكار ، قصة مشهورة للشاعر الإيطالى الـكبير « لويدجى بيراندلو » أسماها : ست شخصيات تبحث عن ممثلين ! . . .

إن ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوار بطولة مجيدة قاموا بها فى ظروف حاسمة على مسرحه .

وإن ظروف التاريخ أيضاً مليئة بأدوار البطولة المجيدة التى لم تجد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه ، ولست أدرى لماذا يخيل إلى دائماً أن فى هذه المنطقة التى نعيش فيها دوراً هائماً على وجهه يبحث عن البطل الذى يقوم به ، ثم لست أدرى لـــماذا يخيل إلى أن هذا الدور الذى

= وحفظت لها رسومها وحقها فى التوجيه والنصح والإرشاد ؛ ولاءمت بين حالة مصر السياسية فى ذلك الزمان وبين واجبها هذا الجديد ؛ فلم تلبث أن صارت حاضرة الإسلام ؛ عليها عبء التوجيه العام فى كل بلاد المسلمين ؛ ومن علومها وفنون حضارتها يقتبس المسلمون فى شتى بقاع الأرض ؛ وباسمها يتغنى كل عربى وكل مسلم فى الشرق والغرب .

(وانظر التعليق ص ٧٣ — ٧٥)

أرهقه التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان حولنا ، قد استقر به المطاف متعباً منهوك القوى على حدود بلادنا يشير إلينا أن نتحرك ، وأن ننهض بالدور ونرتدى ملابسه ، فإن أحداً غيرنا لا يستطيع القيام به .

وأبادر هنا فأقول إن الدور ليس دور زعامة .

إنما هو دور تفاعل وتجارب مع كل هذه العوامل يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة فى كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها ، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور إيجابى فى بناء مستقبل البشر .

(٦)

الدائرة العربية

وما من شك فى أن الدائرة العربية هى أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطاً بنا .

فلقد امتزجت معنا بالتاريخ وعانينا معها نفس المحن ، وعشنا نفس الأزمات ، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك[١] .

---

(١) (١) حين زحف الصليبيون على بلادنا ، كانت فلسطين ولبنان ، وسوريا ، ومصر ، وشمال أفريقيا ، هدفاً مشتركاً من أهداف الاستعمار الصليبى .
(ب) وحين زحف المغول على بلاد المسلمين والعرب ، كانت مصر هدف المغول الأخير ، بعد أن دمرت بغداد ووطئت بلاد الشام جميعاً ...

وامتزجت هذه الدائرة معنا أيضاً بالدين ، فنقلت مراكز الاشعاع الدينى ، فى حدود عواصمها ، من مكة ، إلى الكوفة . . . ثم إلى القاهرة[1] .

أصبحت طالباً فى الكلية الحربية ، أدرس تاريخ حملات فلسطين بصفة خاصة ، وأدرس بصفة عامة تاريخ المنطقة وظروفها التى جعلت فى القرن الأخير فريسة سهلة تتخطفها أنياب مجموعة من الوحوش الجائعة !

ثم جمعها الجوار فى إطار ربطته كل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية .

وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسى ، أن طلائع الوعى العربى بدأت تتسلل إلى تفكيرى وأنا طالب فى المدرسة الثانوية أخرج مع زملائى فى إضراب عام فى الثانى من شهر ديسمبر من كل سنة احتجاجاً على « وعد بلفور »

= (حـ) وحين أغار العثمانيون على بلادنا وسلبونا استقلالنا فى القرن السادس عشر ، فعلوا مثل ذلك بالشام ، والعراق ، والجزيرة العربية ، وشمال أفريقيا ، إلى حدود مراكش ...

(د) وحين بدأ الاستعمار الأوربى — بمصطلحاته الجديدة — يبسط سلطانه على بلادنا ، لم يستثن بلداً واحداً من بلاد العرب .

لقد كنا جميعاً هدفا مشتركا فى كل مراحل التاريخ .

(١) نشأ الإسلام بمكة ، ثم هاجر النبى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة فصارت هى عاصمة الإسلام فى عصر النبى والخلفاء الثلاثة من بعده ، ثم صارت الكوفة هى عاصمة الإسلام فى خلافة على ، ثم صارت دمشق ، ثم صارت بغداد ، ثم انتقلت الخلافة والخليفة إلى القاهرة فى القرن السابع الهجرى ، بعد أن دمر المغول بغداد !

الذى منحته بريطانيا لليهود ومنحتهم به وطناً قومياً فى فلسطين اغتصبته ظلماً من أصحابه الشرعيين[١] .

(٧)

فلسطين . . . بلدنا !

وحين كنت أسائل نفسى فى ذلك الوقت : لماذا أخرج فى حماسة ؟

ولماذا أغضب لهذه الأرض التى لم أرها ؟

لم أكن أجد فى نفسى سوى أصداء العاطفة .

ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيرى حول هذا الموضوع لما بدأ الفهم يتضح وتتكشف الأعمدة التى تتركز عليها حقائقه لما بدأت أدرس وأنا طالب فى كلية أركان الحرب حملة فلسطين ومشاكل البحر المتوسط بالتفصيل .

ولما بدأت أزمة فلسطين ، كنت مقتنعاً فى أعماق بأن القتال

(١) كان أول عدوان بريطانيا على حق العرب فى فلسطين ، أن وزيرها « بلفور » وعد اليهود فى ٢ ديسمبر سنة ١٩١٧ ، بأن يتيح لهم وطناً قومياً فى فلسطين ، ثمناً لما أدوا لبريطانيا من خدمات فى الحرب العالمية الأولى ، ولكنه ثمن يؤديه من غير ما يملك ...

ومنذ ذلك التاريخ ، اعتبر يوم ٢ ديسمبر من كل عام ، يوما مشئوماً من أيام العرب ، يعلنون فيه سخطهم على غدر بريطانيا . وحرصهم على الاحتفاظ بفلسطين عربية لأهلها .

فى فلسطين ليس قتالا فى أرض غريبة ، وهو ليس انسياقا وراء عاطفة ، وإنما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس !

(٨)

دفاع عن فلسطين !

وأذكر يوماً ، عقب صدور قرار تقسيم فلسطين فى شهر سبتمبر سنة ١٩٤٧ ، عقد فيه الضباط الأحرار اجتماعاً[١] ، واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة فى فلسطين ، وذهبت فى اليوم التالى أطرق باب بيت الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين — وكان ما يزال يعيش فى الزيتون — وأقول له :

— إنكم فى حاجة إلى ضباط يقودون المعارك ويدربون المتطوعين ، وفى الجيش المصرى عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع ، وهم تحت أمرك فى أى وقت تشاء !

وقال لى الحاج أمين الحسينى إنه سعيد بهذه الروح ، ولكنه يرى أن يستأذن الحكومة المصرية قبل أن يقول شيئاً .

---

(١) لما اشتدت مقاومة العرب فى فلسطين للاستعمار الصهيونى ، أرادت بريطانيا أن تعالج الأمر على وجه ما ، لتكسر حدة المقاومة العربية ، فاستصدرت قراراً من الأمم المتحدة فى سنة ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، فأبى العرب أن تمزق وحدة بلادهم . وازدادوا هياجاً وثورة . وثارت لثورتهم البلاد العربية جميعا . وخلال هذه الثورة . كان الضباط الأحرار فى مصر يدبرون أمرهم ليقوموا بواجبهم فى الكفاح من أجل عروبة فلسطين ...

ثم قال لى الحاج أمين :

— سوف أعطيك ردى بعد استئذان الحكومة .

وعدت إليه بعد أيام ، وكان رده ، الرد الذى حصل عليه من الحكومة هو الرفض[١] !

ولم نسكت . . .

وبعدها كانت مدفعية أحمد عبد العزيز[٢] تدك المستعمرات اليهودية جنوبى القدس . وكان قائد المدفعية هو « كمال الدين حسين » عضو اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار التى تحولت اليوم إلى مجلس قيادة الثورة[٣] .

وأذكر سراً آخر كان ذات يوم أغلى أسرار الضباط الأحرار .

كان «حسن إبراهيم»[٤] قد سافر إلى دمشق واتصل ببعض ضباط «فوزى القاوقجى»[٥] ، وكان القاوقجى يقود قوات التحرير العربية ، ويستعد لمعركة حاسمة فاصلة فى المنطقة الشمالية من فلسطين .

---

(١) كان رئيس حكومة مصر فى ذلك التاريخ . هو محمود فهمى النقراشى .

(٢) أنظر الهامش ص ٣١ .

(٣) وهو وزير التربية والتعليم فى حكومة الثورة . وانظر ص ٣١ .

(٤) هو عضو مجلس قيادة الثورة . ووزير الدولة فى حكومة الثورة .

(٥) هو مجاهد عربى . أصله من لبنان . وكان له بلاء مشهود فى معارك فلسطين وهى لم تزل تحت الانتداب البريطانى . ثم كان قائداً لقوات التحرير العربية فى حرب فلسطين .

ووضع « حسن إبراهيم » ، و « عبد اللطيف بغدادى »[1]، خطة جريئة للقيام بعمل حاسم فى المعركة التى تستعد لها قوات التحرير .

وكانت الخطوط البارزة فى تلك الخطة هى أن قوات التحرير العربية لا تملك طيراناً يساعدها فى المعركة ويرجح النصر إلى كفتها ، ولو أنها حصلت على معونة من الجو بضرب مركز فوق ميدان العملية ؛ — لكان ذلك عاملا فاصلا ، ولكن من أين لقوات التحرير العربية بالطيران لتحقيق هذا الحلم ؟ . . .

ولم يتردد « حسن إبراهيم » و«عبد اللطيف بغدادى» ، وإنما قررا أن يقوم سلاح الطيران المصرى بهذه المهمة .

ولكن كيف ؟

ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين ، وكان جو الرقابة على القوات المسلحة — بما فيها سلاح الطيران — حذراً متيقظاً ! . . .

ومع ذلك لم يجد اليأس ثغرة ينفذ منها إلى تفاصيل الخطة .

بدأت فى مطار سلاح الطيران حركة عجيبة . . . وبرز فيها نشاط واسع لإصلاح طائرات وإعدادها ، وجهود واضحة فى التدريب سرت كالحمى فى نفوس عدد من الطيارين .

---

(١) هو عضو مجلس قيادة الثورة . ووزير الحربية . ثم وزارة الشئون البلدية والقروية فى حكومة الثورة . وكان رئيساً لمحكمة الثورة . وهو — كزميله « حسن إبراهيم » — ضابط طيران .

ولم يكن هناك إلا قلائل يعرفون السر . . .

يعرفون أن الطائرات وقوادها قد أعدوا ليوم تجيء فيه من سوريا إشارة سرية ، ينطلقون بعدها إلى الجو ليشتركوا بكل قوتهم فى معركة حاسمة على الأرض المقدسة ، ثم يتجهون بعد ذلك إلى مطار قرب دمشق ، ينزلون فيه ويترقبون الأحوال فى مصر ، ويتعرفون صدى هذه الحركة التى أقدموا عليها ، ثم يقررون كيف يتصرفون بعدها !

وكان أرجح الاحتمالات أن يحاكم كل طيار اشترك فى هذه العملية . وأذكر أن كثيرين كانوا قد رتبوا أمورهم على أن الظروف ربما تحول بينهم وبين العودة إلى الوطن قبل سنوات قد تطول وتمتد . . .

وكان شعورنا فى اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار — والمؤكد أن نفس الشعور كان يراود خواطر كل الطيارين المشتركين فى السر الكبير — أن هذه المخاطر الجريئة تـ ـا فى المغامرة ، ولا كانت رد فعل للعاطفة فى نفوسنا ، إنما كانت وعياً ظاهراً لإيماننا بأن رفح ليست آخر حدود بلادنا ، وأن نطاق سلامتنا يقضى علينا أن ندافع عن حدود إخواننا الذين شاءت لنا أحكام القدر أن نعيش معهم فى منطقة واحدة .

ولم تتم الخطة يومها . . . لأننا لم نتلق الإشارة السرية من سوريا .

وقضت الظروف بعدها أن تدخل الجيوش العربية كلها الحرب فى فلسطين .

(٩)

درس من فلسطين . . .

ولست أريد أن أدخل فى تفاصيل حرب فلسطين — الآن — فذلك بحث تتشعب فيه الأحاديث ، وإنما يعنينى من حرب فلسطين درس عجيب .

لقد دخلتها شعوب العرب جميعاً بدرجة واحدة من الحماسة ، وإذن فهذه الشعوب جميعاً تتشارك فى شعورها وفى تقديرها لحدود سـلامتها .

ثم خرجت منها هذه الشعوب بنفس المرارة والخيبة ؛ وإذن فهى جميعاً ، كل منها فى بلاده ، قد تعرضت لنفس العوامل وحكمتها نفس القوى التى ساقتها إلى الهزيمة ونكست رأسها بالذل والعار .

(١٠)

بلاد العرب منطقة واحدة !

ولقد خلوت إلى نفسي مرات كثيرة في خنادق « عراق المنشية »[1] وفي جحورها .

وكنت يومها أركان حرب الكتيبة السادسة التي كانت تقف في ذلك القطاع وتدافع عنه أحياناً وتهاجم في أكثر الأحيان .

وكنت أخرج إلى الأطلال المحطمة من حولي بفعل نيران العدو ، ثم أسبح بعيدا مع الخيال .

وأحياناً كانت الرحلة مع الخيال تمضي بي بعيداً إلى آفاق النجوم ، فأطل من هذا الارتفاع الشاهق على المناطق كلها .

وكانت الصورة تبدو في ذلك الوقت واضحة أمام بصيرتي .

هذا هو المكان الذي نقبع محاصرين فيه . هذه مواقع كتيبتنا ، وهذه مواقع الكتائب الأخرى المشتركة معنا على الخط .

---

(١) منطقة الفالوجة ، وكان لحاميتها بلاء عظيم في الدفاع عنها ، فقد صمدت لحصار العدو أشهراً بلا زاد ولا عتاد ، حتى ضاق المحاصرون ذرعاً ولم ينفد صبر المحصورين أو تضعف نفوسهم . وقد عرفت مصر لأبطال الفالوجة بلاءهم في هذه المعركة فاستقبلتهم استقبالا عظيما ، وكان اسمهم على كل لسان في مصر وفي كل بلد عربي ... وكان بينهم « جمال عبد الناصر » ...

وهذه قوات العدو تحيط بنا .

وهـذه قوات أخرى لنا . . . هى أيضاً محاصرة لا تستطيع الحركة الواسعة وإن بقى لها مجال للمناورة المحدودة .

إن الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التى نتلقى منها الأوامر تحيطها بحصار ، وتلحق بها عجزاً أكثر من الذى تصنعه بنا ، نحن القابعين فى منطقة « الفالوجة » .

ثم هذه قوات إخواننا فى السلاح ، وفى الوطن الكبير ، وفى المصلحة المشتركة ، وفى الدافع الذى جعلنا نهرول إلى أرض فلسطين ! . . .

هذه هى جيوش إخواننا . . . جيشاً جيشاً . . كلها هى أيضاً محاصرة . . . بفعل الظروف التى كانت تحيط بها والتى كانت تحيط بحكوماتها .. لقد كانت جميعاً تبدو كقطع شطرنج ،لا قوة لها ولا إرادة، إلا بقدر ما تحركها أيدى اللاعبين .

وكانت شعوبنا جميعاً تبدو فى مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرة محبوكة ، أخفت عنها عمداً حقيقة ما يجرى ، وضللتها حتى عن وجودها نفسه .

(١١)

أطفال فلسطين ... أطفالنا !

وأحياناً كنت أهبط من ارتفاع النجوم إلى سطح الأرض ، فأحس أننى أدافع عن بيتى وعن أولادى ، ولا تعنينى الحدود الموهومة والعواصم والدول والشعوب والتاريخ ! . . .

وكان ذلك عند ما ألتقى فى تجوالى فوق الأطلال المحطمة ببعض أطفال اللاجئين الذين سقطوا فى براثن الحصار ، بعد أن خربت بيوتهم وضاع كل ما يملكون ، وأذكر بينهم طفلة صغيرة كانت فى مثل عمر ابنتى ، وكنت أراها وقد خرجت إلى الخطر والرصاص الطائش مندفعة أمام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة عيش أو خرقة قماش .

وكنت دائماً أقول لنفسى :

— قد يحدث هذا لابنتى !

وكنت مؤمناً بأن الذى يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث — وما زال احتمال حدوثه قائماً — لأى بلد فى هذه المنطقة ، ما دام مستسلماً للعوامل والعناصر والقوى التى تحكمه الآن .

(١٢)

بعد المعركة

ولما انتهى الحصار وانتهت المعارك فى فلسطين وعدت إلى الوطن ، كانت المنطقة كلها فى تصورى قد أصبحت كلاً واحداً .

وأيدت الحوادث التى جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد فى نفسى . كنت أتابع تطورات الموقف فيها فأجده أصداء يتجاوب بعضها مع بعض .

كان الحادث يقع فى القاهرة ، فيقع مثيل له فى دمشق غداً ، وفى بيروت ، وفى عمان ، وفى بغداد ، وغيرها[١] .

وكان ذلك كله طبيعياً مع الصورة التى رسمتها التجارب فى نفسى . منطقة واحدة ، ونفس الظروف ، ونفس العوامل . . . بل ونفس القوى المتألبة عليها جميعاً !

وكان واضحاً أن الاستعمار هو أبرز هذه القوى .

حتى إسرائيل نفسها ، لم تكن إلا أثراً من آثار الاستعمار .

فلولا أن فلسطين وقعت تحت الانتداب البريطانى ما استطاعت الصهيونية أن تجد العون على تحقيق فكرة الوطن القومى فى فلسطين ، ولظلت هذه الفكرة خيالا مجنوناً ليس له أى أمل فى واقع .

(١٣)
مذكرات وايزمان

وأنا أكتب هذه الخواطر وأمامى مذكرات « حاييم وايزمان » رئيس جمهورية إسرائيل ومنشئها الحقيق[٢] ، وهى المذكرات التى نشرها فى

---

(١) كان مصرع محمود فهمى النقراشى فى القاهرة . ومصرع رياض الصلح فى لبنان . ومصرع الملك عبد الله فى عمان . وثورة حسنى الزعيم فى دمشق . ثم الثورة المصرية الكبرى فى سنة ١٩٥٢ . وكلها أصداء تتصل بأسباب من نكبة فلسطين » .

(٢) انظر : « هذه هى الصهيونية » ، من مجموعة : « اخترنا لك » .

كتابه المشهور « التجربة والخطأ » ، وثمة عبارات معينة ، ذات طابع خاص تستوقفنى فيه .

* يستوقفنى قول « وايزمان » :

(١) « لقد كان يجب أن تساعدنا دولة كبرى ، وكانت فى العالم دولتان تستطيع كل منهما مساعدتنا : ألمانيا وبريطانيا . . .

« أما ألمانيا فقد آثرت أن تبتعد عن كل تدخل . . .

« وأما بريطانيا فقد أحاطتنا بالرعاية والعطف » .

ويستوقفنى بعد ذلك قول « وايزمان » :

(ب) « ولقد حدث فى المؤتمر الصهيونى السادس الذى عقدناه فى سويسرا ، أن وقف « هرتزل »[1] يعلن يهود الدنيا أن بريطانيا العظمى ، وبريطانيا العظمى وحدها دون كل دول الأرض ، قد اعترفت باليهود كأمة ذات كيان مستقل ، منفصلة عن غيرها ، وأننا نحن اليهود خليقون بأن يكون لنا وطن ، وبأن تكون لنا دولة ، وقرأ « هرتزل » خطاباً من « اللورد لانسون » نائباً عن الحكومة البريطانية يتضمن هذا المعنى . وكان هذا الخطاب يقدم لنا أرض أوغندا ؛ لتكون وطناً قومياً .

وقرر أعضاء المؤتمر قبول هذا العرض .

---

(١) « هرتزل » ، أو « هرزل » : صاحب فكرة الصهيونية الأول . انظر كتاب « هذه هى الصهيونية » .

« ولكننا بعد ذلك كتمنا أنفاسه فى المهد ودفناه دون ضجة .

« وعادت بريطانيا تريد أن تسترضينا .

« وعرضت علينا « منطقة سيناء » . . .

« وعلى أثر هذا العرض ألفنا لجنة من عدد كبير من علماء اليهود سافروا إلى مصر لدراسة منطقة سيناء ، وقابلوا فى القاهرة اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر الذى أظهر كل العطف على أمانينا فى الوطن القومى ! . . .

« ولكن اللجنة لم تجد فى منطقة سيناء ما يفى بالغرض الذى كنا من أجله *نريد الوطن القومى* ! . . .

« ولقد قابلت بعدها « لورد بلفور » وزير خارجية بريطانيا الذى بادر بسؤالى على الفور :

— لماذا لم تقبلوا إقامة الوطن القومى فى أوغندا ؟ . . .

« قلت لبلفور :

— إن الصهيونية حركة سياسية قومية . . . هذا صحيح ، ولكن الجانب الروحى منها لا يمكن إغفاله ، وأنا واثق تمام الوثوق أننا إذا أغفلنا الجانب الروحى فإننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسى القومى .

— ماذا تقول لو أن أحداً قال لك خذ « باريس » بدلا من « لندن » هل تقبل ؟ » .

* * *

* ويستوقفنى أيضاً قول وايزمان :

(ج) « وعدت إلى لندن فى خريف سنة ١٩٢١ ، وكان الغرض من رجوعى أننى دعيت إلى لندن لأشرف على كتابة مشروع وثيقة الانتداب البريطانى فى فلسطين .

« وكان يجب أن تعرض هذه المسودة على عصبة الأمم لتصدر بها قراراً بعد أن وافق مؤتمر سان ريمو على فكرة الانتداب نفسها .

« وكان « لورد كيرزون » قد ولى وزارة الخارجية محل « بلفور » ، وكان هو المسئول عن وضع مشروع الوثيقة .

« وكان معنا فى لندن القانونى الشهير « ابن كوهين » ، وهو من أقدر واضعى الصيغ القانونية فى العالم ، وكان « اريك فوريس آدام » سكرتير « كيرزون » يتعاون معنا .

« ووقع بيننا وبين « كيرزون » خلاف أول وأخير :

« كتبنا نحن فى مشروع الوثيقة عبارة أردنا بها أن نقيد بريطانيا بوعد بلفور ، وبأن تكون خطتها فى فلسطين قائمة على أساس الوطن القومى لليهود ، وكان نص العبارة التى كتبناها نحن :

« والاعتراف بحقوق اليهود التاريخية فى فلسطين » .

« وقال « كيرزون » إنه يقترح تخفيف العبارة حتى لا يهيج العرب عند قراءتها ، وقال إنه يرى أن تكون كما يلى :

« والاعتراف بصلات اليهود وعلاقتهم التاريخية فى فلسطين »

وكنت أود أن أستطرد طويلا مع وايزمان فى « التجربة والخطإ » ، ولكننا جميعاً نعلم أن هذه الحوادث القديمة كانت الجراثيم الأولى للمضاعفات التى مزقت كيان فلسطين ودمرت وجودها !...

(١٤)
حصار الاستعمار

وأعود إلى الذى كنت أقوله من أن الاستعمار هو القوة الكبرى التى تفرض على المنطقة كلهاحصاراً قاتلا غير مرئى ، أقوى وأقسى مائة مرة من الحصار ، الذى كان يحيط بخنادقنا فى « الفالوجة » وبجيوشنا وبحكوماتنا فى العواصم ، التى كنا نتلقى منها الأوامر .

(١٥)
كفاح عربى مشترك

ولقد بدأت — بعد أن استقرت كل هذه الحقائق فى نفسى — أو من بكفاح واحد مشترك ، وأقول لنفسى :

— مادامت المنطقة واحدة ، وأحوالهاواحدة ، ومشا كلها واحدة ، ومستقبلها واحد ... والعدو واحداً ، مهما حاول أن يضع على وجهه من أقنعة مختلفة ؛ — فلماذا تتشتت جهودنا ؟...

ثم زادتنى تجربة «مابعد ثورة ٢٣ يوليو» إيمانا بهذا الكفاح الواحد وضرورته .

فلقد بدأت خبايا الصورة تتكشف ، والظلام الذى كان يحيط بتفاصيلها ينقشع .

وأعترف أنى كذلك بدأت أرى العقبات الكبرى التى تسد الطريق إلى الكفاح الواحد ، ولكنى بدأت أومن بأن هذه العقبات نفسها ينبغى أن تزول ؛ لأنها من صنع ذلك العدو الواحد نفسه !...

(١٦)

سوء الظن هو العقبة !

ولقد بدأت أخيرا فى اتصالات سياسية من أجل توحيد الكفاح مهما كانت وسيلته ، وخرجت بعد شهر من هذه الاتصالات بنتيجة هامة ، هى أن العقبة الأولى فى طريقنا هى « الشك » ، وكان واضحا أن بذور هذا الشك قد بذرها فى نفوسنا ذلك العدو الواحد نفسه ؛ لكى يحول بيننا وبين الكفاح الواحد !...

وأذكر أنى جلست فى الأيام الأخيرة أتحدث مع أخ من ساسة العرب ، وكان معنا زميل له ، وبدأت أتكلم ، وبدأ هو يرد على الذى

أقوله ، وكان يقول العبارة ثم يلتفت إلى زميله ؛ ليرى أثر الذى يقوله فى وجهه ، بدل أن يحاول استكشاف أثره فىّ أنا .

وبدأت أقول له : تغلب على كل مافى نفسك من شكوك ، وقل لى مافى قلبك ، وانظر إلى وفى عينى ، ولا تدر وجهك .

ولست أريد بذلك أن أهون من أمر العقبات التى تحول بيننا وبين توحيد الكفاح ، فلا شك أن بعضها معقد تمتد أصوله إلى طبيعة البيئة وظروف شعوبها التاريخية والجغرافية ؛ ولكن المؤكد أنه يمكن مع شىء من المرونة القائمة على بعد النظر — لاعلى التفريط — إيجاد الخط الذى يستطيع الجميع أن يقفوا فيه ، بلا تحرج ، وبلا عنت ؛ لمواجهة الكفاح الواحد .

(١٧)

نحن أقوياء . . .

ولست أشك دقيقة أن كفاحنا الواحد يمكن أن يعود علينا وعلى شعوبنا بكل الذى نريده لها ونتمناه .

ولسوف أظل دائما أقول إننا أقوياء ولكن الكارثة الكبرى أننا لا ندرك مدى قوتنا !...

إننا نخطىء فى تعريف القوة ؛ فليست القوة أن تصرخ بصوت عال ، إنما القوة أن تتصرف إيجابيا بكل ما تملك من مقوماتها .

وحين أحاول أن أحلل عناصر قوتنا لا أجد مفرا من أن أضع ثلاثة مصادر بارزة من مصادرها ، يجب أن تكون أول ما يدخل فى الحساب .

(ا) أول هذه المصادر أننا مجموعة من الشعوب المتجاورة ، المترابطة بكل رباط مادى ومعنوى يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب ، وأن لشعوبنا خصائص ومقومات وحضارة انبعثت فى جوها الأديان السماوية المقدسة الثلاثة ، ولا يمكن قط إغفالها ، فى محاولة بناء عالم مستقر يسوده السلام .
هذا هو المصدر الأول .

(ب) أما المصدر الثانى فهو أرضنا نفسها ومكانها على خريطة العالم ، ذلك « الموقع الاستراتيجى » الهام الذى يعتبر بحق ملتقى طرق العالم ، ومعبر تجارته ، وممر جيوشه .

(حـ) يبقى المصدر الثالث ، وهو «البترول» الذى يعتبر عصب الحضارة المادية ، والذى بدونه تستحيل كل أدواتها : المصانع الهائلة الكبيرة لكافة أنواع الإنتاج ، وسائل المواصلات فى البر والبحر والجو ، أسلحة الحرب سواء فى ذلك الطائرات المحلقة فوق الضباب ، أو الغواصة المتسترة تحت أطباق الموج ؛ — تستحيل كلها قطعاً من الحديد ، يعلوها الصدأ ، لا تنبعث منها حركة ... أو حياة !...

(١٨)

أثر البترول فى السياسة الدولية

وبودى لو وقفت قليلا عند «البترول» . فلعل وجوده لحقيقة مادية تقررها الإحصائيات والأرقام ، يصلح ليكون نموذجاً للمناقشة فى أهمية مصادر القوة فى بلادنا .

ولقد قرأت أخيراً رسالة طبعتها جامعة « شيكاغو » عن ظروف « البترول » ، وبودى لو كان لكل فرد من أفراد شعوبنا أن يقرأها ، ويتدبر معانيها ، ويسرح بفكره فى المعنى الكبير الكامن وراء أرقامها وإحصائياتها[1] !...

---

(١) انظر كتاب « البترول والسياسة العربية » من مجموعة « اخترنا لك » .

(١٩)

البترول فى البلاد العربية

* تقرر هذه الرسالة مثلا أن العمل لاستخراج بترول البلاد العربية لا يتكلف كثيراً من المال .

لقد صرفت شركات البترول ٦٠ مليوناً من الدولارات فى « كولومبيا » ابتداء من سنة ١٩١٦ ، ولم تعثر على قطرة زيت إلا فى سنة ١٩٣٦ .

وصرفت هذه الشركات ٤٤ مليوناً من الدولارات فى « فنزويلا » ولم تحصل على قطرة من الزيت إلا بعد مرور ١٥ سنة .

وصرفت هذه الشركات ٣٩ مليوناً من الدولارات فى « جزر الهند الهولندية » وأخيراً عثرت على الزيت .

وكانت النتيجة الأخيرة التى قررتها هذه الرسالة فى هذا الموضوع :

أن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى أمريكا هو ٧٧ سنتاً .

وأن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى أمريكا الجنوبية هو ٤٣ سنتاً .

وأن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى البلاد العربية هو ١٠ سنتات .

* إن عاصمة إنتاج البترول فى العالم قد انتقلت من الولايات

المتحدة التى استنزفت آبارها ، وارتفع سعر الأرض فيها ، وزادت أجور الأيدى العاملة لأبنائها؛— إلى المنطقة العربية التى ما زالت آبارها بكرا ، والتى ما زالت أراضيها الشاسعة بلا ثمن ، والتى ما زالت يدها العاملة تقبل ما دون الكفاف .

ولقد ثبت أن نصف الاحتياطى المحقق من البترول فى العالم يرقد تحت أرض المنطقة العربية ، والنصف الباقى موزع بين الولايات المتحدة وروسيا ومنطقة الكاريبى وغيرها من بلاد العالم .

وثبت أيضاً أن متوسط إنتاج البئر الواحدة فى اليوم من الزيت هو :

١١ برميلا فى « الولايات المتحدة » .

٢٣٠ برميلا فى « فنزويلا » .

٤٠٠٠ برميل فى « المنطقة العربية » .

هل أوضحت مدى أهمية هذا العنصر من عناصر القوة ؟... أرجو أن أكون قد وفقت .

وإذن فنحن أقوياء ، أقوياء ليس فى علو صوتنا حين نولول ، ولا حين نصرخ ، ولا حين نستغيث ؛ إنما نحن أقوياء حين نهدأ ، وحين نحسب بالأرقام مدى قدرتنا على العمل ، وفهمنا الحقيقى لقوة الرابطة بيننا ، هذه الرابطة التي تجعل من أرضنا منطقة واحدة لا يمكن عزل جزء منها عن كلها ، ولا يمكن حماية مكان منها بوصفه جزيرة ، لا تربطها بغيرها رابطة .

(٢٠)

الدائرة الثانية

هذا عن الدائرة الأولى التى لا مفر من أن ندور عليها ، وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا ، وهى الدائرة العربية .

فإذا اتجهت بعد ذلك إلى الدائرة الثانية ، وهى دائرة القارة الإفريقية ، قلت دون استفاضة ودون إسهاب : إننا لن نستطيع بحال من الأحوال — حتى لو أردنا — أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق إفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ، ومائتى مليون من الإفريقيين .

لا نستطيع لسبب هام وبدهى ، هو أننا فى « إفريقيا [1] » .

ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع إلينا ، نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة ، والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى كله .

ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسئوليتنا فى المعاونة

---

(١) انظر الكتب الآتية : من مجموعة « اخترنا لك » .

* « زعماء العصابات الاستعمارية» .
* « إفريقيا حلم الاستعمار البريطانى » .
* « أضواء على الحبشة » .
* « شمال إفريقيا فى الماضى والحاضر والمستقبل » .
* « جنوب إفريقيا : جنة البيض وجحيم الملونين » .

بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء .

ويبقى بعد ذلك سبب هام ، هو أن النيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة .

ويبقى أيضاً أن السودان — الشقيق الحبيب — تمتد حدوده إلى أعماق إفريقيا ، ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة فى وسطها .

والمؤكد أن إفريقيا الآن مسرح لفوران عجيب مثير ، وأن الرجل الأبيض الذى يمثل عدة دول أوربية يحاول الآن إعادة تقسيم خريطتها ، ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نقف أمام الذى يجرى فى إفريقيا ، ونتصور أنه لا يمسنا ولا يعنينا .

(٢١)
معهد الدراسات الإفريقية

ولسوف أظل أحلم باليوم الذى أجد فيه فى القاهرة معهداً ضخماً لإفريقيا ، يسعى لكشف نواحى القارة أمام عيوننا ، ويخلق فى عقولنا وعياً إفريقيا مستنيراً ، ويشارك مع كل العاملين من كل أنحاء الأرض على تقدم شعوب القارة ورفاهيتها .

(٢٢)
الدائرة الثالثة

ثم تبقى الدائرة الثالثة ... الدائرة التي تمتد عبر قارات ومحيطات، والتي قلت إنها دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة، وتهمس شفاههم الخاشعة بنفس الصلوات .

ولقد ازداد إيماني بمدى الفاعلية الإيجابية التي يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الإسلامي بين جميع المسلمين، أيام ذهبت مع البعثة المصرية إلى المملكة العربية ؛ لتقديم العزاء في وفاة عاهلها الراحل الكبير [١] .

(٢٣)
حكمة الحج

ولقد وقفت أمام الكعبة، وأحسست بخواطري تطوف بكل ناحية من العالم وصل إليها الإسلام، ثم وجدتني أقول لنفسي :

— يجب أن تتغير نظرتنا إلى الحج، ولا يجب أن يصبح الذهاب إلى

(١) توفي الملك عبد العزيز آل سعود، في شهر ربيع الأول سنة ١٣٧٤ هـ (نوفمبر سنة ١٩٥٣ م) .

الـكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد ، أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة .

(٢٤)
المؤتمر الإسلامى

يجب أن تـكون للحج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع صحافة العالم إلى متابعة أنبائه ، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صوراً طريفة لقراء الصحف ، وإنما بوصفه مؤتمراً سياسياً دورياً يجتمع فيه كل قادة الدول الإسلامية ، ورجال الرأى فيها ، وعلماؤها فى كافة أنحاء المعرفة ، وكتابها ، وملوك الصناعة فيها ، وتجارها ، وشبابها ؛ ليضعوا فى هذا البرلمان الإسلامى العالمى خطوطاً عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معاً ، حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام .

يجتمعون خاشعين ... ولـكن أقوياء ؛ متجردين من المطامع ... لـكن عاملين ؛ مستضعفين لله ... ولـكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم ؛ حالمين بحياة أخرى ... ولـكن مؤمنين بأن لهم مكاناً تحت الشمس ، يتعين عليهم احتلاله فى هذه الحياة .

وأذكر أنى قلت بعض خواطرى هذه «لجلالة الملك سعود» ، فقال لى الملك :

— إن هذه هى فعلا ، الحـكمة الحقيقية فى الحج .

وفى الحق أنى لا أستطيع أن أتصور للحج حكمة أخرى .

(٢٥)

المسلمون إخوة

وحين أسرح بخيالى إلى ثمانين مليوناً من المسلمين فى أندونيسيا ، وخمسين مليوناً فى الصين ، وبضعة ملايين فى الملايو وسيام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون فى باكستان ، وأكثر من مائة مليون فى منطقة الشرق الأوسط ، وأربعين مليوناً داخل الاتحاد السوفيتى ، وملايين غيرهم فى أرجاء الأرض المتباعدة — حين أسرح بخيالى إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة ، أخرج بإحساس كبير بالإمكانيات الهائلة التى يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعاً ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصلية بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولإخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة .

* * *

ثم أعود إلى الدور التائه الذى يبحث عن بطل يقوم به . . . ذلك هو الدور ، وتلك هى ملامحه ، وهذا هو مسرحه ... ونحن وحدنا بحكم « المكان » نستطيع القيام به !...

فى ١٩ أكتوبر سنة ١٩٥٤ ، تم توقيع اتفاق الجلاء بين مصر و«إنجلترا» . وفى هذه المناسبة ألقى السيدالرئيس جمال عبدالناصر ، رئيس الجمهورية المصرية كلمة ...

وكانت كلمته هذه دستوراً ... دستورا للغد الذى يأمله كل مواطن لوطنه ...

الدستور الذى يجب على كل مصرى أن يؤمن به ، وأن يعمل له بكل عزم وجهد وإخلاص ...

دِسْتُورُ الغَدِ

بسم الله الرحمن الرحيم

من السيد وزير التربية والتعليم ، إلى السادة المعلمين :

إخوانى المعلمين !

لقد تم فى عصرنا هـذا حادث تاريخى عظيم ، من حق جيلنا أن يباهى به الأجيال ؛ ذلك الحادث هو توقيع اتفاق الجلاء بيننا وبين بريطانيـا !!...

والجلاء هو هدف مصر العظيم منذ اثنتين وسبعين سنة ، بل هو هدفها منذ سبع وثلاثين وأربعمائة سنة ، منذ وطئت جيوش الاحتلال العثمانى أرض بلادنا فى سـنة ١٥١٧ . فلم تخل أرض مصر من جيش محتل منذ ذلك التاريخ البعيد ، فلا مغالاة إن قلنا إن هذا الاتفاق الذى يحقق الجلاء الـكامل عن أرض بلادنا ، هو حادث تاريخى عظيم ، من حقنا أن نباهى به الأجيال ! . . .

وخلال هذه السـنين الطويلة التى جثم فيهـا الاحتلال بأثقاله البغيضة على صـدر بلادنا ، لم ينقطع شعبنا الواعى يوماً واحداً عن الـكفاح ؛ للخلاص من الاحتلال وتحقيق الاستقلال الـكامل للبلاد ؛ فـكم من ضحايا شهداء ، سـفحوا دماءهم ، وبذلوا أرواحهم ، فى مقاومة الغاصب المحتل وأعوانه البغاة ، منذ ذلك التاريخ !...

كم من الأرواح الطاهرة ، صعدت إلى بارئها مستشهدة فى ساحة النضال ، وهى تقاوم الاحتلال العثمانى ، ثم الاحتلال الفرنسى ، ثم الاحتلال البريطانى !...

إن هؤلاء الشهداء من آبائنا وأجدادنا ، قد حملونا أمانتهم قبل أن يلفظوا آخر أنفاسهم ؛ فاليوم قد أدينا لهم الأمانة ، بإجلاء المستعمر الدخيل عن أرضنا ، وتحقيق الاستقلال الكامل لبلادنا ؛ فلم يكن كفاحنا الدامى فى سبيل تحقيق هذا الهدف العظيم ، إلا امتداداً لكفاح أولئك الأجيال المتعاقبة ، منذ أربعة قرون وبعض قرن ! . . .

وقد يبدو الجلاء فى ذاته شيئاً ضئيل القيمة ، إذا لم نتخذه وسيلة لإزالة أنقاض الماضى البغيض ورواسبه الخبيثة فى نفوسنا ؛ ولنبنى مستقبل وطننا على دعائم جديدة . . .

إن لنا ماضياً حافلا بالمفاخر ، ليس لأمة مثله فى التاريخ القريب ، ولا فى التاريخ البعيد ، ولكن الاحتلال البغيض ، الذى جثم على صدورنا أربعة قرون وبعض قرن ، لم يترك من ذلك الماضى إلا ذكرى : وماذا تنفع الذكرى إذا لم تكن حافزاً إلى عمل عظيم يصل مفاخر ذلك الماضى بآمال المستقبل ؟...

وقد ترك هذا الاحتلال فى نفوسنا آثاراً كثيرة ، يجب أن

نعمل على إزالتها قبل أن نأخذ فى أسباب العمل لبناء المستقبل الذى يلائم ماضينا ، ويمتد به فى تاريخ الحضارة . . .

ترك فى نفوسنا الخوف ، والضعف ، والأثرة ، والحقد ، وسوء الظن بأنفسنا وبالناس ، والانفرادية التى لا تؤمن بفائدة التعاون فى العمل للخير العام أو الخير الخاص . . .

وترك فى نفوسنا الغرور السلبى ، الذى يحمل على المباهاة بلا عمل ! . . .

وترك فى نفوسنا التعصب الأعمى . الذى لا يحمل على الإيمان بالنفس بقدر ما يحمل على الكفر بالغير ! . . .

وترك فى نفوسنا القدرة على التحليق فى سماوات الأحلام إلى آفاق بعيدة ، دون أن نحاول اتخاذ أجنحة تطير بنا حقاً وعملا إلى تلك الآفاق البعيدة ! . . .

وترك فى نفوسنا شهوة التتبع لمساوىء غيرنا ، دون أن نحاول التماس العذر لهم من بعض هذه المساوىء ، أو أن نترفع بأنفسنا عن أمثالها . . .

وترك فى نفوسنا الخوف من حمل التبعات ، أو الاستهانة بها ، دون أن نكف لحظة عن الشكوى من عدم اضطلاعنا ببعض التبعات ! . . .

وترك فى نفوسنا الخوف من القانون ، أو الاحتيال على التخلص من القانون ، دون أن نحاول — بما نملك من سلطة التوجيه — أن نقترح القانون الكامل الذى نخضع له جميعاً بلا خوف ولا حيلة !...

وترك فى نفوسنا أخيراً ، وحدانية وثنية ، تحمل كل واحد منا على الإيمان بنفسه ، وسوء الظن بغيره ، والانطواء فى علاقاتنا بالناس على كثير من الخوف والحذر ، ومن الرغبة فى الكيد ، ومن محاولة الاستعلاء والتسلط ، ومن الحرص على انتهاز الفرص !...

تلك بعض آثار الاحتلال فى نفوسنا ، لم يكن لنا بدفعها قبل اليوم حيلة ؛ لأن الاستعمار الأجنبي ، والطغيان الداخلى كانا يعملان متعاونين على إشاعة هذا السوء ؛ أما اليوم وقد جلا الاستعمار عن بلادنا أو كاد ، وتحطم الطغيان فليس له معاد ، وصار كل مواطن حر النفس والضمير والإرادة ؛ فإننا نستطيع أن نحاول بناء مستقبل وطننا على أساس جديد . . .

وأول الأساس أن نزيل ما تراكم فى نفوسنا من هذه الأنقاض ، لنبنى على أرض نظيفة . . .

هذه المعانى جميعاً تمثلت فى نفس الرئيس جمال عبد الناصر ، فى اللحظة التى أمسك فيها بالقلم ليوقع اتفاق الجلاء . . .

أحس ساعتئذ أنه فى لحظة من لحظات التاريخ الحاسمة ، تفصل بين عهدين يجب أن يكون البون بينهما بعيداً وشاسعاً ؛ لتكون مصر الغد غير مصر اليوم ، وليكون مستقبلها الباهر امتداداً لماضيها المجيد . . .

وبوحى هذه المعانى جميعاً ، قال جمال عبد الناصر كلمته التاريخية العظيمة ، التى يجب أن تكون دستوراً لكل معلم ومتعلم والتى من أجلها أتحدث إلى كل منكم هذا الحديث ؛ لأنكم بناة الجيل الناشىء الذى تعدونه لحمل تبعات الغد . . .

وأول تبعات الغد أن يؤمن ذلك الجيل الناشىء بدستور الغد ، كما رسمه « جمال عبد الناصر » فى خطابه التاريخى . . .

وعليكم أنتم — يا إخوانى المعلمين — حمل هذه الأمانة ، وأنتم أهل لحملها . . .

وزير التربية والتعليم

خطاب
الرئيس جمال عبد الناصر
لمناسبة توقيع اتفاق الجلاء

في ١٩ أكتوبر سنة ١٩٥٤

اعده لتلاميذ المدارس
محمد سعيد العريان

بسم الله الرحمن الرحيم

يهـا المواطنون !...

لعل أجدادنا يتطلعون إلينا من المثوى الذى تسكنه أرواحهم ، فى هذا اليوم ، برضاً وفخر ...

ولعل أحفادنا الذين ما زالوا فى مجاهل المستقبل ، سوف يعودون ، بعد مئات السنين ، إلى ذكرى هذا اليوم بإعزاز وتقدير ...

لعل هؤلاء وهؤلاء : الأجيال التى مضت ، والأجيال التى ستجىء ، تلتقى نظراتهم عند هذا اليوم ، يباركون الجهد الذى قام به جيلنا ، استكمالا لكفاح من ذهبوا ، وتمهيداً لكفاح القادمين ...

لقد شاءت إرادة الله أن تستقر على أكتافنا أمانة الماضى والمستقبل ، وكانت رعايته لنا عوناً على الحاضر ...

لقد حاولنا أن نرتفع لمستوى ماضينا العظيم ، واستطعنا أن ندرك أن هذا الماضى لا قيمة له إذا كانت أمجاده تاريخاً يروى ، يشب خيالنا إليه ، وتقصر أعمالنا عن الوصول إلى مستواه ...

فإنه لا فائدة من الأمجاد الماضية ، إذا لم تكن معانيها خصائص كامنة فى نفوس شعبنا ، تطبع كفاحه عبر الزمن ، وتلازم جهاده جيلا بعد جيل ...

هذا هو إيمانى بالماضى . . .

وهو فى نفس الوقت إيمانى بالمستقبل . .

أيها المواطنون . . .

إن يومنا الحاضر يوم عظيم ، يرتفع إلى مستوى الماضى العريق ، ويعطى بشائر الأمل فى مستقبل لا تحده آفاق .

أيها المواطنون . . .

إن مرحلة من كفاحنا قد انتهت ، ومرحلة جديدة توشك أن تبدأ . . .

هاتوا أيديكم وخذوا أيدينا ، وتعالوا نبن وطننا من جديد بالحب والتسامح والفهم المتبادل . . .

اللهم أعطنا المعونة الحقة ؛ كى لا يستخفنا النصر ، وتدور رءوسنا غرورا من نشوته . . .

اللهم أعطنا الأمل الذى يجعلنا نحلم بما سوف نحققه فى الغد ، أكثر مما يجعلنا نفاخر بما حققناه فى الأمس واليوم . . .

اللهم أعطنا الثقة فى أنفسنا ، لنرى أننا على بداية الطريق ، وأن الشوط أمامنا طويل وشاق . . .

اللهم أعطنا الشجاعة ، لنستطيع أن نتحمل المسئوليات التى لا بد أن نتحملها ، فلا نستهين بها ولا نهرب منها . . .

اللهم أعطنا القدرة على أن نواجه أنفسنا ، ونتقبل أن يواجهنا الآخرون بالحق والعدل . . .

اللهم أعطنا القوة ؛ لندرك أن الخائنين لا يصنعون الحرية ، والضعفاء لا يخلقون الكرامة ، والمترددين لن تقوى أيديهم المرتعشة على البناء . .

أيها المواطنون ! . . . الله فى عوننا ، وهو ولى التوفيق . . .

الإيضاح

(١)

أيها المواطنون . .

لعل أجدادنا يتطلعون إلينا من المثوى الذى تسكنه أرواحهم ، فى هذا اليوم ، برضاً وفخر . .

* * *

يشير الرئيس جمال عبد الناصر إلى كفاح الأجيال الماضية فى سبيل تحقيق الجلاء ويتخيل أرواح الأجداد ترفرف اليوم فوق رءوسنا ، راضية معجبة مسرورة بهذا الانتصار الذى أحرزه أبناؤهم بعد طول الكفاح ...

(٢)

ولعل أحفادنا الذين ما زالوا فى مجاهل المستقبل ، سوف يعودون — بعد مئات السنين — إلى ذكرى هذا اليوم بإعزاز وتقدير . . .

* * *

ويتخيل ذكرى هذا اليوم السعيد ، عيداً من أعياد المستقبل ، يحتفل به أبناؤنا وأحفادنا الذين لم يولدوا بعد ؛ لأنه اليوم الذى بدأنا فيه مرحلة جديدة ومجيدة من تاريخنا ، فهو يوم خليق بكل إعزاز وتقدير ...

(٣)

لعل هؤلاء وهؤلاء : الأجيال التى مضت والأجيال التى ستجىء ، تلتقى نظراتهم عند هذا اليوم ، يباركون الجهد الذى قام به جيلنا ؛ استكمالا لكفاح من ذهبوا ، وتمهيداً لكفاح القادمين . . .

* * *

يعنى أن هذه اللحظة ، هى نقطة الانتقال من الماضى إلى المستقبل ، وعندها تلتقى نظرات الأجيال الماضية ، التى فرحت بتحقيق أمانيها . والأجيال المستقبلة ، التى مهد لها هذا النصر سبيل العمل لتحقيق أمانى جديدة ، ذلك لأن الاستقلال الذى حصلنا عليه بتوقيع هذا الاتفاق ، لم يكن غاية فى ذاته ، ولكنه الباب

الذى ننفذ منه إلى طريق طويل شاق ، يجب أن نمضى فيه بجد وعزم وصبر ، وأن تمضى فيه الأجيال القادمة بعدنا بجد وعزم وصبر كذلك ، لنحقق لبلادنا العزة والكرامة ، ونحقق لقومنا الرخاء والأمن والطمأنينة ، ونبلغ بأمتنا المكانة التى تلائمها بين الأمم العظيمة المتحضرة ، وإنها لغايات بعيدة ، تقتضينا كفاحاً دائباً ومتصلا على تعاقب الأجيال ؛ لكى نجنى ثمرة الاستقلال الذى ظفرنا به ، ولا نعتبره غاية نقف عندها مهللين فرحين كأننا قد بلغنا به كل الأمانى ...

(٤)

لقد شاءت إرادة الله أن تستقر على أكتافنا أمانة الماضى والمستقبل وكانت رعايته لنا عوناً على الحاضر ...

* * *

يشير الرئيس فى هذه الفقرة إلى :

(ا) الأمانة التى ألقتها الأجيال الماضية على كواهلنا ، وهى أمانة السعى لتحقيق الاستقلال الذى كافحوا فى سبيله حتى ماتوا . وقد حملنا هذه الأمانة أوفياء صادقين ، حتى أديناها لهم كاملة بتحقيق الاستقلال .

(ب) أمانة المستقبل ، وهى تثبيت دعائم هذا الاستقلال ، بإعادة بناء مصر على أساس جديد ليكفل لها القوة والهيبة ، كما يكفل لها الرخاء والأمن فى الداخل والخارج .

(ح) أن الأعمال الجليلة التى قام بها الجيل الحاضر — فحطم بها الطغيان والطغاة ، وقضى على الإقطاع والفساد ، وحدد نهاية الاحتلال ، ورد السيادة إلى الشعب — كانت ملحوظة بعناية الله وتوفيقه ، فهو الذى أعان عليها ، وهيأ الأسباب لنجاحها ، تحقيقاً لوعده سبحانه : ولينصرن الله من ينصره » ! .

(٥)

لقد حاولنا أن نرتفع لمستوى ماضينا العظيم ، واستطعنا أن ندرك أن هذا الماضى لا قيمة له إذا كانت أمجاده تاريخاً يروى ، يثب خيالنا إليه ، وتقصر أعمالنا عن الوصول إلى مستواه . . .

***

يقول الرئيس : إننا تطلعنا إلى ماضينا العظيم ، ووازنا بينه وبين حاضرنا الماثل ، فوجدنا بوناً بعيداً وشاسعاً بين ذلك الماضى وهذا الحاضر ، فشعرنا بالأسف والمرارة ، وقلنا لأنفسنا : ما قيمة ذلك الماضى إذا لم يكن الحاضر دليلا عليه وصورة منه ؟... وما فخرنا به إذا لم تكن بنا قوة لنرتفع بحاضرنا إلى مستواه ؟ ... إن قيمة ذلك الماضى على ما فيه من عظمة ومجد ، لا تزيد على قيمة القصص وحكايات السمر التى نسمعها فيتعلق بها خيالنا ولا نستطيع الوصول إلى حقيقتها أو الارتفاع إلى مثل مستواها فهى أقوال تروى ، وعبارات تتردد بين الأفواه والآذان ، بلا أثر ولا نتيجة ! ..

(٦)

فإنه لا فائدة من الأمجاد الماضية ، إذا لم تكن معانيها خصائص كامنة فى نفوس شعبنا ، تطبع كفاحه عبر الزمن ، وتلازم جهاده جيلا بعد جيل ...

* * *

يعنى أن الأمجاد الماضية لا تستحق أن يباهى بها شعب من الشعوب ، إلا إذا استطاع أن يثبت أن هذه الأمجاد أثر لازم من آثار خصائص باقية فيه تتوارثها أجياله جيلا بعد جيل ، فنى كل جيل منها طاقة متجددة ، تتيح له أن يصنع أمجادا حاضرة ، تشبه أمجاده الماضية ؛ لأنه هو هو ، فى الحاضر كما كان فى الماضى ، بإدراكه ، ووعيه ، وعزيمته ، وقدرته على إحداث الأثر فى كل زمان ومكان .

(٧)

هذا هو إيمانى بالماضى ...
وهو فى نفس الوقت إيمانى بالمستقبل ...

* * *

يعنى الرئيس أن اعتزازه بماضى أمتنا المجيد ، وإيمانه بعظمته ،

هو الذى دفعه إلى المحاولة لتحقيق ذلك الماضى وإثبات عظمته ، بإظهار قدرة الأمة على صنع أمجاد جديدة تلائمه ، فكان إيمانه بذلك الماضى المجيد ، سبيلا إلى إيمانه بالمستقبل ، وحافزا إلى العمل له .

(٨)

أيها المواطنون . . .

إن يومنا الحاضر يوم عظيم ، يرتفع إلى مستوى الماضى العريق . ويعطى بشائر الأمل فى مستقبل لا تحده آفاق .

* * *

يقول الرئيس : إن الغاية العظيمة التى حققناها اليوم ، بإكراه بريطانيا على الجلاء عن أرضنا ، قد رفعت قدرنا إلى المستوى الذى يلائم عظمة ماضيها ؛ فمن حقنا منذ اليوم أن نفاخر به ؛ كما فتحت لنا الطريق إلى مستقبل عظيم ، بعيد الأهداف ، لا تعترضه حدود ولا قيود ؛ لأن الاستعمار الذى كان يقيم لنا العقبات فى كل خطوة نخطوها ؛ قد ذهب إلى غير رجعة ، فلا عائق لنا بعد اليوم عن التقدم .

(٩)

أيها المواطنون . . .

إن مرحلة من كفاحنا قد انتهت ، ومرحلة جديدة توشك أن تبدأ . . .

* * *

هنا يدق الرئيس الناقوس ؛ لينبه المواطنين إلى أن وقت العمل قد حان ، لتثبيت دعائم الاستقلال ، وإزالة أنقاض الماضى ، ووضع أسس المستقبل ، فإننا لم نطلب الحرية والاستقلال ونبذل فى سبيلهما ما بذلنا من الأرواح لنفقدها غدا ، أو لنباهى بأننا أحرار ومستقلون ؛ وإنما طلبناها وبذلنا فى سبيلهما ما بذلنا ، لنظل أبدا أحرارا مستقلين ، ثم ليكون استقلالنا وحريتنا وسيلة لتحقيق مستقبل أسعد وأمجد ؛ ولن يتحقق لنا هذا كله بغير الكفاح الدائب المتصل ، والعزيمة الماضية الصارة .

(١٠)

هاتوا أيديكم وخذوا أيدينا ، وتعالوا نَبْنِ وطننا من جديد بالحب والتسامح والفهم المتبادل . . .

* * *

هذه قواعد العمل للمستقبل كما يرسمها الرئيس ، وأولها الاتحاد وطرح أسباب الخصام والفرقة التى كانت سبباً لإخفاق كل جهودنا الماضية ، والتعاون الإيجابى على البناء لإنشاء وطن جديد، يعمل أبناؤه يداً واحدة لهدف واحد ، لا متعادين ولا متدابرين ولا فى قلب أحدهم على أخيه ضغينة أو موجدة ؛ لأن دستورهم جميعاً هو الحب والتسامح والتماس المعذرة واطراح سوء الظن ؛ ليكون كل مواطن لكل مواطن أخاً وجاراً ، ومعينا فى البأساء والشدة . . .

لقد كانت الفرقة سبباً لكل مآسى الماضى ؛ ولن نستطيع أن نتقدم لنبلغ مكانتنا ، ونفوسنا مشحونة بأسباب الحقد والبغضاء والكراهية . . .

(١١)

اللهم أعطنا المعرفة الحقة ، كى لا يستخفنا النصر وتدور رءوسنا غروراً من نشوته . . .

* * *

يشير الرئيس إلى أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس ، وأوله أن يعرف كل مواطن نفسه ، فلا ينخدع ولا يغتر ، ولا يستخفه السرور ونشوة الظفر فيقعدان به عن الكفاح للمستقبل ، وهى إشارة مهذبة إلى بعض رواسب الماضى فى نفوسنا ، ويدعو الله أن نتخلص منها ، لننكشف الغشاوة عن قلوبنا وعقولنا ، ونتبين حقيقة أنفسنا وظروفنا ، وحاجاتنا ، ومدى قدرتنا على الإنتاج والعمل لخير بلادنا ، غير مغرورين ولا مخدرين بنشوة النصر . . .

(١٢)

اللهم أعطنا الأمل الذى يجعلنا نحلم بما سوف نحققه فى الغد : أكثر مما يجعلنا نفاخر بما حققناه فى الأمس واليوم . . .

* * *

يريد الرئيس أن تكون أهداف المستقبل ماثلة دائماً أمام عيوننا ، في النوم واليقظة ، ونعمل لها بقوة ، ونفكر في أسباب تحقيقها بعزيمة ، ونلتمس كل الوسائل لبلوغها بصبر ؛ غير مكتفين بما حققناه منها ، ولا قانعين بالأماني الحالمة ، التي تحلق بنا في السماوات البعيدة ، فننتشي ونتلذذ ، دون أن نأخذ أهبتنا للعمل على تحقيقها .

يريد أن تكون آمالنا إيجابية فعالة ، تصور لنا المستقبل بأسبابه ووسائله والطريق الذى يوصل إليه ، ليكون تصوره أول مرحلة من مراحل العمل له ، لا أن تكون آمالا مخدرة ، تبعث النشوة وتغرى بالنوم !...

(١٣)

اللهم أعطنا الثقة في أنفسنا ؛ لنرى أننا على بداية الطريق ، وأن الشوط أمامنا طويل وشاقّ . . .

يبتهل الرئيس إلى الله ، أن نتخلص من سوء ظننا بأنفسنا ، وسوء ظن بعضنا ببعض ، وأن يثق كل منا بنفسه ، ويثق كل مواطن بمواطنيه ، وأن نستيقن ما علينا من واجب لبلادنا ، يقتضينا أن نبذل الجهد الطويل الشاق ؛ لنمضى جميعاً إلى غاياتنا متعاونين ، مؤمنين بأنفسنا ، وبحق بلادنا علينا ، وبقدرتنا على العمل ، وعلى بلوغ أبعد

الغايات ، بالتعاون ، والصبر ، والـكفاح المتصل ؛ فليس فى الأرض قوة تعين على بلوغ المستحيلات ، غير الثقة بالنفس . وغير التعاون الذى يقوم على أساس ثقة كل فرد فى الجماعة بكل فرد فى الجماعة . . .

(١٤)

اللهم أعطنا الشجاعة ، لنستطيع أن نتحمل المسئوليات التى لا بد أن نتحملها ، فلا نستهين بها ولا نهرب منها . . .

* * *

ويمضى الرئيس فى ابتهالاته إلى الله ؛ ليخلصنا من رواسب الماضى ، فلا نخاف المسئولية ونتجنبها ، ولا نتوا كل فيلقى كل منا حمله على أخيه ؛ استهانة بالواجب أو فراراً من أثقاله ؛ بل يؤدى كل منا ما عليه من واجب لوطنه . كأنه واجبه وحده دون سائر المواطنين .

(١٥)

اللهم أعطنا القدرة على أن نواجه أنفسنا ، ونتقبل أن يواجهنا الآخرون بالحق والعدل . . .

* * *

ويبتهل إلى الله أن يخلصنا من الغرور السلبي الذى يرتفع بنا فوق أقدارنا الحقيقية ، ومن ضعف الثقة الذى يحملنا على الجبن عن مواجهة أنفسنا بعيوبنا ، وعلى التغاضى عما نحس فى نفوسنا أو فى أعمالنا من النقص ، وعلى ضيق الصدر عن استقبال ما يوجهه إلينا الآخرون من نقد أو من موعظة . . .

(١٦)

اللهم أعطنا القوة ؛ لندرك أن الخائفين لا يصنعون الحرية ، والضعفاء لا يخلقون الكرامة ، والمترددين لن تقوى أيديهم المرتعشة على البناء . . .

* * *

ويبتهل إلى الله أن يخلصنا من الخوف ، ومن الضعف ، ومن التردد ؛ لنكون أقوياء ، شجعانا ، ذوى إرادة وعزيمة وحزم فى كل ما نحاول من عمل ؛ ولنظل أبداً أحراراً ، كرماء على أنفسنا وعلى الناس ، بنائين ، نحسن بناء مستقبل الوطن ونرتفع به ونزيده كل يوم متانة وقوة .

إن الخوف ، والضعف ، والتردد ، والغرور ، والهرب من التبعات ، وضعف الثقة بالنفس ، والاستنامة إلى الأمانى بلا عمل ، والجهل بأنفسنا وبما حولنا ومن حولنا من الأشياء والناس ، واحتقان الأحقاد والضغائن فى طوايا الصدور ، وسوء ظن بعضنا بنيات بعض ؛ — هذه الآفات

جميعاً هي بعض رواسب الاستعمار في نفوسنا ، وهي آثار الاحتلال الأجنبي والطغيان الداخلي في أخلاقنا العامة ؛ وقد تحطم الطغيان ، وجلا الاحتلال ، وانتهى الماضي ، ونحن اليوم على عتبة المستقبل ؛ فيجب أن نطرح عن كواهلنا كل آثار ذلك الماضي وننفض غباره ، لنبدأ المرحلة الجديدة من تاريخنا بنفوس جديدة ، وأخلاق جديدة ، وعزم جديد !...

(١٧)

أيها المواطنون :
الله في عوننا ، وهو ولي التوفيق !...

***

قد عرفتم أيها المواطنون ما عليكم من واجب في هذا العهد الجديد ، وما في طريقكم من عقبات ومشاق ، فاطلبوا العون والتوفيق من الله ، مؤمنين به ، معتمدين عليه ، واثقين بأنه دائماً مع العاملين المخلصين .

على هذه المبادىء الجديدة يجب أن يربى الجيل الناشىء ، وأن يؤمن بها إيمانه بالله ، وبالوطن .

إن الغد لهم ، فليحملوا أمانته منذ اليوم ؛ وأول أمانته أن يحفظوا دستور الغد الذي وضعته الثورة المصرية للأجيال ، وهو دستور الحق . والعدل . والحرية . والكرامة الإنسانية ! . . .

لقد شقت الثورة الطريق إلى مجد المستقبل ... وكان الفصل الرائع الذى بدأ ذات ليلة من يولية عام ١٩٥٢ أول فصول المستقبل الذى بدأنا نكتبه بكفاحنا وعزمنا وإصرارنا ...

ولم يلهنا ما كسبناه بعد توقيع اتفاق الجلاء ، عن أن نقف لنتدبر موقفنا وننظر إلى الماضى وإلى الحاضر وإلى المستقبل ...

وفى هـذه اللحظات المتيقظة ، ومن هذه الوقفة المتدبرة ، كتبت الصفحات التالية عن كفاحنا من أجل الحرية والطريق الذى سرنا فيه ...

طَرِيقُ الحُرِّيَّة

بقلم

محمد سعيد العريان

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم

السيد الصاغ . ا . ح

إن طريق الحرية طويل وشاق ، كله آلام ومصاعب ، وجراح دامية ، وبنتات مردية ، وأنياب زرق تتربص المنون بكل من يحاول العبور ، ولكن كل مشقة تهون فى سبيل الحرية ؛ لأن الحرية أثمن وأسمى مطالب الإنسانية . . .

كم جيلا من أبناء هذا الوطن تتابعوا على ذلك الطريق الطويل الشاق ، منذ وطئت أقدام المستعمر العثمانى أرض مصر فى بداية القرن السادس عشر إلى اليوم ؟...

كم شهيداً منهم واراه الثرى فى أكفانه البيض أو فى أكفانه الحمر ؟...
وكم سجيناً أطبق عليه ظلام السجن فلم يخلص منه إلا إلى ظلام القبر ؟...

ليسوا آحادا ، ولا مئات . ولا آلافا ، ولـكنهم أجيال وحصاد قرون . . .

أجيال تتابع بهم الزمن جيلا بعد جيل ، كلهم كانوا يطلبون لوطنهم الحرية والسيادة والخلاص من قبضة المستعمر ، مات منهم من مات ممزق الأديم بالسيف أو بالرصاص ، ومات منهم من مات تحت سنابك خيل الطغاة ، ومات منهم من مات سجيناً تحت أطباق الظلام ، ومات منهم من مات غريباً مشرداً ، لا تقع عيناه على حبيب ولا قريب من أهله ، فى آخر لحظات دنياه ، ومات منهم من مات على فراشه بحسراته ؛ لأنه لم يشهد آخر كفاح أمته فى سبيل الخلاص والحرية ...

أجيال متتابعة ، مضوا على ذلك الطريق الطويل الشاق ، فلم يبلغوا آخرته ، ولـكنهم لم يسلموا الراية ؛ لأن أجيالا متتابعة من ورائهم كانت تلقفها من أيديهم لتمضى بها فى ذلك الطريق ، تريد أن تبلغ بها الغاية ...

وجيلا بعد جيل مضوا ، وهم يكافحون الاستعمار العثمانى ، ثم الطغيان المملوكى ، ثم الاستعمار الفرنسى ، ثم طغيان محمد على وخلفائه ، ثم الاستعمار البريطانى ، حتى انتهت الراية إلى جيلنا ، بعد أربعة قرون وثلث قرن ، منذ بدأت أولى معارك الـكفاح فى « مرج دابق » سنة ١٥١٦ م . . .

وكانت خطوات جيلنا هى آخر الخطا على ذلك الطريق ، فبلغنا غايته ، وتحققت لمصر السيادة والحرية . . .

بكفاح تلك الأجيال المتتابعة بلغنا هذه الغاية ، لا بكفاحنا وحدنا...

وهذه القطوف التى نجنيها اليوم ، هى ثمرة الشجرة الطيبة التى أرواها الملايين من آبائنا بالدماء وقطرات العرق والدموع . . .

فما أحرانا أن نستشعر ثقل الأمانة التي آلت إلينا بعد كفاح أولئك الملايين عبر القرون !... وما أحرانا أن نستشعر جلال التبعات التى ألقاها على كواهلنا هذا النصر الباهر الذى ظفر به جيلنا بعد ذلك الزمن المتطاول فى الكفاح الدامى المرير !...

لأول مرة بعد أربعة قرون وثلث قرن تتطهر أرض الوطن من المستعمر الدخيل ، ويتحقق الجلاء . . .

ولأول مرة بعد قرون أعمق فى القدم ، يئول حكم البلاد إلى أهلها ، فلا يتحكم فى رقابهم أجنبى دخيل . . .

ولأول مرة بعد قرون وقرون ، تتحرر مصر من الإقطاع ، فيستشعر كل غارس أنه فى أرضه يغرس ، ليجنى الثمرة لنفسه وأسرته وولده لا للسادة الإقطاعيين . . .

ولأول مرة يشعر أبناء النيل فى الشمال والجنوب أن لهم حكم أنفسهم وعليهم تبعات مستقبلهم ، ولهم دون غيرهم خيرات برهم وبحرهم ونيلهم وجوهم وجبلهم وصحرائهم ومنجمهم ، لا يشاركهم فى شىء من ذلك مشارك بغير إرادتهم ؛ لأنهم سادة أنفسهم ، وأصحاب الرأى فى كل ما يتصل بشئون وطنهم !...

ولأول مرة يقول الشعب صادقاً : أنا صاحب السيادة ومصدر السلطات . . .

* * *

هذه المكاسب العظيمة يجب أن نحميها ونصونها ونحافظ عليها . . .

ويجب أن نبذل لصيانتها والمحافظة عليها كل ما نملك من جهد وطاقة . . .

ويجب أن نحرص على انتهاز كل الفرص الممكنة للانتفاع بثمراتها . . .

ويجب أن نعمل — كما عمل آباؤنا وآباؤهم من قبلهم على تتابع الأجيال — لنضيف إلى هذه المكاسب العظيمة مكاسب عظيمة مثلها ، نتسع بها فى الحرية ، ونسمو فى الكرامة ، وننتفع بفرص العمل . . .

تلك هى تبعاتنا الجديدة ، وإننا لأهل للنهوض بها .

* * *

أما بعد ، فهذا كتاب يصف « طريق الحرية » الذى مشى فيه آباؤنا منذ قرون حتى انتهوا إلينا ، فما أجدرنا أن نحاول منذ اليوم أن نرسم الخطة لنؤلف كتاباً جديداً نسميه : « ما بعد الحرية » ! . . .

[signature]

وزير التربية والتعليم

(١)
الإمبراطورية المصرية

لم تخضع مصر لاحتلال أجنبي قط ، فعلى امتداد تاريخها الحافل بالمفاخر ، لم يستطع جيش أجنبي أن يقيم فيها آمناً إلا ريثما تستجمع قوتها ، فترمى به إلى البحر أو إلى البادية ؛ لتظل أبداً أمة حرة مستقلة ذات سيادة .

وقد ظلت منذ أشرق عليها الإسلام ، متميزة بشخصيتها بين سائر الدول الإسلامية ، تكاد عاصمتها — على تتابع الدول — تناظر عاصمة الخلافة العظمى فى «دمشق» و«بغداد» ، وكانت أول دولة إسلامية ظفرت باستقلالها ، منذ القرن الثالث ، فى عهد «ابن طولون» ، ثم فيما يليه من العهود ، حتى آل أمرها من بعد إلى أن تصير هى عاصمة الدولة الإسلامية ، حين انتقلت إليها الخلافة العباسية فى القرن السابع .

وكان ظل الراية المصرية — قبل ١٥١٧م — يخفق على بسيط فسيح من الأرض ، يمتد من جبال الموصل إلى ليبيا شرقا وغرباً ، ومن منابع النيل وباب المندب إلى البحر المتوسط جنوبا وشمالا ، راياتها خافقة ، وسيادتها محققة ، وأسطولها يمخر عباب البحرين الأبيض والأحمر ، فيصل بين شرق الأرض وغربها ، وبين شمالها وجنوبها ، فهى الدولة المرموقة ، صاحبة الجاه والعظمة والسيادة ، فى أرضها وفى كل ما يليها من بقاع الأرض .

لم تكن بريطانيا يومئذ إلا أمة بحرية صغيرة ، تحاول بأسطولها أن تكون ذات سلطان على بعض البلاد لتكسب رزقا لأهلها ، وسوقا لتجارتها ، ومناطق استغلال لأموالها وشبابها .

ولم تكن فرنسا إلا دولة ناشئة تحاول أن تكسب مجداً يمكن لها فى الأرض ، ولكن آمالها لا تكاد تمتد إلى أبعد مما يتاخمها من بلاد القارة .

ولم تكن إيطاليا وألمانيا إلا إمارات متفرقة متنازعة لا تكاد تجمعها وحدة ، والمطامع تتربص بها من يمين وشمال .

ولم تكن روسيا إلا دولة ضعيفة متأخرة قابعة وراء حدودها فى الأرض الباردة من أوروبا وآسيا ، لا يكاد يمتد لها أمل إلى ما وراء البحر الأسود .

ولم تكن أمريكا يومذاك إلا حقلا خصباً ، وأرضاً بكراً ، ومنجما مستغلا لطوائف من المهاجرين الأوربيين ، يحاولون بالغدر والحيلة أن يبيدوا الوطنيين فى تلك الأرض الجديدة ؛ ليتخذوها لأنفسهم وطناً بدلا من أوطانهم التى لفظتهم .

وكانت تركيا دولة إسلامية ناشئة ، قد أتاحت لها قوتها العسكرية أن تتسع فيما يتاخمها من أرض أوربا باسم الإسلام ، ولكنها على ما بلغت من الاتساع والعظمة فى تلك البقاع ، لم تكن تطمع فى مثل مكانة مصر العظيمة ، ذات السيادة الروحية الكبيرة فى كل بلد من بلاد الشرق ، وبلاد المسلمين .

(٢)
الغزو العثمانى

ثم بدا لتركيا أن تتوسع فى آسيا وإفريقيا على حساب جيرانها من العرب والمسلمين ، فاصطنعت أسبابا غير طبيعية للتحرش بمصر ، ولم يكن يقع فى وهم مصر يومئذ أن تركيا — الدولة الإسلامية الشقيقة — تريد بها شراً ، ولو أن شيئاً من هذا وقع فى وهمها يومئذ لاتخذت أهبتها لما ينتظر ، ولكنها كانت حسنة الظن بجارتها وشقيقتها إلى أبعد الحدود ، ولم تكن تركيا فى حقيقتها السياسية يومئذ جديرة بمثل هذه الثقة ؛ إذ كانت رغبتها فى التوسع والفتح تنسيها يومئذ واجبها للعرب والمسلمين ، وكانت تركيا ومصر جارتين ؛ إذ كانت حدود مصر الشمالية فى « لواء حلب » بالشام ، هى حدود الدولة العثمانية ذاتها .

وكانت تركيا تعلم أن قوة مصر لا تغلب ، فلابد لها من اصطناع الحيلة ؛ فاتخذت لها أصدقاء من بعض أمراء المماليك ، تؤامرهم ويؤامرونها ، فلما كان ما لا بد أن يكون ، ونشبت الحرب بين الجارتين فى « مرج دابق » شمالى حلب ؛ كان المتآمرون من المماليك من أقوى العوامل المؤثرة فى المعركة ، فانهزم الجيش المصرى بالحيلة والوقيعة والخداع ، وأتيح للجيش العثمانى أن يتقدم على غير انتظار ، فيحتل حلب والشام ، ثم يمضى فى طريقه إلى مصر .

ولم يقصر المصريون فى الدفاع عن حرية بلدهم وسيادته ، ولكن المفاجأة من ناحية ، والدسائس من ناحية أخرى ، قد أتاحتا للجيش العثمانى أن يغلب ، وأن يتقدم ، وأن يخترق حدود مصر حتى يبلغ القاهرة .

وأبلى المصريون كعادتهم بلاء شديداً فى الدفاع والمقاومة عن وطنهم ، وكان « طومانباى » صاحب عرش القلعة يومئذ يقود قوات المقاومة ببسالة نادرة ، لا يبالى الموت فى سبيل استنقاذ عرشه ، وحرية وطنه ، فلم يستسلم ، أو يضع سلاحه ، حتى سيق أسيراً بالغدر والخيانة إلى السلطان العثمانى «سليم الأول» ، فشنقه على «باب زويلة» فى سنة ١٥١٧ ، وصارت مصر ولاية عثمانية منذ ذلك التاريخ ، وفقدت استقلالها وحريتها ، وجثمت على صدرها جيوش الاحتلال آمرة ناهية متسلطة ، وجلس الباشا العثمانى على عرش القلعة يمثل السيادة العثمانية على البلاد التى لم يغلبها غالب من قبل على سيادتها وحريتها .

ومنذ ذلك اليوم بدأت مصر مرحلة كفاح مرير ؛ لتسترد استقلالها وسيادتها ، وتجلى العدو الغاصب عن أرضها .

(٣)

كفاح المماليك

كان أمراء المماليك إلى ماقبل ذلك التاريخ المشئوم ، يمثلون الطبقة الممتازة من المصريين ، إذ كان منهم السلاطين والأمراء والجباة ، وأصحاب السلطة والجاه ، فلما فقدت مصر استقلالها وغلبها العثمانيون على سيادتها ، شعر المماليك بواجبهم فى الدفاع عن الوطن الذى انتسبوا إليه ، وتمتعوا فيه من النعم بأعظم مايتمتع به ذو جاه وسلطة .

ولم يكن المصريون راضين كل الرضا عن هؤلاء الأمراء المماليك ، ولكنهم نظروا فرأوا هؤلاء العثمانيين الأجانب يحتلون بلادهم ، ويسلبونهم سيادتهم ، ورأوا هؤلاء المماليك يكافحون ليردوا لمصر سيادتها ، ويجلوا المحتل عن أرضها ، فلم تطب نفوس المصريين ببقاء هذا الاحتلال الأجنبى جاثماً على صدورهم ، وأملوا أن يستطيع هؤلاء الأمراء — وهم ذوو بأس وشدة وتمرس بالحروب — أن يتغلبوا على العثمانيين ويجلوهم عن أرض الوطن ، فطاب لهم أن يتركوا القوتين تتصارعان حتى يتفانوا وتنكسر شوكتهم جميعاً .

وظل أمراء المماليك يكافحون الاستعمار العثمانى بكل ما وسعهم من وسائل الكفاح ، حتى استطاعوا أن يخضدوا شوكة العثمانيين ويغلبوهم على السلطة فيستخلصوها لأنفسهم ، ولكن المطامع الشخصية التى كانت تفرق بين أولئك الأمراء كانت تظهر ذلك الكفاح فى صورة أخرى ؛ إذ كان

كل أمير لكل أمير عدواً ، ولكل منهم بطانة وحاشية ، وجيش وراية، وأمل يتطلع إليه ، ويتطلع إلى أنصاره معه ، فكانت وسائلهم فى المنافسة مقرونة بالعنف والقسوة ، وبالتخريب والتدمير ، وباختلال شديد فى الأمن العام ، ففقدت البلاد فى تلك المرحلة استقرارها وأمنها وطمأنينتها ، حتى آل الأمر من بعد إلى أن يكون الأمراء المصريون أشد وبالا على مصر من المستعمرين العثمانيين .

على أن كفاح المماليك خلال هذه الفترة الطويلة لم يكن كله على ما وصفنا من الاختلال والتفرقة وسوء النتيجة ، فقد حدثت خلال تلك السنين بعض محاولات موفقة لكفاح متحد ، أوشك أن ينتهى بطرد المحتلين العثمانيين، وقد ظهر ذلك بوضوح فى عهد المملوك «على بك الكبير»؛ إذ استطاع بقوته وحزمه وسلطانه على الأمراء من حوله ،أن يوحدهم جميعاً تحت رايته ؛ ليحارب بهم الإمبراطورية العثمانية ، وأن يطاردها إلى ما وراء حدود مصر ثم إلى ما وراء حدود الشام ، ولكنه لم يكد يبلغ هذه المرحلة حتى بدأت الدسائس العثمانية تنسج خيوطها مرة أخرى ، وتدس دسيسها إلى أمراء جيشه ، فتفرق وحدتهم ، وتفل عزمهم ، فإذا الجيش يرتد بعد تقدم ، وإذا «على بك الكبير» — وقد أوشك أن يعيد الإمبراطورية المصرية إلى ما كانت قبل الغزو العثمانى — يسقط قتيلا بطعنة مملوكية غادرة ؛لتعود تركيا مرة أخرى صاحبة السلطة والسيادة فى مصر !...

ثم عادت محاولات الكفاح المتفرقة المتنازعة مرة أخرى ، كما كانت قبل عهد «على بك الكبير » ، تحت رايات شتى ، وعادت سنابك خيل المماليك — فى سبيل مكافحة العثمانيين على السلطة — تطأ جماجم المصريين ، وتسفك دماءهم ، وتهتك ستورهم ، وتجددت المظالم بتجدد مطامع الأمراء ونزاعهم على السلطة !...

(٤)

الغزو الفرنسى

وكانت فرنسا فى ذلك التاريخ تخط لنفسها تاريخاً جديداً ، بعد أن نجحت ثورتها الداخلية وأكسبتها فى العالم مجداً وشهرة ، فتطلعت إلى غزو مصر لتزداد مجداً وشهرة . . .

وكأنما تذكرت فرنسا فى ذلك التاريخ ماضياً بعيداً بينها وبين مصر يرجع إلى بضعة قرون خلت ، ذلك حين حاول ملكها « لويس التاسع » على رأس قوة صليبية أن يحتل مصر ، فى آخر عهد الأيوبيين ، فهزم المصريون جيشه ، ومزقوا رايته ، وجندلوا أبطاله وقادته ، واقتادوا « الملك لويس التاسع » نفسه أسيراً إلى دار « ابن لقمان » بالمنصورة ، فلم يطلقوا سراحه إلا بعد أن افتدى نفسه بمال وتعهد ألا يعود . . .

كأنما تذكرت فرنسا ذلك الماضى ، فرأت الفرصة سانحة لتثأر لكرامتها ولملكها ولتحقق أمنية كانت تراودها منذ التاريخ البعيد ،

تسيرت حملة بحرية بقيادة « نابليون بونابرت » إلى مصر . . .

وجاء نابليون بجيشه ، والمماليك فى منازعاتهم الداخلية ، فانتبهوا فجأة ، فإذا جيش احتلال جديد يطأ أرض مصر ، ولم يجل عنها جيش العثمانيين بعد . . .

وكان الشعب المصرى يؤمن بقوة أمراء المماليك وشدة بأسهم ، وبأن جيش فرنسا لايمكن أن يثبت أمامهم فى معركة ، ولكن جيش المماليك لم يلبث أن انهزم أمام الفرنسيين ، ودارت عليه الدائرة فى «موقعة امبابة » ، وتفرق أعوانه وجنده أباديد فى صحراء الجيزة ، حينذاك أيقن الشعب أن الأوان قد آن ليضطلع بعبء الدفاع عن وطنه ، بعد أن فقدت ثقته بقدرة المماليك على الكفاح . . .

وكثيراً ما تكون بعض الهزائم سببا لنصر عظيم ، وقد كانت هزيمة المماليك فى معركة امبابة أمام قوات الغزو الفرنسى سببا ليقظة الشعب المصرى وتهيئته للمعركة الكبيرة ، فقد آمن يومئذ بأن دوره قد حان ليكافح عن حريته معتمداً على نفسه مؤمناً بقوته ، باذلا كل ما يملك فى سبيل تحرير أرض الوطن من الاحتلال الأجنبى . . .

ولأول مرة فى تاريخ الكفاح المصرى ، ترددت أسماء الزعماء من أبناء الشعب على الألسنة ، فبرز اسم «السيد محمد كريم» ، «والسيد عمر مكرم» و«الشيخ السادات» ، و«الشيخ الشرقاوى» ، و«السيد حسن طوبار» ، و«السيد المحروق» ؛ وأسماء أخرى من الطبقات العليا والطبقات الدنيا

على السواء وهب الشعب كله لمقاومة الاحتلال الفرنسى . . .

ولأول مرة كذلك احتفل التاريخ بوصف المعارك الطاحنة التي خاضها المكافحون من أهالى « بولاق » و« الحسينية و« باب الشعرية » « والرميلة » و« قلعة الكبش » ، فأصابوا الفرنسيين بالويل والنكال ، وأشعروهم بأن إقامتهم فى مصر أمل بعيد المنال !...

واستطاع المصريون بالعصى والفؤوس وبالسكاكين وقذائف الحجارة ،وبالخنادق المحفورة ، وبالمتاريس المقامة من أنقاض الدور ، أن يتغلبوا على قذائف المدافع الفرنسية ، وأن يردوا المعتز المحتل بقوته على أدباره منهزماً قد طار قلبه من الخوف ، وطار عقله من الدهشة . . .

ولم تكن مقاومة المصريين فى القاهرة وحدها ، بل امتدت إلى كل مكان وصل إليه الفرنسيون من مصر .

والتفت العالم كله إلى مصر مدهوشا ، وأيقنت فرنسا وغير فرنسا من شعوب العالم أن الشعب المصرى الذى صنع المعجزات فى ماضى التاريخ ، لم يزل قادراً على أن يصنع المعجزات فى حاضر التاريخ وفى مستقبله كذلك . . .

وكان هتاف المصريين يومئذ هو :

الجلاء والسيادة . . لا فرنسيين ، ولا عثمانيين ، ولا مماليك ، نريد الجلاء والحرية !...

ورسمت مصر خطة المستقبل منذ ذلك اليوم البعيد . . .

ورأى الفرنسيون أن لا بقاء لهم بعد اليوم فى مصر ، فركبوا سفائنهم عائدين إلى بلادهم بعد أن تركوا على ثرى مصر آلافا من القتلى وبعد أن أثبت المصريون بكفاحهم الباسل أنهم أهل للحرية وللسيادة ...

(٥)

ظهور محمد على

وكان الباشا العثمانى خلال ذلك كله لم يزل مرابطاً فى قصر القلعة ، ولم يزل الجيش العثمانى رابضاً فى ثكناته حول القلعة ، ولم تزل الآمال تداعب رءوس المماليك وتوهمهم أنهم قادرون على العودة إلى الحياة السياسية العامة ، ليتحكموا فى الجماهير ويتصرفوا فى شئون السياسة .

ولكن الشعب كان قد اكتشف نفسه منذ هزيمة المماليك أمام الفرنسيين فى « معركة امبابة » ، فآمن بقوته ، وبقدرته على أن يكون هو وحده صاحب السيادة ، فلن يستطيع الباشا العثمانى ولا المماليك أن يغلبوه على سيادته بعد اليوم ...

وصعد زعماء الشعب إلى قصر القلعة ليرفعوا مطالب الشعب إلى الباشا العثمانى ، ولكن الباشا العثمانى كان لم يزل غارقا فى أحلام الماضى ، يحلم بالسلطة والسيادة ، ويرى من حقه أن يحكم بأمره لا بأمر الشعب ،

فنشأ سبب جديد من أسباب النزاع بين الشعب وممثل جيش الاحتلال ، وبدرت بوادر ثورة شعبية جديدة ، وكان لابد أن تنتهى هذه الثورة إلى غايتها فينزل الباشا العثمانى عن كرسيه ؛ لأن الشعب لايريد أن يخضع لحكمه .

ومن شرفة بيت القاضى فى حى الجمالية ، وقف «السيد عمر مكرم» ، زعيم الشعب ، ليخطب فى الجماهير هاتفا : لا عثمانيين بعد اليوم ، لامماليك ، الشعب وحده صاحب السيادة ! ...

فيتردد وراءه هتاف الجماهير صاعداً إلى عنان السماء ، وتتردد أصداؤه من أقصى الوادى إلى أقصاه .

وزحفت جموع الشعب إلى القلعة تطالب الباشا العثمانى بالنزول عن عرشه ، وكانت الأمارات كلها تدل على أن العاقبة للشعب . . .

فى تلك اللحظة ، ظهر فى ميدان السياسة المصرية أفاق جديد ، اسمه «محمد على» . . .

لم يكن «محمد على» هذا مصرياً ، ولا عثمانياً ، ولا مملوكيا ، بل لم يكن له عرق يمت إليه .

كان جندياً مرتزقاً ينتسب إلى «قولة» ، فى «ألبانيا» ، من بلاد الإمبراطورية العثمانية ، فلم يزل يترقى فى رتب الجيش حتى بلغ أن يكون ضابطاً من كبار ضباطه ، فرمت به الدولة العثمانية مصر ، فجاءها

والخواطر تصطرع على ما وصفنا ، فرأى الفرصة سانحة ليكسب مجداً في البلد الذى اشتهر منذ قرون بأنه يصنع السلاطين .

ووقف محمد على يرقب الحوادث من بعيد ، ويختبر القوى المختلفة ، فرأى قوة الشعب هى الغالبة ، فآثر أن ينضم إلى الشعب ليغلب مع الغالبين . . .

واستمع إلى « السيد عمر مكرم » وهو يهتف فى الجماهير : لا عثمانيين ، لا مماليك ، الشعب وحده صاحب السيادة . . .

فهتف « محمد على » مع الهاتفين : لا عثمانيين ، لا مماليك ، الشعب وحده صاحب السيادة ! ...

والتفت الشعب فرأى « محمد على » ضابط الفرقة الألبانية فى الجيش العثمانى يهتف هتافه ويدعو دعوته ، فصفق له والتف حوله . . .

وكسب « محمد على » الجولة الأولى ، وبدأ اسمه يتردد على أفواه المصريين .

وجلس « محمد على » مع ربيبه « إبراهيم » يؤامره : يا ولدى ، هذا شعب طيب ، نستطيع أن نكسبه ونكسب به ، فتتحقق لنا الإمارة والسلطة فى البلد الذى يصنع السلاطين !...

قال « إبراهيم » : يا أبى إن أمر الشعب اليوم فى يد « السيد عمر مكرم » ، فليس لنا سبيل إلى ما نريده إلا إذا كسبنا ثقة الزعيم « عمر مكرم » !

وأصبح الناس ذات يوم ، فرأوا « محمد على » قائد الفرقة الألبانية فى

جيش الاحتلال العثمانى يسعى إلى دار « السيد عمر مكرم » ، وفى ركابه ربيبه «إبراهيم» .

وجلس محمد على وإبراهيم بين يدى الزعيم الشعبى الطيب القلب ، متخشعين خاضعين ، ليعلنا له الولاء والطاعة ، والإيمان بحق الشعب فى السيادة . . .

وألف الناس منذ ذلك اليوم أن يروا « محمد على » سائراً فى ركاب « السيد عمر مكرم » ، يقف إذا وقف ، ويمشى إذا مشى ، ولا يجلس إلا إذا أذن له الزعيم فى الجلوس . . .

ولم يكن «محمد على» يخاطب الزعيم إلا بقوله ؟ يا سيدى ومولاى ... وكان يركع بين يديه محيياً كلما أقبل عليه ؛ كأنما يهم بتقبيل يده ، كما تقبل العامة يده ، ولكن «السيد عمر مكرم» لم يكن يرضى أن يقبل محمد على يده!

ووثق «عمر مكرم » بمحمد على ، ووثق به الشعب ؛ لأن زعيمه يثق به .

ونجح «محمد على » فى الجولة الثانية ، وصار بطلا من أبطال الشعب . ذلك الألبانى الأفاق ، الذى لا يعرف له عرق يمت إليه . . .

وخلا « محمد على » مرة أخرى إلى ربيبه « إبراهيم » يؤامره : يا ولدى ، إننا لنستطيع أن نغلب هذا الشعب الطيب على إرادته ، لو أننا عرفنا من أين نبدأ . . .

قال « إبراهيم » : فإننا نحسن البدء يا أبى لو أن الشعب طلب إلى

السلطان فى استانبول أن يخلع الباشا ، لتكون أنت مكانه ممثلا للسلطنة العثمانية فى « قصر القلعة » . . .

واجتمع زعماء الشعب فى دار « السيد عمر مكرم » يداولون الرأى بينهم فى أمر خطير من أمور السياسة العليا ، وقال قائلهم : إن كان لا بد أن تبقى السيادة العثمانية على مصر رمزاً لوحدة المسلمين ودليلا على التفاهم حول دول الخلافة ، فليكن ممثل السياسة العثمانية رجلا منا ، نثق به ونعتمد عليه ، ويكون اختياره برأينا . . .

قال « السيد عمر مكرم »: فانظروا من تختارونه ليكون والياً عليكم بعد أن ينزل الباشا العثمانى من قصر القلعة !

وخفق قلب «محمد على» ، ولكنه كان على ثقة من النتيجة ... لقد كان يعرف على اليقين أين بلغ من المنزلة بدهائه وحيلته فى قلوب الشعب ، فلم يكد السيد عمر مكرم يسأل سؤاله حتى صاح الزعماء جميعاً : نريد أن يكون محمد على هو والينا !

وطأطأ « محمد على» رأسه . قال بعض المؤرخين : إنه طأطأه خجلا ، وقال آخرون : إنما طأطأه ليدارى ابتسامة خبيثة كانت تلوح على شفتيه حين أيقن أن حيلته قد نجحت . . .

ومد « السيد عمر مكرم » يده ليضعها فى يد « محمد على » وهو يقول له : نبايعك باسم الشعب على أن تكون والياً على مصر من قبل

الخليفة العثمانى فى « استانبول » ، فهل تبايعنا على أن يكون حكمك باسم الشعب ، وللشعب ، وعلى مقتضى الشعب ؟

فتمنع « محمد على » وتململ فى مجلسه كأنما يريد أن يقول بغير لسان : أعفونى من هذه المهمة . ولكنها لم تكن إلا حركة تمثيلية بارعة تخفى وراءها شهوة بعيدة إلى السلطة وإلى التحكم وإلى انتهاز الفرصة للاستعلاء . . .

وألح عليه الشعب أن يقبل ، فقبل والدموع تترقرق فى عينيه . . .

قال بعض أهل الغفلة من المؤرخين : إنها دموع الخوف من الأعباء الثقيلة التي تلقيها عليه هذه الثقة ، ويطالبه بها المنصب !

وقال أهل الحذق والدراية : بل هى دموع التماسيح !

وجلس زعماء الشعب يكتبون الوثيقة إلى السلطان :

« باسم الشعب يجب أن يخلع الباشا العثمانى ، وأن يكون والينا هو محمد على ! »

وبلغ الرسل بالوثيقة مجلس الخليفة فى استانبول ، فلم يجد بدا من النزول على إرادة الشعب .

وصار « محمد على » واليا على مصر باسم الشعب . . .

ولكن « محمد على » لم يكد يجلس على العرش فى قصر القلعة حتى نسى كل ما عاهد عليه الشعب ، فأخذ يحكم باسمه لا باسم الشعب ، ولمصلحته ومصلحة أسرته لا لمصلحة الشعب .

الضرائب تجبى باسمه ولخزانته .

والأرض تنزع من أصحابها لتوزع على بطانته .

والغلات الزراعية تؤخذ من زارعيها غصباً لتكون بضاعة محتكرة لتجارته .

ويهم « السيد عمر مكرم » أن يعترض ، فيرسل إليه محمد على الجند ، فيقبضون عليه ليذهبوا به إلى منفاه فى دمياط ، ثم طنطا ، فلا يفارق محبسه إلا جثة محمولة على نعش !

بالغدر والحيلة قتل « محمد على » المماليك فلم يبق أحداً منهم .

وبالغدر والحيلة والإرهاب كمم أفواه المصريين فلم يسمح لأحد أن ينبس ببنت شفة .

واستتب له الأمر ، وخفتت أصوات المعارضة فلا يتكلم الناس إلا همساً أو من وراء حجاب ، وأتباعه ومماليكه ينعمون بالجاه والمجد ، وبالسلطة والمال . . .

ولم يقنع محمد على بما بلغ ، فأخذ يدبر أمره ليكون عرش مصر تركة موروثة لأسرته ، ولم تجد الدولة العثمانية بداً من الموافقة ؛ فقد كانت جيوش محمد على تهدد كيان الدولة العثمانية ، وكان اعتراف السلطان بحق أسرة محمد على فى وراثة عرش مصر ، هو الثمن الذى يطلبه محمد على لتجلو جيوشه عن أرض الدولة !

وكانت مصر ولاية عثمانية ، فصارت ضيعة مستغلة لأسرة محمد على .

وكان المصريون يطالبون بجـلاء الجيوش العثمانية لتنعم مصر بالخلاص والحرية ، فجلت ، ولـكن ليحتلها محمد على فلا تنعم بشيء من نعمة الخلاص والحرية . . .

وكانوا يطالبون بإقصاء المماليك عن السلطة ليصير أمر الشعب إلى الشعب ، فأقصاهم محمد على ليجلب مماليك آخرين يمنحهم السلطة الطاغية على الشعب !...

وكانوا يطالبون بالسيادة والحرية ، فانتقلت سيادتهم وحريتهم إلى يد «محمدعلى» . . .

وقال المصريون بعضهم لبعض : أمن أجل هذا ثرنا ثورتنا ؟...

من أجل « محمد على » وأسرته أم من أجل الشعب ؟

فأجاب مجيبهم : هذا صنعناه بأيدينا ؛ لأنا وثقنا برجل ليس منا !

(٦)

خلفاء محمد على

وطال عهد محمد على على عرش مصر حتى شاخ وخرف ، ولـكن بعد أن انتقلت السلطة إلى ربيبه إبراهيم ، ثم ولى العرش عباس ، وسعيد، ثم جاء — بعد سعيد — إسماعيل بن إبراهيم ، والسياسة المصرية دائرة فى الفلك الذى رسمه محمد على ، والشعب صابر على ضجر وضيق ، يتحين

الفرصة الملائمة ليثور ثورة حاطمة يخلع بها عن رقبته هذا النير ويحقق لنفسه السيادة والحرية .

وأغرق «إسماعيل» فى شهواته وفى مباذله، وغلا فى جمع المال وفى إنفاقه، وأسرف فى تسخير المصريين لمآربه ، وبالغ فى النفقة حتى استدان ، فوضع فى عنق البلاد غلا جديداً يقودها منه أصحاب الديون الأوربيون إلى الهاوية .

وبلغ الضيق بالمصريين كل مبلغ ، ولكنهم لم يكونوا يملكون قوة ولاحيلة ، فظلوا صابرين على الضجر والضيق ، حتى تتاح لهم الفرصة للثورة الحاطمة التى تكسر عنهم هذه الأغلال ، ولم يزل إسماعيل فى سفهه وسرفه ، حتى خلعه عن العرش سفهه وسرفه ، فتولى العرش من بعده ولده توفيق .

بضع وسبعون سنة مضت منذ جثمت هذه الأسرة البغيضة على صدر مصر ، يتوارثونها سفيهاً بعد سفيه ، حتى انتهت إلى ذلك السفيه المأفون الذى سول له سفهه وأفنه أن يقول علانية : هذه ضيعتى وأولئك عبيدى ! ...

ولم تكن مصر فى يوم من الأيام ضيعة لأحد ، ولم يكن أهلها فى يوم من الأيام عبيداً لسيد ، فقد آن الأوان إذن ليرد الشعب : هذه ضيعتى وأولئك عبيدى ! ...

(٧)

ثورة عرابى

وكان أول من رفع صوته وجرد سيفه باسم مصر محتجاً على هذه المظالم ، هو « أحمد عرابى » .

وكان « أحمد عرابى » هذا ضابطاً فى الجيش المصرى ، وقد رأى سوء حالة مصر فى ذلك العهد ، وارتفاع شأن الأجانب فيها ، وتدخلهم المستمر فى شئونها ، وضعف الخديو وانقياده لشهواته ، وخضوعه للأجانب وتقديمه لهم على المصريين .

وكان كبار ضباط الجيش المصرى جميعا فى ذلك الوقت من الترك والشركس ، ليس فيهم مصرى واحد ؛ إذ كان لا يؤذن للضباط المصريين فى الارتقاء إلى أكثر من رتبة قائمقام ، وكان أولئك الضباط الكبار من «الشركس» والترك يستبدون بالمصريين استبداداً عنيفاً مهيناً ، فعز على « أحمد عرابى » أن يرى هذه الحال ، واتفق مع بعض زملائه من الضباط المصريين على أن يفعلوا شيئاً لينقذوا وطنهم من هذا الهوان ، فكتبوا مذكرة وتقدموا بها إلى الخديو يطلبون فيها إصلاح الحال ، فكان جواب الخديو على ذلك أن ألقاهم فى سجن قصر النيل ، فزحفت فرق الجيش على قصر النيل ، فأطلقت سراحهم رغم أنف الخديو . . .

كانت هذه الحادثة هى الشرارة الأولى التى التمع ضوؤها فنبه المصريين

إلى ما يملكون من قوة يستطيعون بها أن يكونوا سادة فى بلادهم ، وأن يرغموا المستبدين الطغاة على الخضوع لمشيئة الشعب . والتف الشعب كله حول « عرابى » ، وأنابه عنه فى الدفاع عن مطالبه .

وكان يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ هو اليوم الموعود ليرفع عرابى مطالب الشعب إلى الخديو ، فاجتمعت فرق الجيش المصرى بقيادته وقيادة زملائه الضباط الأحرار ، فى ساحة عابدين ، ليطلبوا إلى الخديو باسم الشعب ، أن يرد إلى الأمة سيادتها ، فيعزل الوزراء الخونة ، ويتحرر من سيطرة الأجانب ، ويولى وزارة وطنية ، وينشىء برلماناً يراقب تصرفات الحكومة ويشير عليها ، ويرسم لها الطريق الصحيح إلى الحكم .

ولم يجد الخديو بداً من النزول على إرادة الشعب ، فعزل الوزراء الخونة ، وتظاهر بالتحرر من سلطة الأجانب ، وولى وزارة وطنية ، ووعد بإنشاء « البرلمان » .

ولم يلبث « أحمد عرابى » أن صار وزيراً للحربية ، بعد أن كان وزير الحربية تركياً لا يمت إلى المصريين بنسب ، ، وصار رئيس الوزارة ضابطاً مصرياً آخر من أنصار «أحمد عرابى» ، هو «محمود سامى البارودى» ، بعد ن كانت رئاسة الوزارة وقفاً على الترك والشركس ، أو الأرمن الذين لا يمتون إلى المصريين بنسب ولا عقيدة .

وهكذا انتصرت الحركة الشعبية على طغيان الخديو ، وخطت مصر خطوة عظيمة إلى الأمام فى سبيل تحقيق الجلاء والحرية ، وهما المطلبان اللذان عاقها عن بلوغهما « محمد على » منذ بضع وسبعين سنة .

(٨)

الاحتلال البريطانى

وكانت «بريطانيا» و«فرنسا» وغيرهما من الدول الأوربية ، تنظر إلى مصر من بعيدوتنتظر أن تتاح لها الفرصة لاحتلال هذه البلاد الغنية ، فلما نجحت الثورة العرابية واستطاعت أن تقهر الخديو وتذله ، رأت بريطانيا الفرصة سانحة لتلقى شباك الصيد .

وكان « الخديو توفيق » وأعوانه يرتجفون فى ذلك الوقت من شدة الخوف ، فقد استيقنوا يقظة الشعب ، وعرفوا أن آخرتهم قد قربت ، وأنهم إن لم يفعلوا شيئاً ليحموا به أنفسهم فلا بد من أن يغلبهم الشعب على ما فى أيديهم من السلطة والجاه ، فيبعدهم عن مصر أو يسلبهم الحياة .

كانوا يعرفون هذا معرفة اليقين ؛ فقد انتصر عليهم « أحمد عرابى » بقوة الشعب ، فأخذوا يبحثون عن قوة أخرى يستندون إليها ؛ ليحفظوا لأنفسهم الجاه والسلطة والسيادة ، فلم يجدوا غير بريطانيا ملجأ وسندا .

وهكذا تحالف توفيق وأعوانه مع الإنجليز أن يحفظوا له العرش فيحقق لهم أمنيتهم فى مصر ، وأخذوا من يومئذ يعملون متعاونين لتحقيق الغاية المشتركة التى تعاهدوا عليها . ودبرت بريطانيا تدبيرها للتدخل ، واصطنعت لذلك سبباً . ففى يوم من أيام شهر يونيو سنة ١٨٨٢م ، دبرت عراكاً بين مالطى من رعاياها ، وحمار مصرى من أهالى «الإسكندرية» ؛ ثم جعلت هذا العراك سبباً للمطالبة بحق التدخل ؛ لحماية الأجانب من عدوان المصريين ، فلما أبى المصريون هذا التدخل ، بدأت تتحرش بمصر ،

وصوبت مدافع الأسطول البريطانى إلى الإسكندرية متحفزة للوثوب إلى البر ، ثم أطلقت قذائفها على المدينة الآمنة فدمرتها تدميراً ، وأشعلت فيها النار ، ونزل جنودها إلى البر ليحتلوا مصر .

كانت هذه الحادثة أذاناً بابتداء الحرب بين مصر وبريطانيا ، وانضم الخديو توفيق إلى الإنجليز ليضمنوا له البقاء على العرش ، ونشبت المعارك بين المصريين والبريطانيين فى « دمنهور » و« كفر الدوار » ، وكان النصر لمصر ، وأيقنت بريطانيا — وقد رأت الشعب كله يهب وراء عرابى للدفاع عن وطنه — أنها لن تصل إلى ما تريد إلا بالخداع والحيلة أو بالخيانة والرشوة وآزرها توفيق فى خطتها ، فأرسل رسله يخذلون المصريين عن مناصرة «عرابى» ، كما آزرها « فردناند دلسبس » الفرنسى ، فسمح لأسطولها بالمرور من قناة السويس ؛ لتهاجم القوات المصرية من الشرق .

وهوجم جيش « عرابى » على غرة فى «التل الكبير » ، فلم يستطع المقاومة ، وبذلك انفتح الطريق أمام الجيش البريطانى ليدخل القاهرة زاحفاً من الشرق ثم قبض على أحمد عرابى وزملائه ، وسيقوا إلى المحاكمة ، ثم أبعدوا عن مصر ؛ ليعيشوا غرباء فى بعض جزائر الهند .

وبهذا تم لبريطانيا احتلال مصر كما كانت تتمنى منذ بعيد ، وتم لتوفيق الاستقرار على العرش كما كان يتمنى كذلك . وعاش المصريون فى الظلام بين الاحتلال البريطانى ، والاستبداد الخديوى ، وفقدت مصر مرة أخرى استقلالها وسيادتها ، ولكن الشعب لم يذل ، وظلت النار كامنة تحت الرماد تنتظر الفرصة المواتية لاستئناف الكفاح ! ...

(٩)

يقظة الرأى العام

خيم الظلم والظلام على البلاد ، وخيل إلى الإنجليز أن هذا الشعب لن تقوم له قائمة بعد ، وأن أرض مصر قد صارت ضيعة بريطانية ، لها غلتها وثمراتها إلى الأبد ، لا ينازعها فيها منازع ، وخيل إلى توفيق أنه بمحالفة الإنجليز على البلاد التى آوته وغذته ومنحته الحياة والعظمة كما منحت أسلافه من قبل ، قد ضمن عرش مصر له ولأسرته كذلك .

ولكن الشعب كان ينظر صامتاً وهو يفكر ويدبر ، فلا يكاد مصريان يلتقيان حتى يتهامسا : متى الخلاص ؟ ... وكيف ؟ ...

وظلت الثورة كامنة فى كل قلب ، وزعماء الحركة الفكرية يعملون دائبين لإذكاء الروح الوطنية وإنضاج الوعى ، ليهيئوا النفوس ليوم قريب أو بعيد يظفر فيه الشعب بحقه فى الجلاء والحرية والسيادة .

وظهر « مصطفى كامل » بنشر الدعوة بين الشبان فى مصر ليتهيئوا ليوم الكفاح ، وينشر الدعوى بين السياسيين فى أوربا ليفضح صنيع بريطانيا بأعرق شعب فى التاريخ .

وظهر « محمد عبده » يكافح سراً وعلانية ، بلسانه وقلمه فى المحافل العامة والخاصة ، من أجل تحقيق حرية بلاده .

وظهر « عبد العزيز جاويش » ، و « محمد فريد » ، ودوت أصوات الهاتفين بالحرية على كل منبر .

واستعرت نار الثورة بين الضلوع ، وصارت دعوى الحرية على كل لسان .

(١٠)

فضيحة دنشواى

وقلقت بريطانيا وأخذت تدبر تدبيرها ، وخيل إليها أنها تستطيع بالإرهاب والبطش أن تقضى على روح الكفاح ، فانتهزت فرصة ، مات فيها بريطانى فى قرية من قرى مديرية المنوفية اسمها « دنشواى » من ضربة شمس ، فادعت أن أهالى تلك القرية هم الذين قتلوه ، ثم نصبت لهم المشانق ، وعلقت بضعة رجال منهم على المشنقة ، وأولادهم وزوجاتهم ينظرون ، لتملأ قلوب المصريين رعباً وفزعاً ، ولكن هذه الجريمة الوحشية كانت كالزيت ينصب على النار فيزيدها اشتعالا ، فتأججت نار الثورة فى النفوس بدل أن تنطفىء ، وخسرت بريطانيا عطف الرأى العام العالمى ، فعدلت عن تلك الوسيلة لتصطنع وسائل أخرى لمقاومة الشعور الوطنى فى البلاد .

(١١)

الحرب العالمية الأولى

وظلت بريطانيا إلى سنة ١٩١٤ تزعم أنها لم تحتل مصر إلا لتحمى صاحب العرش فيها ، ولتضمن سلامة الأجانب ، وأنها لا بد أن تجلو عن مصر حين تستقر الأمور فى البلاد . كانت تقول هذا بلسانها خداعاً للمصريين ، وخوفاً من معارضة الدول التى تطمع مثلها فى مصر ، ولكنها تخفى فى نفسها وراء ذلك غرضاً آخر ، هو أن تملك مصر إلى الأبد .

وكانت الدولة العثمانية ما تزال تعتبر نفسها صاحبة الولاية الشرعية على مصر ، فلما نشبت الحرب العالمية الأولى فى تلك السنة (١٩١٤) وكانت تركيا فى هذه الحرب عدوا لبريطانيا ، رأت بريطانيا الفرصة سانحة لتحقق الأمل الذى تأمله منذ سنين ، فاتخذت هذه الحرب بينها وبين الدولة العثمانية حجة ، لتعلن حمايتها على مصر ، وخافت أن يغضب المصريون لهذا ، فزعمت أن هذه الحماية مؤقتة تنتهى بانتهاء الحرب .

وكانت ظروف الحرب لا تسمح لمصر أن تتخذ خطة إيجابية لمقاومة هذه الحماية المفروضة عليها رغم أنفها ، فصبرت حتى تجد الفرصة المواتية لتستأنف المقاومة .

(١٢)

ثورة سنة ١٩١٩

وانتهت الحرب فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ فلم يمض على انتهائها أكثر من ٤٨ ساعة حتى كان فى دار المعتمد البريطانى فى القاهرة ثلاثة من زعماء المصريين ، يقدمهم الزعيم « سعد زغلول» ، ليطلبوا إلى ممثل بريطانيا إنهاء الحماية ، والاعتراف باستقلال مصر .

كان ذلك فى يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ وهو اليوم الذى سمى فيما بعد : عيد الجهاد الوطنى . وظنت بريطانيا أنها تستطيع بالخداع والحيلة، أو بالإرهاب والبطش ، أن ترد المصريين عن إرادتهم ، فأخذت تماطل وتسوف ، لتصرف المصريين عن غايتهم، ولكن«سعد زغلول »لم ينخدع فأخذ ينشر أفكار الثورة فى البلاد ويحشد العزائم للكفاح ، وشعرت بريطانيا بهذا ، فاعتقلت « سعد زغلول » وأصحابه ، وأبعدتهم إلى جزيرة «مالطة» .

حدث هذا فى مارس سنة ١٩١٩ ، فلم يمض على اعتقال سعد وصحبه إلا ساعة ، حتى نشبت الثورة فى كل ركن من أركان البلاد : فى «القاهرة» ، وفى «الإسكندرية» ، وفى «طنطا» ، وفى« كفر الشيخ» ، وفى «زفتى» ، وفى «الجيزة» ، وفى «بنى سويف» ، وفى «أسيوط» .

ونشبت المعارك الدامية فى كل مدينة وقرية ، فتخضبت الأرض بالدماء ، وحفرت الخنادق فى كل شارع ، وتعطلت كل وسائل المواصلات ، وأقفلت دواوين الحكومة ، وصار كل جندى بريطانى يخرج إلى الطريق منفردا عرضة للموت ، وعبق ريح البارود فى كل جو ، وامتلأت الطرق بجثث القتلى من البريطانيين وأشلاء الضحايا من الوطنيين ، واندفعت النيران تأكل كل ما فى طريقها فلا تبقى ولا تذر ، ووضح لكل ذى عينين أن مصر قد وضعت قدمها على أول طريق الحرية .

واعترفت «بريطانيا» بالهزيمة . ورأت من واجبها لنفسها أن تعمل شيئاً لتهدئة المصريين . فأطلقت سراح «سعد» . وأعلنت عن استعدادها للمفاوضة مع «مصر» لتحقق ماتستطيعه من أمانى المصريين .

(١٣)

الدستور والبرلمان

وخلا «فؤاد بن إسماعيل» إلى ممثلي جيش الاحتلال البريطاني يؤامرهم ويؤامرونه ، كما كان يؤامرهم أخوه توفيق من قبل ، وقال له البريطانيون أو قال لهم : لو أننا منحنا الشعب دستوراً أو برلماناً ، وجعلنا له حكومة نيابية ، لدبت أسباب الخلاف بين الزعماء ، وأكل بعضهم بعضاً ، فلا يحمل همّ أحد منهم بعد ذلك ! ...

وابتسم فؤاد ، وابتسم ممثلو بريطانيا ، وأذيع على الشعب فى يوم من أيام سنة ١٩٢٣ أن الملك فؤاداً قد قرر أن يمنح الشعب دستوراً ، وبرلماناً ، وحكومة نيابية ، فهلل الشعب فرحاً ، وجازت عليه الحيلة .

وحان ميعاد الانتخاب للبرلمان ، فتقسم المصريون أحزاباً وشيعاً ، كل شيعة تدعو إلى انتخاب صاحبها ، وتطعن فى كفاية غيره ، وبذرت بذور الشحناء فى القلوب .

وفاز فى أول انتخاب المرشحون من أصحاب سعد زغلول ، وأخفق غيرهم من المرشحين ، فزادت العداوة شدة وحدة بين حزب الفائزين وحزب المنهزمين .

وتولى «سعد زغلول» رياسة الحكومة ، وكان قبل أن يتولاها زعيماً

شعبياً محبوباً ، لا يكاد يتوجه إليه نقد ولا ملامة ، فلما صار رئيساً للحكومة ، كسب العداوات التى لا بد أن يكسبها كل حاكم . ففقد كثيراً من صفات الزعامة المحبوبة ، وصار فى نظر كثير من المصريين حاكماً ككل الحكام ، ليس له قداسة الزعيم الوطنى ، الذى يأمر فيطاع ، ويدعو فتحتشد وراءه الملايين .

ودائماً ، فى أعقاب كل معركة انتخابية ، يحس النائب الفائز أن عليه لناخبيه ديناً يجب أن يؤديه ، ليكافئهم على ما بذلوا من أجله ، وليضمن استمرار تأييدهم له . وعلى هذه القاعدة شعر كل نائب منتخب أن لناخبيه عليه ديناً ، وهو فى أكثر الأحوال دين أدبى ، ولكن أداءه فى أكثر الأحوال أيضاً يجب أن يكون شيئاً مادياً ، والشىء المادى الذى كان يستطيعه النواب فى تلك الظروف ، هو أن يتوسطوا لبعض ناخبيهم فى الوظائف ، أو فى الحصول على منافع من قبل الحكومة ، وهكذا انفتح باب المحسوبية بتعيين الأنصار فى المناصب ، وإتاحة فرص النفع لهم بالحق وبغير الحق . . .

ودائماً ، بإزاء كل منتفع محروم ، وعلى مقدار فرح المنتفع بالنفع الذى أصابه ، يكون حزن المحروم وحقده على المنتفعين ، وهكذا كانت الانتخابات ، وما تلاها من المحسوبيات ، سبباً لأحقاد ، ولألوان من الشعور بالحرمان تحرج كثيراً من الصدور .

والنائب حين يتوسط ليحقق منفعة لناخب من ناخبيه ، ينشىء

فى قلوب ناخبين آخرين طمعاً فى الحصول على مثل هذه المنفعة ، فيزدحمون على بابه آملين راجين ، فلا يجد بداً من التوسط لهم كما توسط لغيرهم ، وإلا فقدَ اعتباره بينهم جميعاً ، وهكذا وجد النواب أنفسهم سعاة بالخير أو بالشر بين دواوين الحكومة ، يرجون ويلحفون فى الرجاء ، ليرضوا من وراءهم من الناخبين الملحفين فى طلب الرجاء .

وقد كان الواجب الدستورى للنائب أن يشرف على أعمال الحكومة من قريب أو من بعيد ، ليرشدها ، أو يشير عليها ، ويسدد خطاها ، ويجنبها سبيل الخطإ ، ولكن النواب فقدوا صفتهم هذه ، حين جعلوا أنفسهم شفعاء يرجون غير مرجو ، ويسعون إلى مكتب كل صاحب سلطة ، ففقدوا بذلك هيبة النواب ، وقدرتهم على التوجيه والتسديد والمشورة ؛ لأن الذى يتعود أن يمد يده ليرجو ، لا يحسن أن ينتقد ولا أن يوجه ، واليد العليا دائماً خير من اليد السفلى ، وهكذا صار بعض أصحاب المناصب أعلى جاهاً من بعض النواب ، فتمرغت سيادة الشعب فى التراب .

حدث كل هذا وأشباهه منذ البرلمان الأول ، ففقد الدستور هيبته منذ البرلمان الأول ، وهكذا صار للشعب دستور يصف الشعب بأن سلطته هى العليا ، والحقائق الواقعة تدل بكل أسف على أن تلك السيادة المزعومة لم تكن إلا حبراً على ورق ! ...

كل هذا و«فؤاد» ينظر من قريب أو من بعيد ، وهو يخفى ابتسامة ساخرة ، والإنجليز ينظرون مثله من قريب أو من بعيد ، وهم يخفون

كذلك ابتسامات ساخرة ، أو ابتسامات ظافرة ؛ فقد حقق لهم ذلك الدستور وهذا البرلمان كل ما كانوا يرجونه ليحطموا وحدة الشعب ، ويلوثوا سمعة زعمائه ، ويصرفوا الناس بالأعراض الزائلة عن الكفاح لتحقيق الأماني الغالية ، فلما تم لهم ما أرادوا من ذلك كله ، وأمنوا جانب الشعب بعد أن تفرقت وحدته ، وخبت ثورته ، وتلوث زعماؤه ، وصار كل حزب لكل حزب عدواً ؛ — مال «فؤاد» على أصفيائه الإنجليز يؤامرهم ويؤامرونه مرة أخرى ، فأشار عليهم أو أشاروا عليه ، أن يحل ذلك البرلمان ، وأن يسرح أولئك النواب ، وأن يعزل تلك الحكومة ؛ ليضع في مناصب الحكم حكومة غيرها لا يرضى عنها الشعب ، ولا يمكن أن يوليها ثقته .

وهكذا انحل البرلمان الأول ، وتعطل الدستور ، قبل أن يمضي على بدء وجودهما تسعة أشهر . . .

وتساءل المتسائلون : لماذا كان الدستور ، وكان البرلمان ، وكانت حكومة الشعب إذن ؟ ...

وأجاب العقلاء وأهل النظر همساً : إنما كان الدستور والبرلمان وحكومة الشعب ؛ لكي تتفكك وحدة الأمة ، وتتلوث سمعة الزعماء ، وتبذر في النفوس بذور الشحناء ، ويصير كل حزب لكل حزب عدوًّا !

لمصلحة الإنجليز ولمصلحة «فؤاد» إذن ، كان الدستور والبرلمان وتلك الحكومة ؛ ليطمئنوا ويقروا عيناً ، وينامو هادئين هانئين ، لا يقلقهم صراخ الهاتفين بالجلاء والحرية . . .

(١٤)

كفاح على الدستور

وكان كفاح المصريين قبل ذلك اليوم من أجل الجلاء والحرية وتحقيق السيادة ،فلما تعطل الدستور وانحل البرلمان ، بدأ الشعب كفاحا جديداً من أجل الدستور ومن أجل البرلمان ؛ ونسيت الأمانى القومية العليا إلى حين .

وتوالت المعارك بين الشعب والسلطات الطاغية : الشعب يطالب بالدستور ، والملك يريد أن يئد الدستور ، فحيناً ينتصر الشعب ويعود برلمانه ، وحيناً يقوى الملك فيدوس الدستور ويلغى البرلمان .

وهكذا مضت سنوات فى شد وجذب بين القوى الرجعية ، ممثلة فى «الملك فؤاد» ، والقوى الشعبية ، ممثلة فى بقايا زعماء الماضى الذين أثخنتهم جراح المقاومة ، وأضعف نفوسهم الترف ، وأذلهم ما يصيبهم من تهم المحسوبية من سيئات الحكام .

وكانت كل معركة من هذه المعارك تزيد الملك الطاغية قوة ، وتزيد الزعماء الشعبيين ضعفا ، فلم تكد تأتى سنة ١٩٣٠م حتى وجد الملك المتآمر فرصة سانحة ؛ ليلغى الدستور الذى أعلنه منذ سبع سنين .

وكان فرح الشعب بدستوره قد أغفله حينا عن استمرار المطالبة بالجلاء ، فالآن ــ وقد ألغى الدستور ــ أحس الشعب إحساساً قويا ، بعد غفلة طويلة ، أن آماله فى الجلاء ، وفى الحرية ، وفى السيادة ، قد أصيبت بنكسة شديدة ، توجب عليه أن يعبىء كل قوته للكفاح . . .

ولكن الحكومة التى كانت قائمة بالأمر يومئذ كانت متهيئة بكل أسبابها لتقضى على كل بوادر المقاومة .

الظلام المطبق ، والحكم المطلق ،والمدافع المنصوبة على أفواه الطرق ، والجواسيس المتربصة بكل اثنين يتهامسان، والأزمة المالية الخانقة ؛— كل أولئك كان حائلا قويا يمنع الشعب من الاستمرار فى مقاومة صريحة سافرة ، ليس وراءها إلا الموت أو السجن الرهيب ، أو قطع كل أسباب الحياة . ولكن الشعب المصرى الذى ظل يكافح لحريته واستقلاله منذ وطئت أرض بلاده أقدام المحتلين ، لم يكن ليذل أو يخضع ، ولكنه كان يحسن أن يتربص إلى أن تحين الفرصة الملائمة .

(١٥)

ثورة سنة ١٩٣٥

وخيل إلى المستعمرين وإلى الطغاة أن الشعب قد رضى بالهوان ، فلن تقوم له قائمة بعد ، ولكن ذلك الشعب لم يكد يجد الفرصة سانحة فى سنة ١٩٣٥ حتى انتفض انتفاضة اليقظة ، وزحف زحف السيل ، ودوى صوته دوى الرعد مطالباً بالحرية ، وبعودة دستور سنة ١٩٢٣ ؛ لتعود إلى الشعب سيادته .

وتجددت فى مصر حوادث سنة ١٩١٩ ، فى سنة ١٩٣٥ ، وتخضبت الأرض مرة ثانية بالدم ، وتوحدت الصفوف بعد فرقة ، وتجردت النفوس من المطامع ، ورخصت الأرواح فى ميدان التضحية ، ووضح لكل ذى عينين أن هذه الثورة الجديدة ثورة جادة ورشيدة ، وأن الشعب إذا لم يتحقق أمله فى السيادة وفى الحرية ، فلا بد أن تشتعل النار التى تأكل المحتلين والطغاة جميعاً ، فلا تبقى منهم باقية .

وخضع فؤاد مرة أخرى ، فأعاد دستور ١٩٢٣م ، ورد إلى الشعب سيادته . وخضعت بريطانيا كذلك ، فأعلن وزراؤها وأصحاب الرأى فيها استعدادهم مرة أخرى للمفاوضة مع زعماء مصر ؛ لتحقيق الاستقلال ، والاتفاق على نصوص الجلاء ! ...

ولو أن زعماء المصريين يومئذ كانوا أكثر رشداً ، لعرفوا أن المفاوضة ، وقد جربوها أكثر من مرة ، ليست إلا حيلة بريطانية خبيثة لتهدئة الثورة ، وصدع القوى المتحدة ، واكتساب الوقت .

ولكن أولئك الزعماء وقعوا فى الفخ مرة أخرى ، ودخلوا فى مفاوضة مع بريطانيا ، وانتهت المفاوضة بمعاهدة سنة ١٩٣٦ .

كل ما كسبناه من نتائج تلك الثورة ، هو أننا استطعنا فى سنة ١٩٣٦ أن نوقع معاهدة دولية ، نلغى بها الامتيازات الأجنبية التى كانت غلا ثقيلا فى أعناقنا جميعاً منذ سنين بعيدة .

أما معاهدتنا مع بريطانيا فى تلك السنة ، فكانت نعمة لبريطانيا ووبالا علينا .

وأما الدستور الذى عاد ، والبرلمان الذى انعقد ، والحكومة الشعبية التى تبوأت مناصب الحكم ؟ — فلم يكن كل ذلك إلا صورة مكررة لبعض ما سبق من صور الدستور والبرلمان والحكومات الشعبية أو غير الشعبية : سلطات ومحسوبية ، وفساد فى الحكم ، وأحقاد وحزازات ، وحزب هنا يناوىء حزباً هناك ، وحزب فى الاستيداع يتربص بحزب فى الحكم ، والملك الصبى «فاروق» ماض على سنة أبيه فى الكيد للشعب ، وفى الإذلال للزعماء ، وفى التربص بالدستور ! ...

ونشبت الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٩ ، ونحن حلفاء لبريطانيا الدولة المحاربة لألمانيا ، ولإيطاليا ، ولروسيا فى بعض الأحيان . وعلى كل حليف أن ينال نصيباً من مغارم حليفه ، وأن يتحمل من ويلات الحرب نصيباً كما يتحمل حليفه ، وأن يؤدى من المعونة لحليفه فى الميدان وفى غير الميدان ما يستطيع ومالا يستطيع أحياناً ! . . .

ورأت مصر المسالمة نفسها فى حرب ولم تعلن حربا ؛ لأنها حليفة لدولة محاربة بمقتضى معاهدة سنة ١٩٣٦ .

طيارات الأعداء تصب قذائفها على بلادنا فى الليل وفى النهار ، وفى الظلام والنور ، وفى مطلع القمر ومغيبه ، فتندك الأبنية الشامخة ، وتخرب البيوت العامرة ، وتزهق الأرواح البريئة .

حاصلاتنا الزراعية التى لا تكاد تكفينا قوتا ، تحملها الجيوش البريطانية على سياراتها وطائراتها وبواخرها إلى المناطق التى لا تجد القوت من بلادها ، أو إلى الميادين المفتقرة إلى مثل طعامنا ، فيأكلون ونجوع ، ويشربون ونظمأ ، ويتمتعون بخيرنا ونحن نتقلب فى جحيم الحرمان ؛ لأننا حلفاء لبريطانيا المحاربة بمقتضى « معاهدة سنة ١٩٣٦ م » .

المنسوجات التى نرجوها لتسترنا من حر الصيف ، وتقينا برد الشتاء ، يحملها الإنجليز من مصانعنا إلى بلادهم ؛ ليكسوا جنودهم وأهليهم ، فنعرى ويكتسون ؛ لأننا حلفاء لبريطانيا بمقتضى « معاهدة سنة ١٩٣٦ » .

نقدنا —وكل رصيده الذهبي فى «بنك بريطانيا»— يريده الإنجليز ليشتروا به أقواتنا وحاصلاتنا ومصنوعاتنا ، حتى إذا استنفدوه طبعوا فى بنكهم الأوراق الخضراء والحمراء من نقدنا بلا رصيد ؛ ليعطونا ورقا ملونا ، ويأخذوا منا طعاما وشرابا وكساء ويتركونا جياعا ظماء عراة ، فإذا تنبهنا إلى حقنا وواجبهم لنا ، قالوا : اعتبروه دينا إلى ميسرة بعد الحرب ، فإذا انتهت الحرب وطالبناهم بسداد الدين — وقد جاوز ٤٠٠ مليون جنيه — قالوا : ذلك المال من حقنا ؛ لأننا بذلناه فى الحرب ، وأنتم حلفاؤنا فى السلم وفى الحرب ، بمقتضى « معاهدة سنة ١٩٣٦ م » .

جعنا ، وظمئنا ، وتعرينا ، وتخربت بيوتنا ، وتهدم عامرنا ، وضاعت حاصلاتنا ومنتجاتنا الصناعية ؛ — كل ذلك لأننا حلفاء بريطانيا ، بمقتضى معاهدة سنة ١٩٣٦ .

« فلتسقط معاهدة سنة ١٩٣٦ م ! . . . » .

هكذا هتف الشعب كله بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فارتجت لهتافه أرجاء الدنيا !...

(١٦)

الجلاء بالدماء

وظل الهتاف يتردد بين جنبات الوادى ، صادراً من كل قلب خلال سنين ، من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٥٠ .

وكان «فاروق» المخلوع قد بلغ من المظالم والإسراف فى الفاحشة مبلغاً ملأ كل قلب كراهية وبغضاً لذلك الصبى الداعر ، وآبائه الذين أورثوه عرش البلاد .

وتعاون الإنجليز — كعادتهم دائما — مع الملك البغيض ، ومضوا يعملون متعاونين بكل ما يملكون من وسائل لتحطيم روح المقاومة فى الشعب .

وكان نكث الإنجليز بوعودهم للعرب فى «فلسطين» ، وخيانات فاروق للشعب فى ماله ، وفى وطنيته ، وفى اتجاره بالأسلحة الفاسدة فى حرب فلسطين ، وباحتضانه للخونة ، والسفاكين ، والدساسين ، والسماسرة ، ووسطاء الفساد ؛ — كان كل ذلك سبباً لامتلاء نفوس الشعب إيماناً بحقيقة واحدة ، هى ضرورة العمل بكل ما يمكن من وسائل ؛ لطرد المستعمر الباغى عن أرض الوطن ، وكف الملك الطاغى عن العبث بمصالح الوطن !...

وكان الشعب يعرف عرفان اليقين أن الملك والإنجليز متحالفان على عداوته والكيد له ، فالإنجليز يسندون الملك ليتغلبوا به على الشعب ، والملك يساعد المحتلين ليضمن بقاءه على العرش ، فكان لابد للشعب من العمل على تحطيم الجبهتين معا ؛ ليخلص بحريته ، ويسترد سيادته .

وكان الهتاف بسقوط معاهدة سنة ١٩٣٦ ما يزال يتردد على كل لسان فى الوادى ؛ إيماناً بأنه لولا هذه المعاهدة التى تضمن بقاء جيش الاحتلال لما استطاع الملك الطاغية أن يمضى فى غلوائه غير مكترث بالشعب ، ولا بمصالح الوطن ، فألح الشعب إلحاحاً عنيفاً ، مطالباً بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ .

وأحس الإنجليز — كما أحسوا من قبل فى كل مناسبة مماثلة — أن الشعب مُصرّ على المطالبة بالجلاء ، فأرادوا أن يعاودوا الاحتيال على الشعب ، بالدخول فى المفاوضة ، حتى تهدأ الثورة ، ولكن الشعب كان قد نضج ووعى ، بحيث لا تجوز عليه هذه الحيلة مرة أخرى ، فأكره الحكومة على قطع المفاوضة مع الإنجليز وإعلان إلغاء المعاهدة ، ونادت كل طبقات الشعب :

لا معاهدة ... لا محالفة ... لا استعمار !...

الجلاء !... الجلاء !...

الجلاء بالدماء ! ...

واقترن القول بالعمل ، فاحتشدت كتائب الفدائيين ، وزحفت إلى

منطقة القناة ، تتربص الموت بالإنجليز ، وتقطع عليهم كل سبيل ، وتمنع عنهم الزاد والماء والمدد والتجارة ، فلم تكد تبدأ هذه الحركة حتى لقى الإنجليز من أمرهم عسرا ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، فلم يجدوا مخرجا مما هم فيه إلا بالمقاومة المسلحة ، فنشبت المعارك الدامية بين الفدائيين الأحرار والمستعمرين الطغاة .

وكانت المعارك تزداد كل يوم شدة وحدة ، ولم يخضع المصريون للتهديد والإرهاب والمظالم الوحشية التى كان يصبها الإنجليز على الأبرياء من أهل القرى القريبة ؛ انتقاماً من الفدائيين الذين لا يستطيعون أن يظفروا بهم ، ولا أن ينالوا منهم منالا .

وبحث المحتلون عن الزاد ، فلم يجدوا بين المصريين من يمدهم بالزاد ، وبحثوا عن العمال المصريين الذين كانوا يعملون معهم فى المعسكرات ، فلم يجدوا مصرياً واحداً يقبل العمل معهم فى المعسكرات ، وأصاب الشلل جيش الاحتلال ، وتهدده الجوع والظمأ بالموت العاجل ، وضاق نطاق الحصار حوله حتى كاد يهلك كمداً وغما ، وبدا لكل ذى عينين فى مصر وفى غير مصر أن حركة الفدائيين المصريين توشك أن تقذف بمن بقى من قوات الاحتلال إلى البحر ؛ لتتطهر من أرجاسهم أرضُ الوطن !...

حين ذاك تحرك الملك لينقذ حلفاءه قبل الهزيمة ؛ خوفاً على عرشه لو مضوا وتركوه !...

وفجأة أطبق الظلام على مصر ، وأعلنت الأحكام العرفية ، وأمر كل فدائى أن يعود إلى داره ، وإلا سيق إلى الموت أو السجن .

خطة دبرها فاروق المعزول ؛ ليحمى حلفاءه من سوء المصير الذى أوشك الوطنيون أن يسوقوهم إليه .

خفتت الأصوات الهاتفة ، وانطفأ اللهب المشتعل ، وأطبق الظلام على مصر ، وخيل إلى بعض من لا يتعمقون النظر أن الحركة المباركة — التى ابتدأها الوطنيون ليكرهوا جيش الاحتلال على الجلاء — قد وقفت إلى الأبد ، ولكن نور الأمل ، وحماسة الإيمان ، وقوة العزيمة ، كانت تعمر قلوباً شابة ، لا يثنيها الخوف من الموت عن الكفاح فى سبيل الوطن .

ومن وراء أستار الظلام ، كان يجتمع بضعة عشر نفراً من الضباط الأحرار يدبرون الأمر بينهم ؛ لينقذوا الوطن من محنته !...

(١٧)

٢٣ يوليـــو

إن مصر التي لم تقرّ على الظلم يوماً ، لا يمكن أن ترضى بهذا الهوان ؛ ففي الوقت الذي ظن فيه أهل الغفلة أن حركة الكفاح التي بدأها الشعب منذ أجيال قد انتهت ، انتفضت عزيمة الشعب المكافح ممثلة في بضعة عشر من شبابها ، خرجوا من ثكناتهم يجابهون الموت علانية ؛ ليقولوا للطاغية وأعوانه : قفوا !... فقد آن للشعب أن ينتصف لنفسه !...

وكان منتصف ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بدء الثورة ، التي لم يكن يقع في وهم أحد أنها ستكون .

وخر الطاغية جاثياً على ركبتيه ، وطأطأ رأسه للشعب يطلب الرحمة ، ولم يمض إلا أيام ثلاثة حتى كان الملك طريداً على ظهر المركب الذي طالما شهد مباذله ؛ ليقله بعيداً إلى حيث لا تكتحل عيناه مرة أخرى بمرأى البلد الذي بذل له الإحسان ، فقابل إحسانه بالجحود والكفران !...

وتخلصت مصر ، بعد قرن ونصف قرن ، من آخر سلالة «محمد علي» و «إبراهيم» .

وأعلنت «الجمهورية» في ١٨ يونية سنة ١٩٥٣ ، وعاد حكم الشعب للشعب ، وتحققت لكل مصري سيادته في وطنه .

(١٨)
معاهدة الجلاء

إذا الشعب يوماً أراد الحياة　　　فلا بد أن يستجيب القدر

وقد أراد شعب مصر الحياة ، وسعى لها بأسبابها ؛ فاستجاب القدر لإرادته .

لقد تخلصت مصر بعد قرن ونصف قرن من حكم المستبدين الطغاة ، الذين جاءها كبيرهم وحيداً شريداً بلا جاه ولا مال ، فتمسكن حتى تمكن ، ثم قال وقال خلفاؤه من بعده : إن لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى .

لقد كذب وكذب خلفاؤه ؛ كما كذب فرعون من قبله !... إن مصر لأهل مصر على سواء ، فليست ضيعة لأحد ، وليس أهلها عبيداً لأحد .

ولكن مصر التى تخلصت من تلك الأسرة الطاغية الباغية لم يكن ليقنعها هذا ، دون أن يجلو المحتل عن أرضها .

لقد كان هدفها دائماً هو : الجلاء والسيادة !...

وهتفت «حكومةالثورة» فى وجه المحتلين : اخرجوا من بلادنا !...

وكان هتافا قويا ورائعاً ، لم تسمع « بريطانيا » مثله منذ وطئت أقدامها هذه الأرض الطاهرة !...

وحاولت بريطانيا حيلتها لتخدع حكومة الثورة عن مطلبها ، ولكن حكومة الثورة كانت أسدّ رأيا ، وأقوى عزيمة ، فلم يثنها عن مطلبها حيلة .

وعادت كتائب الفدائيين الأبطال ترابط فى كل طريق يسلكه المحتل ، وعلى رأس كل جسر يعبره ، تقذف الرعب فى قلوب الإنجليز ، وتهددهم بالموت والدمار ، وتبث فى صفوفهم أسباب الاضطراب والفوضى .

فدائيون أحرار باعوا أنفسهم للوطن ، وخرجوا يتعرضون للموت أفواجاً بلاضجة ولاضوضاء ، لا تذكر الصحف أسماءهم ، ولا صفاتهم ، ولا تقص شيئاً من خبرهم ؛ لأنهم لم يخرجوا طلاب مجد وشهرة ، بل طلاب فداء وتضحية ، قد أنكروا ذواتهم ، وأرخصوا دماءهم ، وحددوا بدقة أهدافهم .

وكانت معسكرات التدريب فى داخل البلاد تعد الشباب من كل طبقة ، ليخوض غمار المعارك المتصلة بين الفدائيين وجيش الاحتلال على شاطىء القناة ، يذهبون إلى ميدان الفداء فوجاً بعد فوج ، وجماعة بعد جماعة ، لا يذكر من عاش منهم ولا من مات ، وإنما يذكر الوطن ، والوطن فقط !...

وأيقن المحتلون والأرض تزلزل تحت أقدامهم ، والعاصفة تلفهم ، والموت يتربص بهم من كل جانب ، أن لا بقاء لهم بعد اليوم فى مصر ، وأنهم إن لم يخرجوا منها اليوم طائعين ، فسيخرجون منها غداً مكرهين مشيعين بالسخط والسخرية والشماتة !...

واعترفت « بريطانيا » بضرورة الجلاء !...

ووقعت الاتفاقية بين « الإنجليز » و« حكومة الثورة » فى ١٩ أكتوبر سنة ١٩٥٤ .

ولأول مرة منذ أكثر من أربعة قرون ، تعود مصر حرة مستقلة ، لها السيادة الكاملة على أرضها ، ومائها ، وجوها ، ليس لأحد معها سيادة أو شبه سيادة على شبر من هذه الأرض ، أو قليل من ذلك الماء ، أو ذرة فى هذا الجو .

بكفاح هـذا الشعب القوى ، وباتحاده ، بلغت مصر غاياتها فى الجلاء والحرية .

هذا الشعب الذى لم تهدأ له ثائرة أو تنطفىء شعلة ، منذ أطلقت أول بارجة بريطانية قذائفها المدمرة على الإسكندرية فى سنة ١٨٨٢ ! . بل منذ راحت سنابك خيل العثمانيين تحطم جماجم الشهداء المدافعين عن استقلال بلادهم فى « مرج دابق » سنة ١٥١٦ م .

لقد أقسم هذا الشعب — منذ فقد استقلاله فى ذلك التاريخ البعيد — أن يسترد حرية وطنه ، وأن يستعيد سيادته كاملة على أرضه وبحره وجوه ؛ فلم يزل يكافح حتى تحقق له كل ما أراد ، على الوجه الذى أراد ، واستردت مصر استقلالها وحريتها وكرامتها ، وعادت كما كانت منذ فجر التاريخ ، وكما ستكون إلى الأبد ، أمة حرة ذات سيادة ، لخير أبنائها تعمل ، ولخير البشرية جميعاً ، لأنها معلمة الحضارة الأولى للبشرية جميعاً .

أول الوهن في الدولة الإسلامية الكبرى كانت حركة انفصالية

بقلم

محمد سعيد العريان

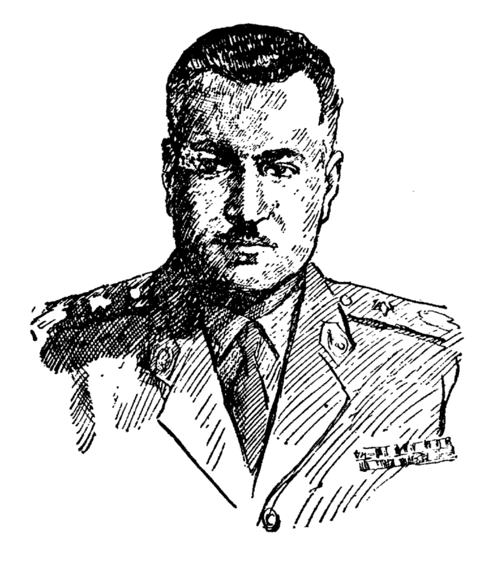
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا

وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً

فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ



السيد الرئيس جمال عبد الناصر

« لقد ازداد إيمانى بمدى الفاعلية الإيجابية ،التى يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الإسلامى بين جميع المسلمين ، أيام أن ذهبت مع البعثة المصرية إلى المملكة العربية لتقديم العزاء فى وفاة عاهلها الراحل الكبير الملك « عبد العزيز آل سعود » !...

ولقد وقفت أمام الكعبة وأحسست بخواطرى تطوف بكل ناحية من العالم وصل إليها الإسلام ، ثم وجدتُنى أقول لنفسى :

— يجب أن تتغير نظرتنا إلى الحج ، يجب ألا يصبح الذهاب إلى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد ، أو محاولة ساذَجة لشراء الغفران ، بعد حياة حافلة ...

يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع صحافة العالم إلى متابعة أنبائه ، لا بوصفه مراسيم ، وتقاليد تصنع صورا طريفة لقراء الصحف ، وإنما بوصفه مؤتمراً سياسياً دورياً ، يجتمع فيه كل قادة الدول الإسلامية ، ورجال الرأى فيها ، وعلماؤها فى كافة أنحاء المعرفة ، وكتابها وملوك الصناعة فيها ، وتجارها ، وشبابها ؛ ليضعوا فى هذا البرلمان الإسلامى العالمى خطوطاً عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معاً ، حين يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام !...

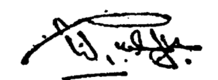
يجتمعون خاشعين ولكن أقوياء ، متجردين من المطامع ولكن

عاملين ، مستضعفين لله ولـكن أشداء على مشا كلهم وأعدائهم ، حالمين بحياة أخرى ، ولـكن مؤمنين بأن لهم مكاناً تحت الشمس ، يتعين عليهم احتلاله فى هذه الحياة !...

وأذكر أنى قلت بعض خواطرى هذه لجلالة «الملك سعود» ، فقال لى الملك:

— إن هـــذه هى فعلا الحـكمة الحقيقية للحج . وفى الحق أنى لا أستطيع أن أتصور للحج حكمة أخرى !...

وحين أسرح بخيالى إلى ثمانين مليوناً من المسلمين فى أندونيسيا ، وخمسين مليوناً فى الصين ، وبضعة ملايين فى الملايو وسيــام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون فى الباكستان ، وأكثر من مائة مليون فى منطقة الشرق الأوسط ، وأربعين مليوناً داخل الاتحاد السوفيتى ، وملايين غيرهم فى أرجاء الأرض المتباعدة — حين أسرح بخيالى إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة ، أخرج بإحساس كبير بالإمكانيات الهائلة التى يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعاً ، تعاون لا يخرج عن حدود ولايتهم لأوطانهم الأصلية بالطبع ، ولـكنه يكفل لهم ولإخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة !... »



تمهيد

فى كتاب «فلسفة الثورة» يتحدث الرئيس «جمال عبد الناصر» عن الدائرة العربية فيقول : « وما من شك فى أن الدائرة العربية هى أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطاً بنا ؛ فلقد امتزجت معنا بالتاريخ وعانينا معها نفس المحن وعشنا نفس الأزمات . . . » ويتحدث عن الدائرة الثانية ، دائرة القارة الإفريقية فيقول : « إننا لا نستطيع بحال من الأحوال — حتى لو أردنا — أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق إفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الإفريقيين ؛ — لا نستطيع لسبب هام وبدهى ، هو أننا فى إفريقيا » .

أما الدائرة الثالثة — وهى الدائرة الإسلامية — فيتحدث عن « الإمكانيات الهائلة التى يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعاً ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصلية بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولإخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة » .

وهو فى هذه الكلمات يضع خطوط سياسة مصر فى المستقبل ، بالنسبة إلى البلاد العربية ، وللبلاد الصديقة فى إفريقيا وآسيا !...

وهذه دعوة إلى التجمع وخطوة فى سبيل التفاهم العالمى !...

وأصبح علينا أن نتدبر ما مر بنا ونحن نقوم قومتنا الحاضرة ؛

لنعرف الأخطاء التى وقعت والأخطاء التى قد يتعرض لها المستقبل ..

والفصل التالى ، موجز لأسباب الوهن فى الدولة الإسلامية الكبرى . . . قامت بدورها فى التاريخ ونشرها فى الأرض رسالة إنسانية كانت خطوة عظيمة فى سبيل الحكومة العالمية . . ولكن أسباب الانهيار كانت كامنة فى أسس هذه الدولة ، فانتهى الأمر إلى الوهن والانحلال والتفرق الذى سعى إليه الاحتلال والاستعمار . . .

هذه الكتلة التى يجب أن نعمل لتكوينها ، ولنكون جزءاً منها وقوة فيها :ـ نعنى الكتلة الإسلامية . . . الدولة الإسلامية العظمى التى توحى إلينا صورة من صور الماضى . . .

صورة كانت فيها بالقارتين الإفريقية والآسيوية كتلة ذات خطر أنشأت للعالم تاريخاً ، ورسمت للعالم حضارة ، ووجهت الإنسانية وجهة ...

كتلة كان من الممكن أن تتجمع حولها كتل ، وأن تكون نواة للحكومة الإنسانية العامة . . . الحكومة العالمية التى تكفل للإنسانية كلها السلام والحب والتعاون والرحمة ! . . .

أول الوهن فى الدولة الإسلامية الكبرى كانت حركة انفصالية

أيها السادة ! . . .

هنا ، فوق هذه الأرض الطيبة ، حيث تطالعنى هذه الوجوه الكريمة ، وتصافح أذنى أينما حللت من ذلك البلد نغمات الترحيب والحفاوة ، وحيث تتجاوب أصداء الأذان داعية إلى الصلاة والفلاح من فوق تلك المآذن السامقة ، وحيث لم يزل فى كل محراب من محاريب العبادة فتى أو شيخ قد بسط راحتيه إلى وجهه ورفع عينيه إلى السماء يدعو الله أن يوفق المسلمين إلى مراشدهم ويجمعهم على البر والتقوى وصلة الرحم . . .

هنا ، فوق هذه الأرض الطيبة ، وحيث تطالعنى هذه الوجوه ، ويصافح أذنى ذلك الدعاء ، يذهب بى الفكر مذاهبه إلى يمين وإلى شمال ، ويغوص بى إلى أبعد أعماق الذكريات ، يوم كان المسلمون فى كل أرض أمة واحدة ، تظللهم راية ، ويجمعهم نظام ، ويؤلف قلوبهم أمل مشترك ، ويوجد بينهم هدف واحد ، يوم لم يكن المسلمون أجناساً لأن الإسلام هو الجنس الواحد الذى يستمدون من الانتساب إليه عزتهم ومجدهم ،

فليس منهم من يعزى إلى بلد ؛ لأن كل بلاد الإسلام وطنه ، ولا من ينتمى إلى قوم ، لأن المسلمين فى شتى بقاع الأرض قومه ، ولا من يباهى بمولده فى أرض دون أرض ؛ لأن كل أرض ترفرف عليها الراية الإسلامية هى أرضه . . .

يومذاك ، كان المسلمون فى شتى بقاع الأرض إخوة متحابين متعاطفين ، ألبا على من عاداهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، خيرهم خيرهم لقومه ، وشرهم أحرصهم على الخير لنفسه ، لقد كان المسلمون فى ذلك الزمان البعيد دولة واحدة ، تدين بالولاء لحكومة واحدة ، تستمد سلطانها من رضا هؤلاء الملايين الذين فرقهم المكان ووحدتهم العاطفة المشتركة .

لقد كانوا كذلك يوما ، واستمروا كذلك سنين ، وقرونا . الحكومة المركزية فى « يثرب المطهرة » ، أو فى « دمشق » ، أو فى « بغداد » ، أو فى « سامرا » ، يحكمها أمير المؤمنين المختار ، ويصدر عن رأيه أمراء الولايات فى الأقطار الإسلامية ، ففى « قرطبة » من أقصى المغرب الأوربى أمير يحكم فى شبه جزيرة الأندلس باسم أمير المؤمنين فى « دمشق » وفى « القيروان » من شمال إفريقية أمير مثله ، وفى وادى النيل أمير على « الفسطاط » ، وفى « بيت المقدس » ، و« دمشق » ، و« اليمامة » ، و« اليمن » ، وبلاد المشرق ، حكومات محلية مؤمرة ، تستمد سلطانها من عاصمة الإسلام الكبرى ، فى ظل عرش الخليفة المعظم ، لا يحاول أحد من أهل تلك الأصقاع

المتباعدة أن يقول : أنا مغربى ، أو مصرى ، أو سودانى ، أو سورى ، أو خراسانى ... لقد محا الإسلام تلك الجنسيات القَبَلية ، وأدمجها جميعاً فى الجنس العظيم العام ، الذى اتخذ شعاراً لوحدته أميراً واحداً ، أو خليفة واحداً ، يجلس على عرشه فى العاصمة الكبرى للإمبراطورية ، الإسلامية التى وضع دستورها « محمد بن عبد الله » بإذن من ربه ، فخطا بها الخطوة الأولى لإيجاد الحكومة الإنسانية العامة التى ترفرف رايتها على البشرية جميعاً .

إن الإسلام هو دين الإنسانية العام الخالد ، جاء يمحو فوارق الجنس واللون والدم والقبيلة ، ليحقق بذلك معنى الجنس الكبير الذى ينتظم البشرية كلها ، حتى لا يكون على الأرض إلا نوعان من الخلق : إنسان وحيوان .

لقد تدرجت البشرية فى مراحل مختلفة من مراحل الحضارة ، على تعاقب القرون ؛ لتتخلص من آثار الحيوانية ... الحيوانية الأولى التى كانت تخيل لكل إنسان فى ذاته أن الدنيا هو ولا أحد معه ، فخطت أول خطوة نحو الحضارة ، يوم استطاع الإنسان الأول أن يشعر على وجه ما أنه ليس وحده على الأرض ، وأن ثمة أناسا آخرين من جنسه ، يشاطرونه الإحساس والشعور بالحياة ، فكون الأسرة واعترف بالولد ، ثم خطا الخطوة الثانية حين اعترف بالولاء للقبيلة وبالنسب الذى يجمع بين الإخوة وكانت هذه أول مرحلة من مراحل التجمع البشرى التى خطت به نحو

الشعور بالتعاطف الإنسانى ، وقد ظلت القبيلة هى الجنس ، وهى الدولة المصغرة ، حتى استطاع إنسان ذو عقل حضارى أن يستكشف أن ثمة قبائل أخرى غير قبيلته ، تشاطره بعض صفاته ، أو كل صفاته ، وبعض إحساسه وشعوره بالحياة ، أو كل إحساسه وشعوره ، فأيقن أن من تمام إنسانيته أن يتحد مع تلك القبيلة أو القبائل الأخرى ، فكان ذلك أول نشوء معنى الأمة ، وكذلك تدرجت الإنسانية من الفردية ، إلى القبيلة إلى معنى الأمة المتحدة التى تجتمع على هدف وشعور مشترك بالحياة ، وتحددت الحدود الصناعية أو الطبيعية بين كل أمة وأمة ، وبين كل أرض وأرض .

إلى هنا كانت خطوات البشر طبيعية نحو التجمع الإنسانى أو نحو الوحدة الإنسانية العامة ، فلو أن ذلك التطور قد مضى إلى غايته دون معوقات ، أو دون عوامل الجذب الحيوانية ، لاتحدت البشرية على هدف إنسانى عام منذ قرون بعيدة ، ولكن لكل نهضة نكسة ، فقد خلق الله الخلق وزودهم بطائفة من الغرائز المتناقضة ، منها ما هو حيوانى أرضى ، ومنها الإنسانى السامى الذى يصل الإنسان بمعنى الألوهية الرفيع ، ومن ثمة ـ نشأ فى هذه المرحلة من مراحل التطور الحضارى نحو الإنسانية العليا ـ ما يصح أن نسميه أول أزمة سياسية فى تاريخ البشر !... كان ذلك حين برزت مطامع أصحاب السلطان فى تلك الأمم الناشئة ، فردت الناس إلى الشعور بمعنى العصبية القبلية ؛ إذ أوهم كل صاحب سلطان رعيته

أنهم جنس من الخلق غير ذلك الجنس الذى تتكون منه أمم أخرى ، ثم وضع فى أيديهم القسى والسهام ، أو القنا والسيوف ، وأهاب بهم أن يدافعوا عن أرضهم ووطنهم ، وعادت طباع الحيوان تسيطر على البشرية كرة أخرى ، واصطبغت الأرض بالدم ...

أيها السادة ! ...

كم غبر من القرون على البشرية وهى فى هذه الضلالة ، حتى جاء الإسلام ليضع للبشرية دستور الوحدة الإنسانية العامة ، التى لاتقوم على أساس الجنس ولا اللون ولا الأرض ، بل على أساس الإحساس الإنسانى المشترك بمعانى المساواة بين الناس فى الحقوق والتكاليف ، فتحقق بوجود الحكومة الإسلامية الأولى التى اتخذت عاصمتها « يثرب المكرمة » ، ثم «دمشق» ، ثم «بغداد» ، ثم «سامرا» — لأول مرة فى تاريخ البشرية — معنى الجنس الكبير الذى ينتظم البشرية المتحضرة كلها ، حتى لا يكون على الأرض — كما قلنا — إلا نوعان من الخلق : إنسان متحضر ، وحيوان !...

كان ذلك هو هدف الحكومة الإسلامية التى وضع «محمد» نواة دستورها الأساسى ، والتى مضت تحقق معنى وجودها العملى شيئا بعد شىء على تعاقب السنين ، فلم يمض إلا قرن أو ما دون القرن ، حتى كانت تلك الإمبراطورية تنتظم أكثر البلاد المتحضرة فى ذلك الزمان ، فإذا حدودها تتسع وتنبسط حتى تبلغ أقصى المشرق ، وتكسر «سور الصين العظيم» فتنتشر

من ورائه اسم الله الأعظم ، ثم تمتد وتنبسط حتى تشمل « الهند » و «السند »وجزائر المحيط الدافىء ، ثم تمضى فى الامتداد والانبساط حتى تبلغ جبال أطلس على شاطىء بحر الظلمات ، ثم تستمر فى انبساطها ومدها حتى تبلغ أوروبا فتطبق عليها من الشرق ومن الغرب ومن الجنوب ، فإذا جنود « مسلمة بن عبد الملك » يبلغون « القسطنطينية » شرقا ، وإذا جيوش «عبد الرحمن الغافقى» تفرغ من «شبه جزيرة أيبريا» وتستولى عليها جميعاً ، وتمضى لوجهها إلى الشرق ، فتطأ جنوب فرنسا فى الطريق إلى « رومية »عاصمة الدولة الرومانية العريقة ، ثم إذا البحرية المسلمة تسيطر على البحر المتوسط وتجوس خلال جزره ، فتملك «صقلية » ، و « قبرص » ، و« سردينيا » ، و « كورسيكا » أيضا — موطن « نابليون » — ثم تثب إلى شاطىء إيطاليا فتتخذه قاعدة مسلمة ، ترسل أضواءها إلى ما حواليها من شرق وغرب وشمال . . .

إمبراطورية لم يبلغ مدى فتوحها من قبل مبشر برأى ، لا تكاد تبسط سلطانها على بلد من البلاد حتى تزيل الفوارق بينها وبين أهله ، فإذا دينها دينه ، وإذا لغتها لغته ، وإذا مثلها الإنسانية العليا هى مثله ، وتنمحى كل فروق الجنس واللون والدم والعصبية القبلية ومؤثرات المكان ، فإذا جميع من تنتظمهم من رعية ، جنس واحد ، لا يعرفون لهم جنساً ينتسبون إليه غير هذه الجنسية الإسلامية التي اتخذت لها دستوراً ذلك القرآن ، ولا تدين بالولاء لأحد غير ذلك الخليفة الجالس على عرش « دمشق » أو « سامرا » .

ويلتقى الأبيض، والأسود ، والأصفر ،والأشقر ، فى «قرطبة» أوفى «القيروان» ، أوفى «الفسطاط» ، أوفى «دمشق» ، أوفى «الكوفة» ، أوفى «خراسان» ، أوفى «دهلى» ، فما يكادون يلتقون حتى يتعارفوا ، فيتآلفوا فيصهر بعضهم لبعض ، فيختلط الدم بالدم ، فثمة الخئولة والعمومة ، والأبوة والأمومة ، كلهم لجنس ، وكلهم لدين ، وكلهم لأب وأم ، وكلهم لمثل عليا موحدة هتف بها « محمد بن عبد الله » بمكة منذ قريب ، فتجاوبت أصداء هتافه مع الأذان فى أربعة أقطار الأرض .

أيها السادة !...

نحن وأنتم ورثة ذلك التراث ، وأبناء ذلك الجنس ، وأنصار ذلك الدين ، ورعية تلك الحكومة ، والمقرون بالولاء لذلك النظام ، والمستظلون بتلك الراية ، والجند المحاربون فى ذلك الجيش !...

نحن وأنتم على قدر مشترك من الاعتزاز بذلك الماضى ، هو ماضينا وماضيكم معا ، هو مفخرتنا ومفخرتكم جميعا ، ألسنا نحن الأبناء والحفدة !...

فى خلواتنا وفى خلواتكم نسترجع وتسترجعون ذكريات ذلك الماضى ، فتذهب بنا الذكريات مذاهبها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، فننتفخ من كبرياء ، ونشمخ من عزة ، ثم نعود إلى أنفسنا بعد لحظة ، أو بعد لحظات ، فتنفتح أعيننا على صور أخرى ، فنأسى وتأسون ، أو نأمل وتأملون !...

أين كنا ، وإلى أين صرنا ؟

سؤال ما أزال أردده بينى وبين نفسى حينا ، وبينى وبين بعض قومى أحيانا ، ثم أشفق من الجواب فأمسك عن الحديث ، وما أظن إلا أنكم مثلى فى ذلك الشعور : تسألون أنفسكم ، أو يسأل بعضكم بعضا ، حينا بعد حين ، وفى فترات متقاربة أو متباعدة : أين كنا ؟ ... وإلى أين صرنا ؟ ...

ثم تمسكون عن الجواب إشفاقا منه !

إن بين ماضينا وحاضرنا بونا شاسعاً وعميقاً ، لو وقف على حافته متأمل فأرسل النظر إلى قاعه ، لم ير إلا الظلام الدامس ، تتراقص فيه الأوهام الراعبة والأشباح المخيفة ، إن بين ماضينا وحاضرنا فراغاً ، فراغاً بعيد المدى ، بعيد العمق ، غائراً أبعد الغور ، مظلما أحلك الظلام ، مرهباً أروع رهبة ، موحشاً أعظم الإيحاش ، إنه فراغ الموت ، فراغ العدم . . .

لا ، لا ... إن تلك الفجوة السحيقة التى تفصل بين ماضينا الذى نزعم ، وحاضرنا الذى نرى ، لا يمكن أن يكون مثلها بين جزءين من حياة إنسانية واحدة . إننا لنرى ذلك الحاضر الذى نعيش فيه ، فلا نكاد نصدق أن آباءنا كانوا يعيشون فى ذلك الماضى . لا بد أن يكون ذلك الماضى — الذى يحاول كتاب التاريخ أن يصفوه لأعيننا — خرافة ... خرافة لم يكن لها وجود قط فى هذا الكون ... خرافة أبدع صورتها عقل فنان

كبير ، ثم أملى خرافته تلك على أهل التاريخ بخبث ، فصدقوها بغفلة ، وجئنا نحن نقرؤها فى هذا الزمان ببلاهة ، فنكاد نصدق ، ثم نكاد ننكر ، ثم نخرج من حيرتنا بين التصديق والإنكار بالبكاء ، وذرف الدموع ، ونظم أشعار الأسى والأسف واللهفة . كما كان يفعل اليهود عند حائط مبكاهم ... ذاك الذى زعموا أنه كان جداراً فى «مملكة داود» !...

ولكن اليهود لم يكونوا يكتفون بذرف الدموع عند مبكاهم ذاك ، بل كانوا يعملون بجد : يبكون يوماً واحداً فى كل عام ، ثم يعملون عمل الناس ، بل عمل الجن ، بقية أيام العام ، ليحيلوا تلك الدموع بسمات استبشار وسعادة ، وسيادة . . . لا بد إذن أن ماضى اليهود لم يكن خرافة ؛ لأن الخرافة لا تحفز إلى عمل كبير ، أما ماضينا نحن فإنه الخرافة ، خرافة كبيرة ، صدقتها عقولنا الصغيرة ، فزعمنا أن الذى حكاه أهل التاريخ عن ذلك الماضى قد كان حقاً ، أم ترانا نزعم أن عقولنا كبيرة ، وأن ذلك الماضى كان حقاً وصدقا ، فأين منا برهان حقه وصدقه ، وأين برهان عقولنا الكبيرة ؟

أيها السادة ! . .

بلى ، بلى !... إن ذلك الماضى قد كان ، وهو ماضينا الحق ، هو سيرة آبائنا الذين كانوا ، ولكن عقولنا من عمق الفجوة التى تفصل بيننا وبين ذلك الماضى ، لا تكاد تصدق أن ذلك الماضى قد كان . إن تلك الهاوية العميقة التى تفصل بين زماننا بما نحمل فيه من تبعات ضعفنا واستكانتنا

واستخذائنا الذليل للأجنبي وطاعاتنا للهوى، وبين ذلك الزمان الذى كان — تلك الهاوية السحيقة التى تفصل بين زماننا هذا وذاك الزمان — لا يمكن أن يحدث مثلها إلا من خسفة أرضية ، أو من زلزال مبير ، أو من طوفان مجتاح ، فأى ذلك قد كان فأحدث تلك الهاوية ، ومزق ذلك الأديم ، وخسف بيننا وبين ماضينا ذلك الخسف ، حتى ما نكاد نملك معاداً إليه ؟ . . .

من أين بدأ الوهن ؟...

ذلك هو السؤال ، ولكنى لا أملك جواباً صريحاً . . . أسمعتم قصة الأب الشيخ الذى جمع بنيه السبعة وهو فى الاحتضار ، ثم أعطى كلا منهم قصبة ليكسرها ، فلما كسروا قصباتهم السبع ، أعطاهم حزمة فيها سبع قصبات مجتمعة ليكسروها فعجزوا ؟!...

لقد نسيت الأمة العربية المسلمة هذا المثل ذات يوم ، فتناول كل واحد من أبنائها قصبة من الحزمة يتوكأ عليها فى مغداه ومراحه إلى السوق : ليبدو فى عينى من يراه أنه سيد ذو صولجان ، وانتزع كل أخ من إخوته قصبة من الحزمة مثله ، فإن منظر أخيهم — فيما يبدو — وهو يتوكأ على عصاه فى السوق ، كان مغرياً لكل واحد من إخوته بالتشبه به ، فانتشرت الحزمة ، وانحلت العروة ، وتفرق المجتمع ، وكان ذلك أول الوهن . . .

حدث ذلك ذات عام من القرن الثالث للهجرة ، وكان فى الأندلس

قبل ذلك بقليل أو بكثير أمير من « بنى أمية » ، تنازعه نفسه إلى عرش يستقل به ، ويخطب باسمه على منبره ، وينقش رسمه على سكته ، لكى يقال له كما يقال لأمير آخر فى بغداد : « أمير المؤمنين » ، فسمى نفسه أمير المؤمنين ، وأعلن الانفصال عن الدولة ! ...

لم يزده ذلك الانفصال شيئاً من سلطة الحكم ، فقد كان عظيم السلطة ، قبل أن يعلن الانفصال فيصدع وحدة الإمبراطورية ، ولكنه فيما بدا له ، أو فيما بدا لمن حوله ، قد زاد جاها ، وانتزعت من الحزمة أول قصبة .

وقال المتحرجون وأهل الخشية : وا أسفا ! ... ذلك أول الوهن فى الدولة .

فأجابهم أصدقاء ذلك الأمير — منكرين أو ساخرين : وماذا فى ذلك من الوهن ؟ ... أمير عظيم السلطان ، رأى فى ظروفه وظروف من حوله من أتباعه أن يمكن لشخصيتهم القوية من الظهور ، وأن يستعلن بشخصيته بين أصحاب الأمر ، فماذا يوهن انفصاله من قوة الدولة ؟ ... إنه لحقيق باستقلاله بأن يكون قوة جديدة للإسلام ، فقد صار للمسلمين عرشان وكان لهم عرش ، وجيشان وكان لهم جيش ، ورايتان فى كل معركة مكان راية ، ويوم تعد دول الأرض تعد بينهم للمسلمين دولتان مكان دولة ! ...

وأمن جماعة على ذلك الرأى واستنكره آخرون ، ولكن الأمر

بين المؤمنين والستنكرين لم يخرج عن حد الجدل ، ولو أنه قد خرج يؤمئذ عن حد الجدل إلى حد المعركة بالحسام ، لـكان حقيقاً بأن يكون سببا إلى ضعف أشد ، أو إلى استعادة قوة باستعادة وحدة ! . . .

* * *

ورأى ذلك المثل أمير فى «فاس» من «المغرب الأقصى» ، من ولد « على بن أبى طالب » ، فرأى فيه مثلا يحتذى ، ماذا يضير الدولة أن يستقل عنها ، ويتخذ تاجاً وعرشاً كما اتخذه صاحبه الأموى فى « الأندلس » ، أليس — وهو الهاشمى — أحق بذلك الشرف من «بنى مروان» ؟ . . .

وانتزع « إدريس بن عبد الله الحسنى » قصبته من الحزمة المجتمعة ، فاتخذها صولجاناً لدولة يتوارثها«الأدارسة الهاشميون» فى «مراكش»!...

وقال المؤيدون ما قالوا ، ورد المنـكرون ما ردوا .

وهز الخليفة فى « بغداد » رأسه أسفا ، فقال له وزير من وزرائه : وماذا عليك ياأمير المؤمنين من رجل فى أقصى المغرب يريد أن يتأمر على قومه ؟ هل مطلك فى خراج كنت تجبيه ؟ ... أو خذلك فى جيش كنت تطلب مدده ؟ ... أو نقصك سلطانا كنت تستمتع به ؟ ... لقد كان هناك أميراً على المسلمين وما يكاد يحس به أحد ، وسيظل هنالك أميراً على المسلمين لا يحس به أحد ! ...

وانتصر رأى الانفصاليين كرة أخرى ، وصار للمسلمين عروش

ثلاثة ، وتيجان ثلاثة ، وجيــوش ثلاثة ، ورايات ثلاث ! ..

* * *

وقال أمير « القيروان وشمال أفريقية » « إبراهيم بن الأغلب » : أ كلهم حقيقون بالعرش والتاج ، وأنا وحدى الرعية ؟ ...

وانفصلت « مملكة الأغالبة » بـ « القيروان » عن الدولة ، وانتزعت من الحزمة « القصبة الثالثة » .

* * *

واتسع الرباط الذى كان يضم أعواد القصب فى الحزمة ، فإذا هى تنتثر ، فلم يكد ينتهى ذلك القرن ، حتي كان فى مصر الدولة الطولونية .

وفى « المهدية » الدولة الفاطمية .

وفى « الشام » دولة بنى حمدان .

وفى « خرسان » دولة بنى طاهر .

ثم الدولة الصفارية فى « سجستان » و « بلاد فارس » .

ثم الدولة السامانية فيما وراء النهر .

ثم الدولة الغزنوية » فى « الأفغان » و « البنجاب » .

ثم دولة الزنج فى « حوض الفرات » و « آسيا الصغرى » ..

ثم دولة بنى بويه فى « بغداد » نفسها ، عاصمة الخلافة العباسية القائمة .

ثم يتتابع ظهور دول « الترك السلاجقة » فى المشرق أولا ، ثم فى « الموصل » و « آسيا الصغرى » بعد ذلك . . .

* * *

ثم يسأل الخليفة العباسى الجالس على عرشه «فى بغداد» ذات يوم ، عن حزمة من القصب كانت تسند عرشه ، أو كانت على الحقيقة تستند إلى عرشه ، فيأتيه وزيره بطوق من قش ، كان منذ بعيد رباطا لتلك الحزمة ، فيصرخ الخليفة منكرا : أهذه هى الحزمة التي طابت ، فأين ما كان يمسكه ذلك الرباط من أعواد ؟ ...

ويجيبه وزيره التركى فى هدوء : إنها ما تزال يامولاى فى أيد مسلمة أمينة ، يتوكأ على كل عود منها ملك من ملوك المسلمين ، الذين يدينون لك بالطاعة والولاء ، ويخطبون باسمك على المنابر ! ...

ويشتد الغضب بأمير المؤمنين ، وتأخذه عزة الخلافة بنوع من الحماقة ، أو لعله نوع من الحزم ، جاء متأخرا عن موعده قرنين أو بضعة قرون ، فيصيح مهتاجا : ولكن هذه الأعواد هى صوالجى لا صوالج أولئك الملوك ، فليردوها إلى طائعين أو رددتهم إلى الطاعة بالعصا ! ...

ويخفى الوزير التركى ابتسامة ساخرة تراود شفتيه ، ويقول فى تذلل:
ولكن العصى كلها فى أيديهم يامولاى ، ليس فى يدنا منها إلا هذا الطوق الذى كان يمسكها يوم كانت حزمة مجتمعة ، فهل يريد مولاى ؟ . . .

ولكن مولاه « أمير المؤمنين » لا يريد شيئاً فى تلك اللحظة لأن كلمة وزيره قد ردته إلى شىء من حسن الإدراك لحقيقة موقفه بالنسبة لأولئك الملوك الذين يدينون له بالطاعة والولاء — فيما يصف الوزير — ويخطبون باسمه على المنابر ، فيقنع بمظهر الجاه عن حقيقة السلطة ، ويدخل رأسه فى ذلك الطوق من القش ، ليتخذه زينة من زيناته الملوكية ! . .

ويقهقه القدر قهقهة ساخرة ، حين ينظر أولئك الملوك بعضهم إلى بعض ذات يوم ، فإذا فى صدر كل منهم طوق يزينه ، كذلك الطوق العتيق الذى يتحلى به صدر الخليفة فى « بغداد » . .

وأضى خليفة المسلمين منذ ذلك اليوم رجلا بلا سلطة ولا جاه . .
بلى ، قد بقى له العرش المذهب ، والتاج المرصع بالجواهر ، وبين يديه الخدم والحشم والغلمان والجوارى ، ولكنه لا يملك من أسباب السلطة والجاه غير ذلك المنظر الباهر ! ....

واستنام الخلفاء إلى النعيم فى قصورهم ، فناموا عن الملوك وعن الرعية ! . . .

وكان يتردد بين جدران دور الخلافة فى « بغداد » بين حين وحين ، صدى لحن كان يغنيه منذ سنين خليفة منهم ، صنعه شعرا ، وغناه لحنا وبكاه دمعا ، وذلك قوله :

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما قل ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا ... وما من ذاك شىء فى يديه
إليه تحمل الأموال طرا ... ويمنع بعض ما يجبى إليه

* * *

أيها السادة !...

كذلك تغلغل الوهن فى جسم الدولة ، فانحلت عروتها ، وتفرقت وحدتها ، وعاد ملوكها بعضهم لبعض عدو .

أليست هذه الحركات الانفصالية المتتابعة قد جعلتها دولا وكانت دولة . . عروشاً وكانت عرشاً . . جيوشاً وكانت جيشاً موحد الخطة والقيادة . . قوميات وأجناس وكانت قوميتهم العامة هى الإسلام ؟ . فقد انتقض الغزل حين استيقظت العصبيات القبلية ، والقوميات المحلية المحدودة بالحدود الأرضية الضيقة ، ونشطت دعوة الجنس والعنصر والدم ، وعاد الناس يتفاخرون بأنسابهم وقد حرمها الإسلام ، وإذن فهى النكسة ، فإن كل ملك من ملوك أولئك القبائل ، أو أولئك الشعوب كان يحرص على توسيع رقعة ملكه ، ويستنفر رعيته للدفاع عن أرضهم ووطنهم ، فسالت دماء المسلمين على سيوفهم ، ومات بعضهم

بأيدى بعض . . فلما أخذ الوهن من كل منهم مأخذه ، وثب عليهم « الصليبيون » بجموعهم من « أوربا » ، ودهمهم « التتار » بجيوشهم الزاحفة من أقصى المشرق ، فوقعوا بين الشرين ، وحينئذ استيقظوا من نوم ، وصحوا من غفلة ، ليتداعوا إلى الوحدة ، وإلى التعاون ، وتوجهوا بقلوبهم إلى خليفة المسلمين فى « بغداد » ليسلموا إليه القيادة ، ولكن خليفة المسلمين فى « بغداد » حين بلغه الصريخ لم يكن له قلب يعى ، ولا أذن تسمع ، ولا لسان يجيب ، فقد كان صريعا تحت سنابك خيل « التتار » فى بغداد !...

وحلت بالمسلمين الكارثة !...

منذ ذلك اليوم بدأت الفجوة تعمق فى التاريخ بين الماضى والحاضر وما تزال تعمق!...

إنها اليوم هاوية سحيقة بعيدة القرار ، لو وقف المتأمل على حافتها لأنكر عقله أن شيئاً مما كان فى ذلك الماضى قد كان . إن ذلك البون الشاسع البعيد ، الذى يغلفه الظلام ، وتتراقص فى قاعه الأوهام الراعبة والأشباح المخيفة ، لا يمكن أن يصدق العقل أنه كان يوماً ما أرضا مستوية اجتازها جيل من الخلق من زمان إلى زمان ....

هأنذا أعود إلى التكذيب والإنكار ! ... إن ماضينا — ذاك الذى يصفونه — لم يكن إلا خرافة ! .. خرافة لم يكن لها وجود قط فى هذا الكون ، أبدع صورتها عقلى فنان كبير ، ثم أملى خرافته تلك على

أهل التاريخ بخبث ، فصدقوها بغفلة ، وجئنا نحن نقرؤها فى هذا الزمان ببلاهة ، فنكاد نصدق ؛ ثم نكاد ننكر ؛ ثم نخرج من حيرتنا بين التصديق والإنكار بالبكاء ؛ وذرف الدموع ، ونظم أشعار الأسى والأسف واللهفة ، كما يفعل اليهود عند مبكاهم — ذاك الذى زعموا أنه كان جداراً فى « هيكل داود » ! . .

خرافة ، ولكن بعض الخرافات أحيانا يصنع الحقائق ؛ فصدقوها على أنها خرافة ، أو على أنها حقيقة كالخرافة ، ثم حاولوا أن تجعلوها صدقاً ، إن كان لم يزل فيكم قوة المسلم . . . المسلم الذى يؤمن بأن الأرض كلها وطنه ، وأن كل مسلم أخوه ، وإن جنسه هو الإسلام ، لا عصبية دم ، ولا عصبية جنس ، ولا عصبيـــة أرض ، ولكنه الإسلام والتقوى ! . . . لا شىء من أمجاد الأرض ، ولا شىء من جاه التأمر والسلطة ، يمكن أن يحمله على التنكر لأخيه وإنكار أخوته ، حتى اختلاف الرأى فى شئون الدين ، أو فى شئون الدنيا ، لا يمكن أن يحمله شىء منه على مباعدة أخيه ، أو على التنكر له وإنكار أخوته . أو على محاولة الإنفصال منه .

لقد كان أول الوهن فى الإسلام دعوة انفصالية ، دعاها سيدمن سادة المسلمين ؛ حرصاً على استقلال قومه ، أو حرصاً على بلوغ جاه بعرش وتاج وصولجان ، ولكن هذه الحركة الانفصالية ، الاستقلالية ، القومية ، الماجدة — كانت هى أول الوهن ، وكان آخرها الانحلال والسقوط والذلة

كان أولها قوة وآخرها ضعفا . . . كان أولها العرش المستقل ، وكان آخرها وطأة المستعمر بالحذاء النجس على هذا الأرض الطاهرة . . كان أولها التاج يتخايل ببريقه على جبين سيد من السادة ، وكان آخرها الهوان والمذلة . . كان أولها حركة قومية لقوم يحرصون على كيانهم المستقبل ، وكان آخرها أن ضرب الرق والعبودية والاستعمار على أولئك القوم . . .

أيها السادة !...

قد وصفت لكم أول الوهن فى الإمبراطورية الإسلامية ، فهل يدهشكم أن أضفت إلى ما وصفت كلمة واحدة هى أن تلك الحركات التى بدأ عندها الوهن ، ثم استمر حتى أتى على تلك الامبراطورية من قواعدها ، تلك الحركات كانت تبدأ أبداً على شكل دعوة دينية ، دعوة إصلاح دينى ، أو دعوة هداية ، أو دعوة لتصحيح الوضع الشرعى للخليفة ثم لا تلبث أن تتطور من دعوة دينية إلى دعوة انفصالية ، حتى آلت الإمبراطورية إلى التمزيق ، ثم الانحلال ، ثم الاختلال ، ثم الاحتلال الأجنبى ، ثم الصغار والذلة وامتهان العرض والشرف القومى ! . .

ذلك هو الماضى يحدثكم ، وهذا هو الحاضر بأعينكم ، إلا إن كنتم فى شك من حقيقة ذلك الماضى ، تعتقدونه خرافة من صناعة عقل فنان كبير ، أملاها يخبث على أهل التاريخ ، فصدقوها بغفلة . . . ولكنها إن تكن خرافة ، فإن بعض الخرافات يصنع الحقائق !...

وإذن كانت حركة الانفصال أول الوهن في جسد الدولة العربية حتى انسلخت أوطان صغيرة عن وطننا العربي الكبير ، ولعبت المطامع والأهواء الشخصية دورها ، مما أدى إلى تدخل الأجنبي واستعمار الغربي وضعف في القوى وضياع للأموال والثمرات .

غير أنه كان لابد ، بعد أن مرت بوطننا العربي أحداث وأحداث وجدت قوى وثارت نفوس حرة ؛ أن يعود هذا الضعف إلى قوة ، وأن يعود الانفصال إلى تضامن وترابط ،وأن يعود التفرق إلى وحدة ، وهذا الذى سجله تاريخنا اليوم فى إعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة التى تضم سورية ومصر .

وزارة التربية والتعليم
ادارة الشئون العامة

الجمهورية العربية المتحدة

بسم الله الرحمن الرحيم

"سنشد عضدك بأخيك"

صدق الله العظيم

إنما الشام والكنانة صنوان برغم الخطوب عاشا لزاما

أمنا أمكم وقد أرضعتنا من هواها ، ونحن نأبى الفطاما

نحن فى حاجة إلى كل ما ينمى قوانا وربط الأرحاما

حافظ إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله . . .

الحمد لله فقد تمت الخطوة الأولى . .

الحمد لله فقد تم التوفيق بين الأخوين الشقيقين . . .

هذه هى الخطوة الأولى ثم تتبعها خطوات . . .

الاتحاد بين أجزاء الوطن العربى الممتد من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى .

هذا هو الأمل الذى يداعب قلب كل عربى .

هذا هو الحلم الذى يتمنى كل عربى أن يحققه .

لقد بدأ الأمل يشرق ،

وأخذ الحلم يتحقق ،

فرفرفت الفرحة فى قلوب الشعب العربى . . .

فرحة فى شرق مصر حتى الخليج العربى والإسكندرونة شمالا . .

وفرحة فى غرب مصر حتى مراكش والمحيط الأطلسى .

لقد عمت العالم العربى فرحة وطرب عند أول خطوة خطاها فى سبيل الوحدة .

وها هو الشعب العربى ينتظر الأمل الحلو . . . أن يتحقق .

ها هو الشعب العربى ينظر إلى الوراء وينظر إلى الأمام ، فيرى . . .

يرى العرب أسرة واحدة .

أسرة واحدة فى ماضيهم وحاضرهم ، فى آمالهم وآلامهم ، فى لغتهم وخواطرهم ، فى مشاعرهم ونزعاتهم .

أسرة واحدة تألم حين تألم بقلب واحد ، وتفرح حين تفرح بقلب واحد . . .

أسرة واحدة تريد أن تحقق أهدافها وآمالها . . .

تريد أن تحقق الحلم الجميل !...

الوحدة . . .

الوحدة التى تخلق من الضعف قوة ، ومن الألم أملا ، ومن الفقر غنى .

الوحدة التى تستطيع فى كلمة واحدة أو إشارة واحدة أن تقذف بالاستعمار ودعاة الاستعمار إلى قاع المحيط أو إلى متاهات الصحراء !...

لقد وضع حجر الزاوية ، وأرسى الأساس وبدأ البناء المشيد يرتفع فى سمو وقوة .

فتعال إلىّ يا أخى وضع لبنة فوق لبنة فى بناء هذا الصرح .

تعال إلىّ يا أخى ، وضع يدك فى يدى

تعال إلىّ يا أخى فى العراق ولبنان والأردن .

تعال إلىّ يا أخى فى السعودية واليمن وعمان والكويت .

تعال إلىّ يا أخى . . . فى ليبيا وتونس والجزائر ومراكش .

تعالوا إلىّ جميعاً لنكون — كما كنا دائماً — أسرة واحدة ، ولنكون جميعاً — كما كنا دائماً — إخوة . . .

تعالوا فإن الذئاب النهمة تتربص بنا هنا وهناك !...

تتربص لتنتهز الفرصة ، ولتستغل الهفوة ، ولتهتبل الغفلة .

إنها تتربص ولكننا فى يقظة تقلم أظفار الاستعمار ، وفى قوة تكسر أنيابه !...

إن الذئاب الشرهة تتربص ولكنها تتراجع فى خوف وفزع أمام الوحدة وتنكص فى ضعف وجبن بإزاء الترابط .

فتعالى إلىّ يا أخى . . . تعالى إلىّ !...

* * *

لقد تكونت الجمهورية العربية المتحدة .

وكانت خطوة مباركة .

وستأتى — ولا ريب — من ورائها خطوات .

وكان عملا فذاً فى وصفه ، وحيداً فى صنفه .

لم يسبق له مثيل فى التاريخ .

حكومة تنضم إلى حكومة .

وشعب يترابط مع شعب .

يتحد الأخوان بشعور نابع من القلب ، منبثق من الفؤاد .

رغبة لا يشوبها مطمع ، ولا يدنسها مأرب .

هذا شيء لم يحدث مثله فى التاريخ .

ولكننا نحن العرب .

تنبثق — دائماً — من أعماقنا العلاقات الإنسانية العليا .

وتنبع من أغوارنا المثل السامية .

العلاقات الإنسانية العليا والمثل السامية التي نفهمها نحن . . .
نحن العرب . . . منبع النور ومشرق الهداية ومنارة الأرض .

لا زلنا نضرب الأمثال للناس . . . للناس الذين يتناحرون ويتخاصمون ويتدابرون . . .

للناس الذين يتقدمون — دائماً — إلى الوراء . . . إلى الخراب والدمار .

للناس الذين يأكل بعضهم لحم بعض أحياء .

للناس الذين نسوا الإنسانية فانحطوا إلى أسفل درك فى الحيوانية .

هؤلاء الذين يخلقون من المدنية خراباً ومن التقدم دماراً . . .
الذين لا يعرفون السلم أبدا .

أما نحن . . . نحن العرب ، فقد اتخذنا السلم شعاراً لنسمو فوق المدنية الزائفة ونرتفع فوق التقدم الوضيع

هذا مثل من أمثلة عالية يضربها العرب للناس !...

لقد وضع الذئب بين الإخوة حدوداً مثلما وضعت المدنية بين الأشقاء حيطاناً . . .

حاول هذا أن يفصم الرابطة بين الإخوة ، وحاول ذاك أن يقطع بين الأشقاء الصلة .

ولـكن . . .

ولـكن خاب هذا ، وخاب ذاك ! . . .

وقامت الجمهورية العربية المتحدة . . .

***

وكان التعبير الفذ الذى أذاعه الشيخ المجاهد العظيم ، البطل المخلص الوفى . . . كان تعبيراً صادقاً قوياً عما يختلج فى قلب كل عربى .

هذا التعبير الذى تفجر من أعماق قلب شكرى القوتلى كان معولا زعزع أركان الاستعمار وأرسى قـــواعد الصرح الجديد... الوحدة العربية ...

قال شكرى القوتلى :

« أريد أن أقول لكم — أيها الإخوة — فى هذا الموقف التاريخى

الذى يشرفنا : إننا بإعلاننا وحدة الجزأين العربيين الغاليين والقطرين المجاهدين المناضلين وطناً واحداً فى جميع مرافقه وشئونه ، بلا تفريق ولا تمييز ، وبلا تحديد وبلا تحفظ أننا لم نأت بجديد ، بل إننا نصحح أوضاعاً ونعيدها إلى أصولها ونتجه بذلك كل الاتجاه مع حقيقة الأمة العربية ... وحقيقتهـا كانت وما زالت ، وستبقى إلى الأبد : حرية ووحدة .

« وإننى لعلى إيمان راسخ بأن الأجزاء العربية إذا وعت وتحررت ، تعارفت وائتلفت وتجمعت فتلاقت ، فالألفة هى الأصل والحرية للعرب أمر محتوم لن تستطيع أكف الإنسان العاتى مهما اصطنعت لنفسها من قوى الشر أن تغير قليلا أو كثيراً من أقدار الأمة العربية .

« من أجل هذا أرانى واثقاً كل الوثوق أن وحدتنا القومية هذه نواة ستكبر وتنمو ، وخطوة فى صميم الواقع العربى ستتلوها خطوات .

« ولقد فتحنا نوافذنا للشمس ، وصنعنا صفحات للأجيال القادمة فى أفضل طريق للتحرر والوحدة ...

« هنيئاً للشعب العربى فى مصر وسوريا » !...

* * *



توقيع وثائق الجمهورية العربية المتحدة بالقاهرة

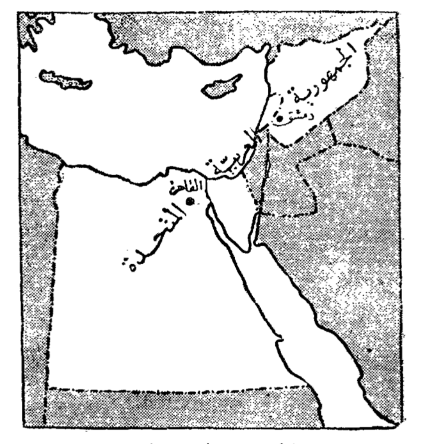
ورفع زعيمنا وقائدنا جمال عبد الناصر صوت العرب عالياً قوياً يعصف بقوى الشر والغدر والأنانية والاستعمار يقول :

« اليوم أيها الإخوة المواطنون . . اليوم يوم خالد فى تاريخنا . . ومرحلة حاسمة فى تاريخنا . . اليوم نشعر أن القومية العربية ستتحقق حقاً . . اليوم ننظر إلى المستقبل ونشعر أنه سيكون بعون الله مليئاً بالعزة ، وبالكرامة . . سننظر إلى المستقبل وننظر إلى الماضى ونقرر فى نفس كل فرد منا ، وفى نفس كل واحد منا أن الماضى لن يعود ، ولن يسيطر علينا مسيطر أبداً . ولن يستبد بنا مستبد ، وأننا سنتجه إلى الأمام لنبنى ونشيد ، ولنرفع من مستوانا ولنزيد من قوتنا ...

إن هذه الجمهورية المتحدة ستكون سنداً للعرب جميعاً ، ستكون قوة للعرب جميعاً ، ستعادى من يعاديها ، وتسالم من يسالمها وتتبع سياسة تنبع من نفسها ، سياسة تنبع من ضميرها .

كانت هذه هى كلمة البطلين اللذين صنعا تاريخاً جديداً للعرب ، وتحية لدماء شهداء قد باعوا نفوسهم فى سبيل حرية بلادهم واستقلالها ومن أجل وحدة الأمة العربية التى صنعها الله لتكون فى الأرض ، قوة للسلام والأمن والرخاء ...

فليشهد التاريخ مولد أمة ، وبعث شعب . . .
وليشهد العالم ، أننا صنعنا تاريخاً جديداً .



الجمهورية العربية المتحدة

إنه تاريخ الملايين من العرب الذين يعيشون من المحيط إلى الخليج ، وملايين العرب الذين سيولدن . إنه تاريخ سيتحدث عنه الآباء والأبناء ، وسيكون تاريخ العظمة والمجد ، وتاريخ البطولة والفداء . . .

الدرس الأول

ألقاه السيد كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم ، على الطلاب والمعلمين في جميع معاهد التعليم بالجمهورية العربية المتحدة ، صباح السبت **١٩** رجب سنة **١٣٧٧** **٨** فبراير (شباط) **١٩٥٨** ليكون الدرس **الأول** بعد استئناف الدراسة .

بسم الله الرحمن الرحيم

أبنائى الطلبة . . .

إخوانى المعلمين . . .

اليوم ، إذ تستقبلون النصف الثانى من عامكم الدراسى ، تستقبلون معه حدثاً جديداً من أحداث التاريخ ، من حقكم أن تباهوا الأجيال بأنكم من شهود مولده . . .

لقد بدأت وحدة العرب ، بميلاد الجمهورية العربية المتحدة . . .

منذ قرون عدة ، يكافح العرب ليبلغوا هذه الغاية . . .

أجيال متعاقبة ، شاركت فى النضال لتحقق وجود أمة عربية متحدة . . .

عشرات الآلاف من الضحايا ، على تعاقب القرون ، سقطوا صرعى فى ميادين الكفاح ، أو ماتوا فى غيابات السجون ، أو لقوا حتفهم غرباء مبعدين عن وطنهم وقومهم ، فى سبيل هذا الهدف . . .

واليوم تشهدون ويشهد العرب جميعاً فى شتى ديارهم تباشير الأمل لتحقيق هذا الحلم الجميل . . .

لقد اتحدت سورية ومصر ، فى نظام حكم واحد ، فى وطن واحد ،

بحكومة واحدة وعلم واحد ، فاليوم يقول كل مصرى ، كما يقول كل سورى : أنا عربى ، من أبناء الجمهورية العربية المتحدة . . .

لقد زالت القيود والسدود والحواجز التى فرضها الاستعمار على بلادنا منذ قرون ، ليمزق وحدتنا ويفرق شملنا . . .

ذهب الاستعمار إلى غير رجعة ، فعاد شملنا الموحد فى وطننا الجديد ، الممتد من الفرات إلى حدود ليبيا . . .

وغداً ، حين ينهار سلطان الاستعمار فيما حوالينا من سائر بلاد الأمة العربية ، تزول باقى القيود والسدود والحواجز بين أجزاء الوطن العربى الكبير ، لتقوم الدولة العربية المتحدة ، ممتدة الحدود من شاطىء الأطلسى إلى الخليج العربى . . .

إن أبناء الجمهورية العربية ، فى مصر وسورية ، إذ يلتقون اليوم مواطنين عرباً إخواناً ، لأمة واحدة ووطن واحد ، لينظرون بأمل واستبشار إلى اليوم القريب الذى يلتقى فيه كل أبناء الأمة العربية من الرباط ، إلى الجزائر وتونس ، إلى طرابلس وبنغازى ، إلى يافا وحيفا وبيروت واللاذقية ، إلى عمان ودمشق وبغداد والرياض وصنعاء ، مواطنين عربا إخوانا كذلك ، لأمة واحدة ووطن واحد .

إننا جميعاً مواطنون عرب إخوان ، فرق الاستعمار وطننا أوطانا ، ليغلبنا على أمرنا بالفرقة ، ويستغلنا ، ويسلبنا خيرات بلادنا ، ويتخذنا أتباعا نتحرك بإرادته ونخضع لأمره ، فالآن قد آن الأوان لتعود هذه

الأوطان المتفرقة وطناً واحداً ، يستظل براية واحـدة ، هى راية الأمة العربية المتحدة ، وكانت أول هـذه الوحدة ، جمهوريتنا العربية المتحدة ، التى أعلن ميلادها منذ أيام ، شكرى القوتلى وجمال عبد الناصر . . .

أبنائى الطلبة . . .

إخوانى المعلمين . . .

لقـد حان الوقت لنتدبر أمرنا وننظر فى قدراتنا وكفايتنا كأمة متحدة ذات ماض مجيد ، وحاضر سعيد ، ومستقبل حافل بأسباب الأمل وموجبات العمل . . .

إن مئة مليون من العرب ، يظلهم لواء واحد ، فى وطن واحد ، يمتد من شاطىء الأطلسى إلى شاطىء الخليج العربى ، يمثلون دولة أعظم من كل دولة عظمى فى أوربا . . .

بلاد فيها الخصب ، وفيها المعادن والبترول وخامات الصناعة ، وفيها الطاقة على الإنتاج ، وفيها أسواق الاستهلاك والتجارة . . .

وشعب فيه القدرة والكفاية ، وفيه الإيمان والعزيمة ، وفيه الأمل والثقة بالمستقبل .

ذاك شعبنا وتلك بلادنا ، فما أجدرنا حين تجمعنا الوحدة الشاملة أن نكون دولة من أكبر دول العالم وأبعدها أثراً فى تاريخ الحضارة ومستقبل الإنسانية !

لقد بدأت هذه الدولة الكبرى يوم ميلاد الجمهورية العربية المتحدة باندماج مصر وسورية ، وذلك هو الحدث العظيم الذى نستقبله وتستقبلونه اليوم ، فرحين مستبشرين ، مفعمين بالأمل ، متحفزين للعمل ، مباهين الأجيال بأننا من شهود مولد هذا الحادث العظيم فى تاريخ الأمة العربية . . .

أبنائى الطلبة . . .

إخوانى المعلمين . . .

إن الملايين من إخوانكم فى كل قرية وكل مدينة من بلاد الجمهورية العربية المتحدة ، من أرض الجزيرة وشاطىء الفرات ، إلى حماة وحمص على شاطىء نهر العاص ، إلى دمشق على ضفاف بردى ، إلى حدود الجزء المغتصب من أرض فلسطين ، إلى القاهرة والأقصر وأسوان على شاطىء النيل ، إلى بورسعيد والإسكندرية ومرسى مطروح والسلوم — تنبض اليوم قلوبهم بالآمال الكبيرة التى تنبض بها قلوبكم ، لمستقبل الأمة العربية وتنطوى جوانحهم على مثل العزيمة الصادقة التى تنطوى عليها جوانحكم للعمل لمستقبل الأمة العربية . . .

إن عليكم جميعاً منذ اليوم واجباً جديداً . . .

لقد أسهمتم بإخلاص وجد فى حركات الكفاح التى توجها بالنصر ميلاد الجمهورية المتحدة ، ولكن وراء هذه الغاية التى بلغناها غايات أخرى يجب أن نضاعف الكفاح حتى نبلغها . . .

إن الاستعمار لم يزل يحول بين إخوان لكم فى بلاد عربية كثيرة وبين الانضمام إلى هذه الوحدة . . .

وإن أجزاء كثيرة من وطننا العربى الكبير لم تزل تحت وطأة الاستعمار يباعد بينها وبين أرض الوحدة . . .

إن « كورنيش » العرب يجب أن يمتد على شاطىء البحر المتوسط من طنجة إلى الأسكندرونة ، لا يقطعه استعمار فرنسى فى الجزائر ، ولا استعمار صهيونى فى فلسطين . . .

تلك أجزاء من وطننا يجب أن تتحرر ، لتتم لنا وحدة الوطن العربى كما تمت وحدة الشعب العربى . . .

إن إخواننا فى البحرين ، وعمان ، وعدن ، وسائر الأجزاء الجنوبية من أرض اليمن ، لم يزالوا يكافحون للخلاص من الاستعمار لينضموا بجهودهم ومواردهم إلى الأمة العربية المتحدة . . .

إن مصادر الثروة الطبيعية من أرض العرب فى الشرق والغرب ، يجب أن تتحرر من الاستغلال الأجنبى ، لتعود ثروة العرب للعرب ، وتكون مقدرات الأمة العربية العظمى فى أيدى أبنائها ، ليعملوا لسعادتها ورفاهية شعبها . . .

ذلك واجبكم جميعاً طلاباً ومعلمين فى سائر الجمهورية العربية المتحدة ، أما الشباب منكم فلغدهم القريب يعملون ، لأنهم فى ذاك الغد القريب

قادة الأمة العربية المتحدة ، لهم مجدها ، ورغدها ، وعليهم عبء العمل لها ، وأما المعلمون فهم جميعاً منذ اليوم معلم واحد ، فى شعب عربى واحد يهيء أجيال الغد لحمل تبعاتها والنهوض بواجبها للمستقبل القريب والبعيد . . .

إن الجمهورية العربية المتحدة هى الدرس الأول اليوم فى كل معهد من معاهد التعليم ، يتلقاه الشباب عن معلميهم ، وكل مابعده من دروس اليوم والغد فهو بسبيل هذا الدرس الأول ، وبناء عليه ، وامتداد له ، حتى تثبت فى كل نفس حقيقة كبرى من حقائق العلم ، توشك بجهاد الشباب والمعلمين وغير الشباب والمعلمين من المواطنين العرب أن تصير — مرة أخرى — حقيقة من حقائق الحياة الواقعة ، هذه الحقيقة التى نؤمن بها ، ونعمل لها ، هى أن العرب أمة واحدة ، ووطن واحد . . .

الجمهوريّة العربيّة المتّحدة

دولة كبرى فى الشرق الأوسط . . .

ليست دخيلة فيه ولا غاصبة . . .

ليست عادية عليه ولا مستعدية . . .

دولة تحمى ولا تهدد . . .

تصون ولا تبدد . . .

تقوّى ولا تضعف . . .

توحد ولا تفرق . . .

تسالم ولا تفرط . . .

تشد أزر الصديق . . .

تردّ كيد العدو. . .

لا تتحزب ولا تتعصب . . .

لا تنحرف ولا تنحاز . . .

تؤكد العدل وتدعم السلام . . .

توفر الرخاء لها ، ولمن حولها ، وللبشر جميعا . . .

جمال عبد الناصر

إعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة

في اليوم الأول من فبراير سنة ١٩٥٨ عقدت جلسة تاريخية في القاهرة وكانت مشهداً حافلا من مشاهد العظمة والمجد ، إنها جلسة سجلها التاريخ ووعاها الزمن إذ أنها تمثل حدثاً فاصلا في حياة العرب اليوم ، وشهد هذه الجلسة أبطال من سوريا وأبطال من مصر قد ساروا مع قضية العرب سنين عديدة وأبطال قد جاهدوا في سبيل العرب سنين عديدة ، وأبطال قد وعوا تاريخ العرب وعملوا على تثبيت حقهم في الحرية والسلام والرخاء والرفاهية ، وكان المشهد حافلا حقاً إذ أطلت عليه سنون طويلة من سني الكفاح والجهاد ، وأطلت عليه أرواح مئات الأبطال الذين سالت دماؤهم في سبيل الحرية والاستقلال . في هذا الاجتماع تقرر إعلان ميلاد الجمهورية العربية المتحدة لتحقيق إرادة الشعب العربي ، وتنفيذ ما نص عليه دستور سوريا ومصر .

وفي الخامسة من مساء هذا اليوم وقف السيد صبري العسلي رئيس وزراء سوريا يلقي بياناً عن قيام هذه الجمهورية .

وكان البيان حدثاً جديداً سجل وحدة بين بلدين من بلاد العرب . . نعم وحدة بين أخوين يعيشان على ماض واحد وفي تاريخ واحد ويربط بينهما مصير واحد . . .

وفيما يلي نص البيان الرسمي بإعلان الجمهورية العربية المتحدة .

* * *

فى جلسة تاريخية عقدت فى قصر القبة فى القاهرة فى ١٢ من رجب سنة ١٣٧٧ هـ . الموافق أول فبراير سنة ١٩٥٨ . اجتمع فخامة الرئيس شكرى القوتلى رئيس الجمهورية السورية وسيادة الرئيس جمال عبد الناصر رئيس جمهورية مصر . بممثلى جمهوريتى سورية ومصر السادة صبرى العسلى ، عبد اللطيف البغدادى ، خالد العظم ، زكريا محيى الدين ، حامد الخوجة ، أنور السادات ، فاخر الكيالى ، مأمون الكزبرى . حسين الشافعى ، أسعد هارون . الفريق عبد الحكيم عامر ، صلاح الدين البيطار ، كمال الدين حسين ، خليل الكلاس ، نور الدين طراف ، صالح عقيل ، فتحى رضوان ، اللواء عفيف البزرى ، محمود فوزى ، كمال رمزى استينو ، على صبرى ، عبد الرحمن العظم ، محمود رياض .

وكانت غاية هذا الاجتماع أن يتداولوا فى الإجراءات النهائية لتحقيق إرادة الشعب العربى ولتنفيذ ما نص عليه دستور الجمهوريتين ، من أن شعب كل منهما ، جزء من الأمة العربية . لذلك تذاكروا ما قرره كل من مجلس الأمة المصرى ومجلس النواب السورى ، من الموافقة الاجماعية ، على قيام الوحدة بين البلدين ، كخطوة أولى ، نحو تحقيق الوحدة العربية الشاملة ، كما تذاكروا ما توالى من السنين الأخيرة . من الدلائل القاطعة على أن القومية العربية كانت روحاً لتاريخ طويل ، ساد العرب فى مختلف أقطارهم . والحاضر مشترك بينهم ومستقبل مأمول من كل فرد من أفرادهم .



فرحة الشعب بإعلان الجمهورية العربية المتحدة

وانتهوا إلى أن هذه الوحدة التي هي ثمرة القومية العربية هي طريق العرب إلى الحرية والسيادة ، وسبيل من سبل الإنسانية للتعاون والسلام . ولذلك فإن واجبهم أن يخرجوا بهذه الوحدة ، من نطاق الأماني ، إلى حيز التنفيذ ، وفي عزم ثابت وإصرار قوي . ثم خلص المجتمعون من هذا كله إلى أن عناصر قيام الوحدة بين الجمهوريتين السورية والمصرية وأسباب نجاحها ، قد توافرت . بعد أن جمع بينهما في الحقبة الأخيرة كفاح مشترك زاد معنى القومية وضوحاً ، وأكد أنها حركة بناء وتحرير وعقيدة وتعاون وسلام .

لذلك يعلن المجتمعون اتفاقهم التام ، وإيمانهم الكامل ، وثقتهم العميقة ، في وجوب توحيد سورية ومصر ، في دولة واحدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة .

كما يعلنون اتفاقهم الإجماعي على أن يكون نظام الحكم في الجمهورية العربية ديمقراطياً رئاسياً ، يتولى فيه السلطة التنفيذية رئيس الدولة يعاونه وزراء يعينهم ويكونون مسئولين أمامه ، كما يتولى السلطة التشريعية مجلس تشريعي واحد ويكون لهذه الجمهورية علم واحد ، يظل شعباً واحداً ، وجيشاً واحداً ، في وحدة يتساوى فيها أبناؤها في الحقوق والواجبات ، ويدعون جميعاً لحمايتها بالأنفس والمهج والأرواح ، ويتسابقون لتثبيت عزتها وتأكيد منعتها . وسيتقدم كل من فخامة الرئيسين شكري القوتلي وجمال عبد الناصر ببيان إلى الشعب يلقي أمام

مجلس النواب السورى ومجلس الأمة المصرى ، فى يوم الأربعاء ١٦ من رجب سنة ١٣٧٧ الموافق ٥ من فبراير سنة ١٩٥٨ ، يبسطان فيه ما انتهى إليه هذا الاجتماع من قرارات ويشرحان أسس الوحدة التى تقوم عليها دولة العرب الفتية .

كما سيدعى الشعب فى مصر وسورية إلى استفتاء خلال ثلاثين يوماً على أسس الوحدة وشخص رئيس الجمهورية .

والمجتمعون إذ يعلنون قراراتهم هذه يحسون بأعمق السعادة وأجمل ألوان الفخر ، إذ شاركوا فى الخطوة الإيجابية ، فى طريق وحدة العرب حقبة بعد حقبة وجيلا بعد جيل ، والمجتمعون إذ يقرون وحدة البلدين يعلنون أن وحدتهم تتوخى جمع شمل العرب ، ويؤكدون أن باب الوحدة مفتوح لكل بلد عربى يريد أن يشترك معها فى وحدة أو اتحاد يدفع عن العرب الأذى والسوء ويعزز سيادة العروبة ويحفظ كيانها . والله نسأل أن يكلأ هذه الخطوة ، وما يتلوها من خطوات بعين رعايته الساهرة ، وبفضل عنايته السابغة ، وأن يكتب للعرب النصر فى ظل الوحدة والعزة والسلام .

* * *

لقد كانت هذه الوحدة ثمرة القومية العربية التى حققت وجودها منذ تاريخ بعيد على مدى عصور طويلة وفى ظل عالم واحد هو العالم العربى وليس بجديد أن نقول إن هذه القومية العربية كانت وما زالت

واقعاً حياً نعيش فيه وحقيقة بارزة ظاهرة انبثق شعاعها شرقاً وغربا ، فألفت بين شعوب وربطت بين دماءوأحكمت أواصر القربى بين أشقاء .

ثم كانت هذه الوحدة كذلك ، نتيجة لازمة لتطور مستمر يقررها العلم ، ويؤيدها التاريخ ، وهى مع ذلك وحدة حية تفيض بأسباب التطور والتقدم .

ومن أجل هذا انبنت عليها آمال الأمة العربية كلها وعقدت عليها آمال الإنسانية جميعاً فهى طريق إلى الحرية والسيادة قد استيقنه كل عربى مخلص عامل من أجل حريته وكرامته ومن أجل حرية بلاده واستقلالها ، وهى سبيل التعاون والسلام بين الشعب العربى وشعوب العالم كله . . .

لقد كانت القومية العربية روحاً لتاريخنا الطويل وهى روح لحاضرنا المشترك ولمستقبلنا المأمول وأنت وأنا وكل عربى نعرف أن التاريخ قد ربط بيننا برباط مكين ، يبننا الدم الواحد وبيننا الأمل الواحد ، وقد أصابنا ألم واحد . .

وأنت وأنا وكل عربى نعرف أنالقومية العربية قد جمعت بين شعوب العرب على تباعد ديارها وتنائى أوطانها فهل أذكرك بأحداث التاريخ ؟ . قلب صفحة من صفحات التاريخ القديم أو الحديث تجد أن روحاً واحدة كانت تسرى فى كل عربى ، وتقوم كل عربى وتدفع كل عربى إلى حياة حرة كريمة .

ومن أجل هذا ، كان إعلان قيام الجمهورية العربيةالمتحدة حدثاًعظيما

من أحداث التاريخ تحققت به آمالي وآمالك ، وكانت ثمرة جهادي وجهادك ، وقضت على أسباب الفرقة والتفكك التي عمل لها عدوي وعدوك .

انظر لقد تقرر لأول مرة في التاريخ اتحاد بلدين برغبة شعبيهما وعن طريق سلمي اتحاداً تاماً شاملا ، وتقرر أن يكون نظام الحكم ديمقراطياً وأن يكون للدولة رئيس واحد ومجلس تشريعي واحد وعلم واحد يظل شعباً واحداً يحميه جيش واحد . .

انظر ، لم يعد للعدو وجود بيننا ولا لأعداء أنفسهم وجود بيننا . لقد انتهت الفردية والأنانية في ظل الوحدة ومن أجل التعاون والسلام والحرية والسيادة . .

ولقد توافرت عندي وعندك عناصر قيام الوحدة بيننا وتوافرت أسباب النجاح لي ولك .

انظر في أية ناحية من نواحي حياتك تجد اتفاقاً بيني وبينك في كل شيء ، وتجد أسباب النجاح مهيأة لي ولك .

فقد علمني وعلمك معلم واحد ، وثقفنا ثقافة واحدة ، وتحدثنا بلغة واحدة ، وجرت في عروقنا دماء واحدة .

هل نعود إلى آبائنا العرب فنتحدث عن هجرتهم إلى بلدي وبلدك ، وصنعهم لتاريخي وتاريخك ؟ هل أحدثك عن بلادي التي تعرفها أو أتحدث عن بلدك الذي أعرفه ؟ وهل أتحدث عن مصلحتي

ومصلحتك ، ونحن نعيش حياة واحدة ، ونعمل لهدف واحد ؟ .

لنرجع إلى أيام الكفاح التى جمعت بيننا فى سبيل حريتى وحريتك وسيادتى وسيادتك ، ورخائى ورخائك . . إنها واحدة ، معارك واحدة ، وقضايا واحدة ، عملنا لها معاً ، وبذلنا لها معاً . وجنينا ثمرتها معاً ، حين أرادوا الاعتداء عليك اعتدوا على ، وحين أرادوا سرقتى سرقوك ، وحين أرادوا استعبادى استعبدوك ، وحين عادونى عادوك ، فكان مصيرى ومصيرك .

وقد نهضنا معاً ودافعنا معاً لنبعد عدوى وعدوك ، ونقضى على أعداء العرب جميعاً .

إننا نبنى للحاضر والمستقبل معاً ونعمل فى سبيل حريتنا معا ، فعقيدتى هى عقيدتك ، ورأيى هو رأيك، من أجل مصلحتى ومصلحتك، وسلامتى وسلامتك .

ومن أجل ذلك كان قيام الجمهورية العربية المتحدة .

ولم نكن أثرين فإننا نعرف أن مصلحة العرب جميعاً فى وحدتهم ، ولهذا كان عملى وعملك من أجل جمع شمل العرب جميعاً ، وهذا بابى وبابك قد فتح لكل عربى يريد أن ينضم إلينا ، وهذا بابى وبابك مفتوح لكل شعب عربى يريد أن يشترك معنا فى وحدة مثل وحدتنا تامة شاملة ، وهذا بابى وبابك مفتوح لكل شعب عربى يريد أن يشترك معنا فى اتحاد عام ليختار لنفسه ما يريد من وضع خاص فأنا وأنت نعمل

ثم يعمل كل عربي لدفع الضر والأذى والبغى والعدوان عن الأمة العربية كلها ، وتقرير سيادة العرب فى كل مكان .

ومن أجل ذلك كان إعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة حدثا عظيما فى تاريخ العرب، وفى تاريخ البشرية ، وفى تاريخ الشعوب المكافحة المناضلة التى تريد أن تنعم بحياة الحرية والاستقلال والرخاء . .

خطاب الرئيس جمال عبد الناصر

فى مجلس الأمة المصرية

وفى مساء الأربعاء ألقى السيد الرئيس جمال
عبد الناصر الخطاب الآتى فى مجلس الأمة

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة .

فى حياة الشعوب ، أجيال يواعدها القدر ، ويختصها دون غيرها بأن تشهد نقط التحول الحاسمة فى التاريخ .

إنه يتيح لها أن تشهد المراحل الفاصلة فى تطور الحياة الخالدة ، تلك المراحل التى تشبه مهرجان الشروق حين يحدث الانتقال العظيم ساعة الفجر من ظلام الليل إلى ضوء النهار .

إن هذه الأجيال الموعودة تعيش لحظات رائعة .

إنها تشهد لحظات انتصار عظيم لم تصنعه وحدها ، لم تتحمل تضحياته بمفردها ، وإنما هى تشهد النتيجة المجيدة لتفاعل عوامل أخرى كثيرة واصلت حركتها فى ظلام الليل ووحشته وعملت وسهرت وظلت تدفع الثوانى بعد الثوانى إلى الانتقال العظيم ساعة الفجر .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة .

إن هذا الجيل من شعب مصر ، من تلك الأجيال التى واعدها القدر لتعيش لحظات الانتقال العظيمة التى تشبه مهرجان الشروق .

لقد عشنا ساعة الفجر ، ورأينا انتصار النور الطالع على ظلمات الليل الطويل .

لقد عشنا فجر استقلال .

وعشنا فجر الحرية .

وعشنا فجر العزة والكرامة .

وعشنا فجر القوة .

وعشنا فجر الأمل فى بناء مجتمع سعيد .

واليوم نعيش فجراً جديداً رائعاً .

لقد بدأ مشرق الوحدة .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة .

لقد سبق كل فجر شهدنا مطلعه ليل طويل .

لقد سبقت فجر الاستقلال وفجر الحرية وفجر العزة وفجر الكرامة وفجر القوة وفجر الأمل ، ليالى طويلة امتدت مئات السنين فى صراع مستمر مع ظلام الاستعمار والاستبداد والظلم والضعف .

ليالى عاشتها أجيال قبلنا وقاست أهوالها وتحملت مصاعبها لكى تقرب منا اللحظات الرائعة للانتقال العظيم .

وكذلك هذا الفجر الذى نشهد اللحظة مطلعة .

إن الليل الذى سبق فجر الوحدة هو دون شك أطول ليالى كفاح أمتنا العربية ؛ ذلك أن الأمل الذى يتحقق لنا اليوم هو أقدم آمالنا .

إن تاريخ الوحدة فى عمر أمتنا ، هو نفس عمر تاريخ أمتنا .

لقد بدأ معها منذ بدأت ، نشأ على نفس الأرض ، وعاش نفس الحوادث ، وندفع إلى نفس الأهداف ، فلما استطاعت أمتنا أن ترسى قواعد وجودها فى هذه المنطقة وتثبت دعائم هذه القواعد كان مؤكداً أن الوحدة قادمة وأن موعدها بات قريباً .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة .

لقد كان الكفاح من أجل الوحدة هو نفسه الكفاح من أجل القوة ، من أجل الحياة .

ولقد كان التلازم بين القوة والوحدة أبرز معالم تاريخ أمتنا .

فما من مرة تحققت الوحدة إلا تبعتها القوة ، وما من مرة توفرت القوة إلا كانت الوحدة نتيجة طبيعية لها .

وليس محض صدفة أن إشاعة الفرقة وإقامة الحدود والحواجز كان أول ما يفعله كل من يريد أن يتمكن فى المنطقة ويسيطر عليها .

وكذلك لم يكن محض صدفة أن محاولات الوحدة فى المنطقة لم تتوقف منذ أربعة آلاف سنة ، طلباً للقوة ، بل طلباً — كما قلت — للحياة .

ولقد كان أسلوب السعى إلى الوحدة يتشكل بالخطر الذى تعيش فيه كل محاولة لتحقيقها ، ولكن الهدف ظل دائماً لا يتغير وبقيت الغاية فى كل وقت هى اللحظات التى نعيشها الآن .

لقد اتحدت المنطقة بحكم السلاح يوم كان السلاح هو وسيلة التعبير فى الطفولة الأولى للبشرية .

واتحدت المنطقة بيقين النبوات حين بدأت رسالات السماء تنزل إلى الأرض لتهدى الناس .

واتحدت المنطقة بسلطان العقيدة حين اندفعت رايات الإسلام تحمل رسالة السماء الجديدة وتؤكد ماسبقها من رسالات وتقول كلمة الله الأخيرة فى دعوة عباده إلى الحق .

واتحدت المنطقة بتفاعل عناصر مختلفة فى أمة عربية واحدة .

واتحدت المنطقة باللغة يوم جرت العربية وحدها على كل لسان .

واتحدت المنطقة تحت دافع السلامة المشتركة يوم واجهت استعمار أوروبا يتقدم منها محاولا أن يرفع الصليب ليستر مطامعه وراء قناع من المسيحية ؛ وكان معنى الوحدة قاطعاً فى دلالته حين اشتركت

المسيحية فى الشرق العربى فى مقاومة الصليبيين جنباً إلى جنب مع جحافل الإسلام حتى النصر .

واتحدت المنطقة بالمشاركة فى العذاب يوم حات عليها غارات الغزو العثمانى وأسدلت من حولها أستار الجهل تعوق تقدمها وتمنعها من الوصول إلى عصر النهضة فى نفس الوقت الذى بدأ فيه عصر النهضة فى أوروبا .

بل إن المنطقة اتحدت فيما تعرضت له فى كل نواحيها من سيطرة الاستعمار عليها ، ثم كان اتحادها فى الثورة على هذا الاستعمار بكل أشكاله ومقاومته فى تعدد صوره .

ومع الوحدة فى الثورة كانت الوحدة فى التضحيات ، فإن المشانق التى نصبها جمال باشا فى دمشق عاصمة سورية لم تكن تختلف كثيراً عن المشانق التى نصبها اللورد كرومر فى دنشواى هنا فى مصر .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة .

هكذا ترون الوحدة حقيقة . . حقيقة نسعى إليها ، أو حقيقة قائمة بالفعل.

وهكذا ترون أن الصراع من أجل القوة ، من أجل الحياة ، يتم ويتحقق بالوحدة ،أو ترون الوحدة لا تتم ولاتتحقق إلا بالقوة ، بالحياة .

هكذا ترون أن تاريخ القاهرة فى خطوطه العريضة هو بنفسه تاريخ دمشق فى خطوطه العريضة .

ولقد تختلف التفاصيل ، ولكن المعالم البارزة هى نفس المعالم .

نفس الدول ، نفس الغزاة ، نفس الملوك ، نفس الأبطال ، ونفس الشهداء .

بل إنه لما بدا فى بعض الأحيان أن مصر ابتعدت عن الفكرة العربية وقطعت ما بينها وبين المنطقة من صلات ، وذلك بعد الحملة الفرنسية على مصر ، ثم تحت حكم أسرة محمد على ، لم يكن الأمر فى باطنه يمثل ما يبدو فى ظاهره .

لم يكن البعد إلا سطحياً ، ولم تكن القطيعة إلا باللسان .

أما الشواهد الحقيقية ، وأما الأدلة الأصلية ، فكانت تؤكد بأن ما قربه الله لا يمكن أن يبتعد ، وما وصلته الطبيعة لا يمكن أن ينقطع .

من بين الشواهد أو الأدلة أن جيش الفلاحين الذى سار تحت قيادة إبراهيم باشا ليحرر سوريا من الظلم العثمانى كان يسمى نفسه : الجيش العربى .

ومن بين الشواهد أو الأدلة أن القاهرة التى سارعت فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر إلى فتح النوافذ لتيارات النهضة تحولت إلى قلعة الفكر الحر فى الشرق العربى ، ومالبث رواد الحرية فى سورية ورواد الحرية فى المنطقة العربية كلها أن وفدوا إليها يتحصنون بأسوارها المنيعة ويبعثون منها إشعاعات الفكر لتعبىء وتلهم . بل إن القاهرة تحولت فى مطلع القرن العشرين فأصبحت هى ودمشق المركز الرئيسى

للجمعيات السرية التي راحت تناضل جبروت سلاطين استنبول من أجل تحرير الأمة العربية بكل ما يملكه الشباب من روح البذل والفداء .

هكذا كانت الوحدة في الحقيقة وكان كل ما عدا الوحدة اصطناعاً .

وهكذا كان واضحاً أنه إذا تركت المنطقة تستوحي طبيعتها وتستلهم مشاعرها وتستمع إلى دقات قلبها فإن اتجاهها إلى الوحدة يصبح لاريب فيه ولا مناص منه .

وهذا هو ما حدث . . .

أيها المواطنين أعضاء مجلس الأمة .

حين حصلت سورية على استقلالها الكامل تطلعت إلى مصر .

وحين حصلت مصر على استقلالها الكامل تطلعت إلى سورية .

ولقد كان التقارب بل التوافق والتماثل كاملا حتى قبل أن يوقع ميثاق جامعة الدول العربية وحتى بعد أن تم توقيعه وأرادت له بعض القوى أن يبقى حبراً على ورق .

لقد كان في سورية رد فعل لكل حركة في مصر كما كانت أصداء كل الذي يحدث في دمشق تتجاوب في القاهرة .

في مصر وسورية ذلك الفوران الذي أعقب الحرب العالمية الثانية وبدأت على أثره حركات التحرير الهائلة في أفريقيا وآسيا .

في سورية ومصر هذه الهزات العنيفة وراءها جميعاً محاولات تغيير الأوضاع تطلعاً إلى الأفضل والأحسن .

في مصر وسورية ذلك الاندفاع إلى حرب فلسطين بالفروسية

والإيمان ولكن من غير سلاح ، ثم كانت فى القاهرة ودمشق تلك الآثار التى ترتبت على حرب فلسطين والتى كان أولها تلك اليقظة التى تشبه انتفاضة من لسعته النار فاستفاق .

ثم فى سورية ومصر نفس المعارك ؛ ولو قصرنا الحساب على الشهور الاخيرة فقط لكان مدهشاً أن المعارك التى خاضتها دمشق هى نفس المعارك التي خاضتها القاهرة : معركة الاحلاف العسكرية ، معركة السلام ، معركة عدم الانحياز ، معركة المؤامرات ، معركة التحرر الاقتصادى .

بل إن سورية خاضت معركة قناة السويس بنفس العنف وبنفس القوة التى خاضت بها بور سعيد معركة قناة السويس ، وكذلك حاربت مصر معركة التهديدات الموجهة إلى سورية وأعصابها كلها فى دمشق وأمام أعصابها قطعة من جيشها احتل جنودها مراكزهم جنباً إلى جنب مع إخوانهم جنود سورية .

ولقد كان ذلك كله مدهشاً ولكنه لم يكن من وضع الصدف .

لقد مهدت عوامل كثيرة وكبيرة ، نبيلة وعميقة ، لهذا الذى ربط بين مصر وسورية . مهدت الطبيعة ومهد التاريخ ؛ مهد الدم ومهدت اللغة ومهدت الاديان ، ومهدت العقائد ، ومهدت السلامة المشتركة ، ومهدت الحرية .

كذلك اشتركت فى التمهيد له تجارب من الألم والعذاب صنعها فرسان الطغيان الثلاثة : السجن ، والمنفى ، والمشنقة .

ولـكن ذلك كله كان يمهد لهذا الفجر الذى نشهد اليوم مطلعه بعد ليل طويل .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة .

ولقد كان البشير بالفجر هو ذلك القرار الذى اتخذه مجلس النواب السورى واتخذه مجلسكم بالعمل فوراً لتحقيق الوحدة بين مصر وسورية.

كان قراركم هذا تعبيرا عن واقع هائل لا يمكن تجاهله وصدى مستجيب لنداء قدسى لا نستطيع أن نغلق آذاننا دونه .

ولم يكن هذا الواقع موجوداً فى دمشق والقاهرة وحدها ، كذلك لم يكن ذلك النداء القدسى فى هذا النطاق وحده لا يتجاوزه ، وإنما كان الواقع موجوداً فى كل أرجاء الوطن العربى ، وكان النداء هو هدير التيار المتلاطم بالموج ذلك التيار الذى شقت القومية العربية كلها مجراه ووحدت له خط سيره .

وهكذا بدأت فى القاهرة محادثات نهائية لرسم الشكل الخارجى للحقيقة الواقعة .

لقد كانت هذه المحادثات فى القاهرة تجربة جديدة فى التاريخ .

إنها لم تـكن اجتماعاً يتم بناء على رغبة ساسة أو حكام .

وإنما كانت اجتماعات تمت بناء على ضغط وإلحاح ، إرادة عنيدة مصممة صادرة من قلوب الشعوب .

ولقد كان خيراً على أى حال أننا تركنا الأمور تصل إلى هذا المدى ، فلقد كان ينبغى للشعوب أن تأخذ فرصتها كاملة حتى تتثبت من يقينها ، وحتى يترسب إيمانها من الأيام إلى أعماق الأعماق ، حتى تؤكد لها الحوادث والتطورات أن طريق الوحدة هو طريق القوة ، طريق الحياة .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة .

كان معنى محادثاتنا فى القاهرة ، ووصول رائد الوحدة ، بطلها ورافع رايتها المجاهد شكرى القوتلى إلى مصر مع وفد من رفاقه فى الجهاد — كان معناه أن الأوان قد آن ، أن الساعة التى تطلع إليها أجدادنا ، وعمل من أجلها آباؤنا قد دقت أجراسها ، وأنه قد كتب لجيلنا بعد ليل طويل أن شهد مطلع صبحها .

كان معناه أن الذى تخيلوه فى المنى قد أصبح واقعاً ، وأن الذى ذاقوا من أجله الموت قد أصبح هو الحياة نفسها .

كان معناه أن الذى نصبت المشانق لتحول دونه ، قد أصبحت له وحده قوة القانون وقدرته .

كان معناه أن الذى اصطنعت الفرقة بين أجزائه ، قد عاد إلى طبيعته التى أودعها الله فيه ، كلا متجانساً متحداً .

كان معناه أن السلاسل تكسرت ، أن السدود انهارت ، أن

الحواجز سقطت ، وأن الشظايا المتناثرة والأجزاء المتفرقة توشك أن تعود إلى بعضها بل إلى كلها .

كان معناه أن سورية ومصر ، قد قررتا تحمل المسئولية التاريخية التى تهيأنا لها بوصفهما بلدين عربيين خلص زمام الأمر فيهما لأبنائهما ، وتحققت لها فى أراضيهما سيادة حقيقية واستقلال كامل .

كان ذلك هو معنى محادثات القاهرة .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة .

ولقد انتهت محادثاتنا إلى إعلان الوحدة رسمياً ، وتوقيع هذا الإعلان فى يوم السبت الأول من فبراير سنة ١٩٥٨ ، وقد أودع هذا الإعلان التاريخى فى مكتب مجلسكم ، وكانت النتيجة الكبرى له هى توحيد مصر وسورية ، فى دولة واحدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة ، يكون نظام الحكم فيها ديمقراطيا رياسيا ، يتولى فيه السلطة التنفيذية رئيس الدولة يعاونه وزراء يعينهم ويكونون مسئولين أمامه ، كما يتولى السلطة التشريعية ، مجلس تشريعى واحد ، ويكون لها علم واحد ، يظل شعباً واحداً ، وجيشاً واحداً ، فى وحــــدة يتساوى فيها أبناؤها فى الحقوق والواجبات .

ثم كان اتفاقاً بعد ذلك على المبادىء الأساسية التى تقوم عليها الجمهورية فى فترة الانتقال .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة .

هنا لا بد لى من وقفة أتحدث فيها عن دستور ١٦ يناير الذى كان مجلسكم أعظم نتائجه .

إن هذا الدستور خالد ، لم يكن معقولا أن الثورة التى وضعته وأعلنت قيامه منبثقاً من صميم إرادة الشعب وخلاصة تجاربه ترضى لهذا الدستور أن يسقط أو يضيع .

لكن الدستور كما قلت لحضراتكم يوم كان لى شرف الحديث إليكم هنا فى يوم ١٦ يناير الماضى ، ليس مجرد النصوص الجامدة ، وإنما هو الحركة الدائمة اليقظة فى اتجاه المستقبل الذى نسعى إليه ، هو الإطار الذى ينظم هذه الحركة ويجمع صفوفها .

لقد وقعت حركة هائلة جمعت شعبين من أمة واحدة فى جمهورية متحدة ، وكان لا بد أن يتسع الإطار لكى يستطيع أن يضم النطاق الجديد المتسع .

لذلك كان لابد لدستور ١٦ يناير أن يدخل فى تجربة حياة أفسح ، أرحب ، وكذلك كان لابد لمجلسكم الذى كان أعظم نتائج دستور ١٦ يناير أن يدخل نفس التجربة .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة .

قلت لحضراتكم مرة إننا نعتبركم مجلس الثورة الجديد ، باعتبار أن الثورة مستمرة ، وإنه لما يدعو إلى الأمل أن تجربة الشهور القليلة التى

مضت ، منذ بدأ مجلسكم يمارس عمله كانت تبشر بتعاون كامل ، يستهدف صيانة مصالح الشعب ويسعى إلى بناء المجتمع الجديد .

إنه لحق علينا أن نقول لحضراتكم فى هذه اللحظات الفاصلة فى تاريخ شعبنا إنكم كنتم على خير ما كنا نؤمل ونتمنى ، إن مشاركتكم لنا فى المسئوليات كانت خير عون لنا فيما مضينا لتحقيقه من الأمور .

إنه لما يسعدنى ، أن التطور العظيم الذى نعيشه ، لن ينهى صحبتنا فيما نحن مقبلون عليه أكثر اندفاعاً وأكثر صلابة وأعز حدة وتضامنا.

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة .

على أننى أرى أنه من واجبى فى هذه اللحظات أن أصارحكم ، وشعب الجمهورية العربية المتحدة كله معكم ، أن الطريق الذى نقبل عليه طويل وشاق .

إن رحلتنا عليه ليست نزهة نروح بها عن النفس .

وإنما رحلتنا عليه مشاق ومتاعب ، وكفاح وجهاد .

ولكن هذه كلها هى الثمن العادل للأمل الكبير الذى نسعى إليه .

ولسوف يضاعف من مصاعب ماسوف نلقاة أمامنا على الطريق ، أن الذين لاتروقهم وحدة وسورية ومصر ولا توافق أغراضهم ، لن يتقبلوها بالرضا والسكوت ، وإنما ستكون المساعى ، وستكون المحاولات ، وستكون المناورات .

لهذا أقول لكم من الآن ، إننا فى سعينا على طريق أملنا ، يجب أن نظل مفتوحى الأعين منتبهى الحس والوجدان .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة .

إننا نعيش فترة رائعة ، ولكن علينا أن ندرك أن لهذه الفترة الرائعة أخطارها أيضاً .

وربما كانت شهوات أنفسنا هى أكبر الأخطار التى يتعين علينا مواجهتها لقد مرت علينا قرون من الزمان وأحلامنا وأمانينا ورغباتنا وأهدافنا ، حبيسة وراء الحواجز والسدود التى صنعها الاستعمار .

ولقد تهاوت الحواجز والسدود ، لما زال الاستعمار من بلادنا ؛ وهكذا بدأت الأحلام والأمانى والرغبات والأهداف تنطلق من عقالها وتتدافع بسرعة الكبت الطويل فى مثل تدفق الفيضان .

ولقد كان هذا هو التفسير الحقيقى لسرعة الحوادث فى جيلنا ، وهو أمر طبيعى بعد أجيال عديدة مكبوتة ، ولكنه أيضاً تحذير كما هو تفسير .

إنه تحذير بأن من أول واجباتنا أن نقيم من الحكمة خزانات على أمانينا ، ثم نفتح عيونها لمر التيار . . لمر التيار على شكل الفيضان المنظم ولا يقفز فوق رءوسنا كالطوفان العالى الشديد .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة .

إننى واثق أن التجربة التى نواجهها اليوم ، ستحقق كل ما يرجوه لها هؤلاء الذين عملوا لمشرق فجرها ، طوال الليل الموحش المظلم .

وإنه لمما يؤكد ثقتى ، أن الله — تعالت قدرته — قد جمع قلبنا بقلب خير رفيق على طريق ، خير سند فى معركة ، خير قريب ، خير أخ ، خير حبيب . .

لقد أكد شعب سورية بتجارب الأيام ، تجربة بعد تجربة ؛ أنه طليعة القومية العربية ، وأنه رأس الحربة فى اندفاعها ، وأنه الحارس الأمين لتراثها المجيد .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة .

لقد بزغ أمل جديد على أفق هذا الشرق .

إن دولة جديدة تنبعث فى قلبه .

لقد قامت دولة كبرى فى هذا الشرق ، ليست دخيلة فيه ، ولا غاصبة ، ليست عادية عليه ولا مستعدية . .

دولة تحمى لا تهدد ، تصون ولا تبدد ، تقوى ولا تضعف ، توحد ولا تفرق ، تسالم ولا تفرط ، تشد أزر الصديق ، ترد كيد العدو ، لا تتحزب ولا تتعصب ، لا تنحرف ولا تنحاز ، تؤكد العدل ،

تدعم السلام ، توفر الرخاء لها ، ولمن حولها للبشر جميعاً بقدر ما تتحمل وتطيق .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة .

وفقكم الله ، وبارك لكم وحدتكم ، وهى جمهوريتكم العربية المتحدة .

قرار مجلس الأمة

اجتمع مجلس الأمة المصرى ، بعد الاستماع
إلى خطاب الرئيس جمال عبد الناصر ،
واتخذ القرار الآتى :

يعلن مجلس الأمة تأييده الكامل للسياسة التى رسمها السيد الرئيس جمال عبد الناصر فى البيان التاريخى الذى ألقاه بجلسة اليوم الأربعاء ١٦ من رجب سنة ١٣٧٧ الموافق ٥ من فبراير سنة ١٩٥٨ لتحقيق قيام الدولة العربية المتحدة ، تنفيذاً لإرادة الشعب العربى فى سورية ومصر ..

ويرى فى هذه السياسة استجابة كاملة لما قرره مجلس النواب السورى ومجلس الأمة المصرى بالإجماع من قيام الوحدة بين البلدين كخطوة أولى نحو تحقيق الوحدة العربية الشاملة .

ويحيي المجلس — فى هذه اللحظات الخالدة فى تاريخ الأمة العربية — جهاد البطلين العظيمين شكرى القوتلى وجمال عبد الناصر ، هذا الجهاد الذى حقق لأمة العرب أعظم نصر تاريخى ، ترجم أحلام أجيال إلى واقع ملموس بإقامة الدولة العربية المتحدة ، النواة الأولى لإعادة التحام الكيان العربى الواحد الذى مزقه الاستعمار وفرق بينه أعداء القومية العربية .

ويشيد بالروح الوطنية العالية وبالمشاعر القومية النبيلة والتسابق

فى الإيثار والتضحية وإنكار الذات التى سادت جميع من أسهموا فى إقامة هذا الصرح القومى الخالد ، مما يبشر بمتانة الأساس وقوة البناء وتحقيق الخير لكل فرد من أفراد الأمة العربية . .

ويذكر مجلس الأمة ، وقد تحقق للأمة العربية هذا النصر المؤزر ، الشهداء العرب الأبرار الذين سقطوا على مر الأجيال دفاعا عن حرية العرب واستقلالهم ومجدهم وقوميتهم ، فكانوا المشاعل التى أضاءت الطريق حتى أشرق فجر الحرية والعزة والوحدة . .

وإن مجلس الأمة ليرى فى إقامة الدولة العربية المتحدة إيذاناً بفجر جديد ، تتضافر فيه كل الجهود والقوى فى سورية ومصر فى سبيل واحد ونحو هدف واحد بإيمان مشترك لتحقيق مجد العروبة .

خطاب الرئيس شكرى القوتلى

فى مجلس النواب السورى

وفى الوقت نفسه كان السيد الرئيس شكرى
القوتلى يلقى الخطاب الآتى فى مجلس النواب السورى !

أيها النواب المحترمون

أفتتح كلمتى اليوم إليكم فى هذه الجلسة التاريخية ، التى يعقدها مجلسكم الكريم بحمد الله حمداً كبيراً كريماً على ما أفاء علينا وما أحاطنا به من سابغ عنايته ووحد خطانا فى سبيل الصواب وألهمنا الخير والرشاد وأخذ بيدنا أخذاً عزيزاً فى سبيل مرضاته وابتغاء وجهه ووجه الحق حتى رأينا بأعيننا ما كنا نراه بأحلامنا وأمانينا . وتفتحت لنا فى هذه الدنيا آفاق واسعة وآمال جسام . .

إن نضالنا فى سبيل حريتنا كان يمشى جنباً إلى جنب مع نضالنا فى سبيل الوحدة العربية . . فمنذ أن أعلنا جهادنا من أجل تحقيق استقلالنا أعلنا جهادنا على الملأ باسم العروبة . وكانت كل خطوات جهادنا تدفعها شعائر القوة والإيمان والتاريخ المشترك والمصير المشترك فلقد أردنا أن تكون ثورتنا العربية ثورة فى سبيل الحرية والوحدة .

ولقد حاولت الدول الكبرى أن تقف عائقا يحول دون أن يستيقظ

العملاق العربي . وكان المستعمر ينظر إلى بلادنا نظرة فراغ يطمع إلى ملء . ولكن عقيدتنا كانت ولا تزال هي أننا لم نجل الغاصبين ليحل محلهم غاصبون آخرون مهما كان تظاهرهم بصداقتنا ومجاملتنا . ثم أدرك المستعمرون أننا طلاب استقلال ووحدة . فلوحوا لنا بمشاريع مثل سوريا الكبرى والهلال الخصيب ولكننا أدركنا أن هذه المشاريع ليس وراءها إلا ربط شعبنا بعجلة مصالحهم . .

ومهما تكن طبيعة الأحداث الدولية . وتقلباتها خلال الأعوام العشرة الأخيرة . فقد ثبت أن الوعي العربي قد بلغ أشده وما تعرضنا له من مكايد ومخاطر ما هو إلا أحد العوامل الرئيسية التي وحدت هذه الأمة ووضعت رجالها في الخطوط الأمامية إزاء معركة التحرير والوحدة وإنه لما نفخر به اليوم ونحن مقبلون على حدث من أهم الأحداث في القرن العشرين أن السوريين استفادوا من استقلالهم لتدعيم أركان الوحدة العربية .

لقد أعلنت عام ١٩٤٦ ، يوم الجلاء أنه لن يرتفع فوق علم الاستقلال سوى علم الوحدة العربية .

هذه هي مبادئنا . . نضال في سبيل الحرية . . وحرية في سبيل الوحدة . . لن نهادن في جهادنا . . ولن نساوم في مستقبلنا . . ولن ندخر طاقة ولا جهداً في سبيل حريتنا ووحدتنا .

وفى خلال العامين الأخيرين من هذا التاريخ الحافل . تم لقاؤنا القويم مع مصر الثورة .

نعم تم لقاؤنا . فكان لقاء صادقاً عن المبادىء القويمة السامية وعلى أسس صحيحة من سياسة دولية مستوحاة من مصلحتنا القومية العليا .. ومن حرصنا على صيانة معنى السيادة . .

ولقد تعانقت فى التاريخ أرواحنا . . ولكن لقاء اليوم ، هو إعراب عن عزم ونضال تجلى فى وعى شعب عربى حر . . ووحدة هى نقطة اللقاء فى تاريخ العرب الحديث . .

لقد دعم الجبهة السوريةالمصرية عامل جديد من العوامل الخارجية . . حاولت أن تصدعها . . فزادتها صلابة وقوة . .

فى سبيل هذه الحرية والسيادة وعلى هذه المبادىء وبروح كلهاصدق وعزيمة .. توالت انتصاراتنا فى مصر العزيزة . . خلال الشهر الأخير . .

لقد انتهى جهادنا من أجل تحقيق الوحدة العربية . . إلى تلك الجلسة التى عقدت يوم أول فبراير فى قصر القبة . بحضور كامل أعضاء الحكومتين السورية والمصرية . . وأعلنا باسم الله . وباسم الشعب العربى فى كل من الجزأين الغاليين . مولد الجمهورية العربية المتحدة مؤكدين فى البيان التاريخى أن عناصر الوحدة بين الجمهوريتين ، وأسباب نجاحها . قد توافرت بعد أن جمع بينها فى الحقبة الأخيرة كفاح مشترك .. وأثبتت أنها حركة تعمير وتحرير . كما أنها حركة إيجابية فى سبيل وحدة البلدين وتضامنهما .

أيها المواطنون ! ... فى هذا اليوم الخالد من فبراير عام ١٩٥٨ نذيكو قد مر على انتخابى رئيساً للجمهورية من قبل مجالسكم الكريم ، ومنذ طوقتمونى بثقتكم الغالية ، سنتان ونصف السنة ، ومثلما أتيح لى خلال عهد الرياسة الأولى بين عام ١٩٤٣ وعام ١٩٤٦ شرف إعلان الاستقلال وجلاء الأجنبى عن هذا الجزء العربى العزيز ، كذلك أتيح لى شرف أرفع وأدعى إلى الاعتزاز بإعلان مولد الجمهورية العربية المتحدة خلال عهد رياستى هذه بين عام ١٩٥٥ وعام ١٩٥٨ فأرجو أيها الاخوة أن أكون فى اعتباركم وفى اعتبار قادة الشعب العربى العظيم الذى يشرفنى أن أنتسب إليه مواطناً عادياً ، بل أرجو أن أكون فى اعتباركم قد أديت واجبى نحو بلادى وأمتى . وكنت الذى أحمل الثقة التى أوليتمونى إياها خلال هذه الحقبة من الزمن العصيب ، وإن أخطأت فعذرى أننى عملت بصبر وإيمان ودأب وإخلاص . وإننى إنسان وليس الإنسان بمعصوم . وإن فاتنى شرف الاستشهاد ولم أكن بجوار الخالدين من أحرار هذه الأمة ، فأمام الله أشهد أننى لم أجنب نفسى خطراً وقد أراد الله أن ألتقى بأجيال الشباب تتقدم الموكب العربى الطالع ، وفى جهادها وفى جباهها وعود المستقبل المظيم ، تطيب نفسى وتثلج صدرى وتعمر كيانى بسعادة الطمأنينة والثقة ، وإننى إذ أرفع بيدى تلك الشعلة المقدسة لأسلمها فى أوج اشتعالها إلى يد الأجيال الشابة القادرة فى أوج فتوتها وشبابها ، تلك اليد التى تحمل ،

والساعد الذى يرفع والشعلة التى تضىء والجيل الذى يصمد والروح التى تتدفق والمستقبل الذى تبلج فجره وهات للملأ آيته . .

إننى أيها الإخوة الأعزاء إذ أسلم الأمانة الغالية طيب النفس قرير العين واثقاً مطمئناً أرشح لرياسة الجمهورية العربية المتحدة أمام مجلسكم الكريم فى هذه الفرصة القومية التاريخية الرجل المؤمن والقائد العربى الملهم الرئيس جمال عبد الناصر .

أيها الإخوة ، سأكون غداً فى يوم الاستفتاء يوم الواحد والعشرين من شهر فبراير عام ١٩٥٨ أول من يقوم بواجبه كمواطن لانتخاب القائد الذى وضع ثورة مصر فى خدمة القومية العربية كما وضع نفسه فى خدمة أمته ليعمل فى سبيل حريتها ومجدها ورخائها . .

فى هذا اليوم الخالد من فبراير عام ١٩٥٨ وجهت إلى سيادة رئيس مجلس الأمة بمصر الرسالة التالية ؛ وإننى أعتبرها موجهة إليكم فى الوقت نفسه وإلى كل مواطن عربى فى أرض الجمهورية العربية المتحدة ، وقلت له فيها :

سيادة رئيس مجلس الأمة بالقاهرة :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد ، إننى إذ أعلن لمجلس النواب السورى رسمياً مولد الجمهورية العربية المتحدة والميثاق الذى تم الاتفاق عليه بين حكومتى جمهورية مصر وجمهورية سورية فى اجتماعات القاهرة يوم الجمعة أول فبراير سيصبح حلم الأجيال حقيقة واقعة تنفيذاً

لإرادة الجزأين العربيين الغاليين ، وأرى من واجبى ونحن قادمون على الاستفتاء الشعبى المقرر لانتخاب رئيس الجمهورية العربية المتحدة يوم الجمعة ٢١ فبراير عام ١٩٥٨ أن أكون المواطن الأول فى الدولة العربية المتحدة الذى يرشح سيادة الرئيس جمال عبد الناصر رئيساً لها شعوراً منى بالواجب تجاه أمتى وبلادى ، وثقة منى بإخلاص الرجل العربى المؤمن الذى تعقد عليه الأمة أكبر الآمال وتقديراً لما يتمتع به من صفات النزاهة والجرأة والإقدام وعلى رأسها تفانيه فى خدمة أمته وقوميته العربية .

وإننى إذ أرشح سيادة الرئيس جمال عبد الناصر لتسلم هذه الأمانة الغالية أعلن ثقتى واطمئنانى إلى أن سيادته سيعمل على إعلاء شأن الجمهورية المتحدة الفتية بكل تجرد وصدق لما فيه عزها ورخاؤها وسعادة مواطنيها . وما فيه خير العرب ورفاهيتهم فى جميع ديارهم ومساكنهم ، والله ولى التوفيق .

بهذا أيها النواب الكرام ، أتم واجبى وأكون قد أديت الأمانة الغالية التى قد حملتمونى إياها تكريماً وتشريفاً ، وأنا على أشد ما يكون المواطن مغموراً بسرور الرضا .. رضا الله سبحانه وتعالى ورضا ضميرى ورضا أمتى . فإلى مجلسكم الكريم رئيساً وأعضاء أوجه أجزل التحية والشكر لما نهضتم به من أعباء جسيمة وما أنجزتم من تشريعات مفيدة خلال عهد نيابتكم الزاهر ومثلتم شعبكم خير تمثيل وتوجتم أعمالكم

القومية الباهرة بقراركم التاريخى بوحدة مصر وسوريا ، وإلى الحكومة المجيدة العاملة ، إلى رئيسها ووزرائها الذين كانوا فى أيام الشدائد التى مرت بالبلاد خير من يمثل إباء هذا الشعب ووحدته وطموحه وإقدامه أجمل التحية والتقدير لأمتهم بفضل علمهم ومواقفهم وإخلاصهم وإيمانهم تلقوا أعباء الحكم فى البلاد أثناء اجتياز أدق المراحل فى تاريخها الحديث ، وقد بلغوا فى مباحثات الوحدة القومية مع مصر العزيزة أوج التوفيق والنجاح ، وكتبوا بأقلامهم وثيقة الحرية والوحدة .

وإلى الجيش السورى الفتى وضباطه وجنوده أوجه تحيتى وشكرى وإعجابى فقد كان الجيش أعيننا الساهرة وساعدنا العامل ودرعنا الواقية ، وكان القذى فى عيون الأعداء والخوف فى مضاجع رقادهم كما كان فى ميدان التعاون العسكرى عن طريق القيادة السورية المصرية المشتركة خير عامل من عوامل تحقيق الوحدة والقومية بين جيش الجزأين العربيين المناضلين . .

إلى هذا الشعب العربى الحبيب الذى طالما منحنى محبته وأكرمنى بثقته وشجعنى بحماسته وإيمانه وملأ قلبى زهواً وفخراً بأمتى وبلادى . . إلى هذا الشعب الأبى المقدام الذى كان أبداً من وراء كل شجاعة ومجد وبطولة وانتصار . . إلى هذا الشعب أرسل تحيتى بوعد . . ووعدى أن أكون أبداً فى خدمته جندياً من جنوده وعاملا أسعى لخيره وإسعاده فى ظل عهده الجديد وجمهوريته العربية المتحدة . .

قرار مجلس النواب

واتخذ مجلس النواب السورى القرار الآتى :

إن مجلس النواب بعد أن استمع إلى البيـان التاريخى الذى تفضل فخامة رئيس الجمهورية بإلقائه فى جلسة يوم الأربعاء الموافق ١٦ رجب سنة ١٣٧٧ و ٥ فبراير سنة ١٩٥٨ شارحاً أسس الوحدة بين الإقليمين العربيين مصر وسـوريا ، يبـارك الخطوات التى قام بها الرئيسان والحـكومتان لتحقيق هذه الأمنية القومية العزيزة على قلب كل عربى ، ويؤيد المبادئ الدستورية التى اتفق عليها ووردت فى البيـان للعمل بها خلال الفترة الانتقالية ؛ وإن مجلس النواب يرى من واجبه فى هذه اللحظة المباركة بالفخر والاعـتزاز الموقف المشرف الرئيسين المؤمنين العظيمين شـكرى القوتلى وجمال عبد الناصر وجهدهما الميمون الذى حقق للأمة العربية أمنية قدمت فى سبيلها تضحيات ودماء وكانت آخر رؤيا أطبقت عليها أعين الشهداء . إن المثـل الرائع الذى ضربه فخامة السيد شـكرى القوتلى بصدق جهاده وعظيم إيثاره وعميق إيمانه سيظل الهدف الذى تهتدى به أجيال الأمة العربية . إن أعضاء مجلس النواب بموافقتهم وتأييدهم لما تم إنما يعبرون عن إرادة الشعب العربى فى الإقليم السورى ويؤدون الأمانة ويوفون بالعهد حين أقسموا اليمين الدستورية

على العمل لتحقيق وحدة الأقطار العربية . ومجلس النواب يرى فى ترشيح سيادة الرئيس جمال عبد الناصر لرئاسة الجمهورية العربية المتحدة الضمانة الأكيدة للسير بالدولة العربية الفتية نحو تحقيق أهداف القومية العربية وتوطيد العدالة والخير والسلام للعرب والإنسانية ، وبقلوب مؤمنة نتجه إلى الله العلى القدير أن يرعى دولتنا الفتية وأن يجعلها فاتحة جمع شمل الأمة العربية فى دولة واحدة .

الدستور المؤقت

للجمهورية العربية المتحدة

١ — الدولة العربية المتحدة جمهورية ديمقراطية مستقلة ذات سيادة وشعبها جزء من الأمة العربية .

٢ — الحريات مكفولة فى حدود القانون .

٣ — الانتخاب العام حق للمواطنين على النحو المبين بالقانون ومساهمتهم فى الحياة العامة واجب وطنى عليهم .

٤ — يتولى السلطة التشريعية مجلس يسمى مجلس الأمة . ويشترط أن يكون نصف الأعضاء على الأقل من بين أعضاء مجلس النواب السورى ومجلس الأمة المصرى .

٥ — يتولى رئيس الجمهورية السلطة التنفيذية .

٦ — الملكية الخاصة مصونة وينظم القانون أداء وظيفتها الاجتماعية ولا تنزع الملكية إلا للمنفعة العامة ومقابل تعويض عادل وفقاً للقانون .

٧ — إنشاء الضرائب العامة أو تعديلها أو إلغاؤها لا يكون إلا بقانون ولا يعفى أحد من أدائها فى غير الأحوال المبينة فى القانون .

٨ — القضاة مستقلون لا سلطان عليهم فى قضائهم لغير القانون .

٩ — كل ما قررته التشريعات المعمول بها فى سورية وفى مصر تبقى سارية المفعول فى النطاق الإقليمى المقرر لها عند إصدارها ويجوز إلغاء هذه التشريعات أو تعديلها .

١٠ — تتكون الجمهورية المتحدة من إقليمين هما : سوريا ومصر .

١١ — يشكل فى كل إقليم مجلس تنفيذى برئاسة رئيس يعين بقرار من رئيس الجمهورية ويعاونه وزراء يعينهم رئيس الجمهورية بناء على اقتراح رئيس المجلس التنفيذى .

١٢ — تحدد اختصاصات المجلس التنفيذى بقرار من رئيس الجمهورية .

١٣ — تبقى أحكام المعاهدات والاتفاقيات الدولية المبرمة بين كل من سورية ومصر وبين الدول الأخرى . وتظل هذه المعاهدات والاتفاقيات سارية المفعول فى النطاق الإقليمى المقرر لها عند إبرامها ووفقاً لقواعد القانون الدولى .

١٤ — تبقى المصالح العامة والنظم الإدارية القائمة معمولا بها فى كل من سورية ومصر إلى أن يعاد تنظيمها وتوحيدها بقرارات من رئيس الجمهورية .

١٥ — يكون المواطنون اتحاداً قومياً للعمل على تحقيق الأهداف القومية ولحث الجهود لبناء الأمة بناء سليما من النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتبين طريقة تكوين هذا الاتحاد بقرار من رئيس الجمهورية .

١٦ — تتخذ الإجراءات لوضع الدستور الدائم للجمهورية العربية المتحدة .

١٧ — يجرى الاستفتاء على الوحدة . وعلى رئيس الجمهورية العربية المتحدة فى يوم الجمعة ٢١ فبراير .

الوطن العربي

وطن كبير

إن الوطن العربى قد وجد منذ أكثر من ألف وثلاثمائة سنة ، بكيانه الحاضر الذى نشهده ، وجد هذا الوطن الكبير بحدوده منذ أن وقف عقبة بن نافع على شاطىء المحيط الأطلسى وهو يمتطى جواده ويقول : والله لو علمت أن وراء هذا البحر أرضاً لسرت غازياً فى سبيل الله . . ووجد منذ وقف سعد بن أبى وقاص على مشارف العراق وهو ينظر وراءه وينظر أمامه ليخطط حدوده الشرقية . . ووجد من قبل هذا حين خرج العرب من جزيرتهم إلى ما حولها ورأوا أن لهم رسالة وعليهم تبعة ، فنشروا لغة وديناً ، وحملوا أمانة كبرى . . .

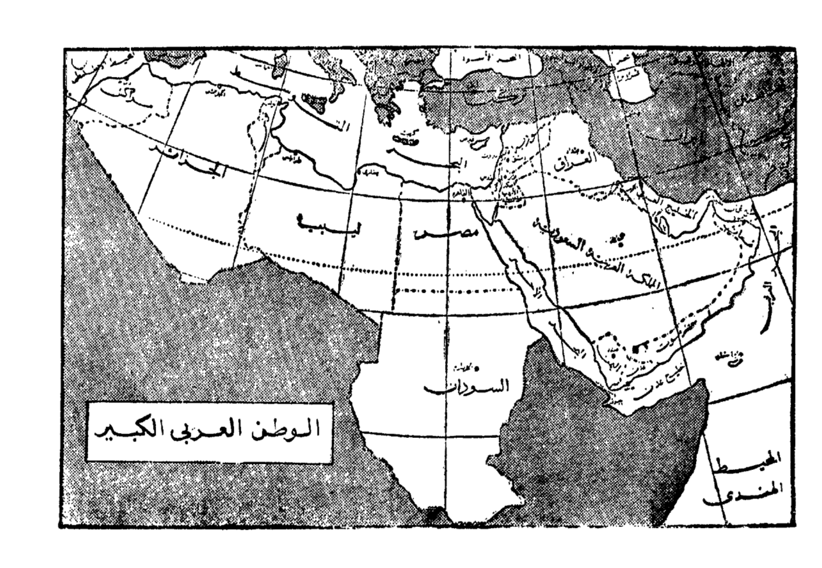
لم يختلف أحد فى حدود هذا الوطن العربى الكبير . . إنه يمتد من الإسكندرونة إلى جبل طارق على ساحل البحر الأبيض ، ويمتد من المحيط الهندى والخليج العربى إلى جبال الموصل فى الشمال كما يمتد فى أفريقيا إلى منابع النيل . ويشمل هذا الوطن العراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين العزيزة ، ويشمل مصر والسودان والمملكة السعودية واليمن والإمارات التى تكافح فى جنوب شرق الجزيرة العربية ، ويشمل عدن وحضرموت وعمان والبحرين والكويت ، ويشمل ليبيا وتونس والجزائر ومراكش .

هذه الأقاليم الممتدة فى آسيا وأفريقيا ، وهى الوطن العربى الكبير .

وإذا سأل أحد عن المقاييس التى نقيس بها فقال : أهى الوحـــدة الجغرافية أم هى الوحدة فى الآمال ؟ أم هى اللغة والدين والعادات والاعراف والتاريخ ؟ . . . فإن الواقع هو الذى يرد على هذا السؤال . . . إن عروبة هذا الوطن مزيج من ذلك كله ، بالرغم من أن المظهر الدافع لهذه الوحدة يدور حول أساسين عظيمين هما : وحدة اللغـة والعادات والنشأة التاريخية ، والأساس الثانى هو التاريخ المشترك والمصير الواحد ويدعم هذين الأساسين فى نواحى كثيرة ، وحدة الاعتقادات وصراحة الدماء ، ورابطة الأنساب . . وسبب ذلك أن العرب حين انتشروا من جزيرتهم فى موجات بشرية عظيمة إلى أطراف العالم العربى ، قد استقروا فيه وامتزجوا بسكان بلاده ، وكانت أعظم هجراتهم هى الهجرة التى وقعت بعد الإسلام وانتشاره فى أطراف الأرض ، وقد حملت هذه الهجرات عدداً غفيراً من بدو العرب وحضرهم إلى البـلاد التى فتحت فامتزجوا بأهلها وعاشوا فى وطن واحد . .

وعلى هذا ، أصبح الوطن العربى هو مجموعة البلاد التى يمثل فيها نشاط العرب فى نواحى عدة ، فى اللغة وفى الاجتماع وفى التاريخ وفى السياسة . . وقد انتظمت ذلك كله وحدة جامعة فى التاريخ والمنافع المتبادلة ، وعلى هذا الأساس الواحد ، امتدت رقعة الوطن العربى من خليج العرب شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ، ومن جبال طوروس والأناضول وشواطىء البحر المتوسط شمالا إلى المحيط الهندى والخليج العربى وصحارى أواسط أفريقيا جنوباً . . .

هذا هو الوطن العربى ... وهذه حدوده ...


الوطن العربي الكبير
الجزائر
ليبيا
مصر
السودان
العراق
المملكة العربية السعودية
القاهرة
المحيط الهندي

يقظة العرب

لقد عاشت فى هذا الوطن أمة واحدة سنين عدة ، وكان يسكنه شعب واحد هو الشعب العربى . . حتى وجدت الأطماع والاستعمار ، فتمزقت الوحـــدة ، وصار العرب شيعاً وأحزاباً ودولا ، ثم هبوا من نومتهم ، وابتدأت مقاومتهم لأسباب الفرقة والانقسام والاستبداد والاستعمار . وكانت اليقظة العربية على مدى سنوات ، وجرت حربان عالميتان كبيرتان ، وانفجرت ثورات هناوهناك ، وظهر أبطال ، وذهب شهداء ، حتى جاء النصر . . فتحررت أكثر بلاد العرب من الاستعمار وأوشك بعضها على التحرر . . تحررت مصر ، وتحرر لبنان ، وتحررت سوريا ، وأوشك أن يتحرر الأردن بعد النكسة التى أصابته بعد تحرره الأول . . وتحررت السعودية ، وتحرر اليمن ، وتحررت ليبيا وتونس ومراكش ، وماتزال الجزائر تكافح . . وكان نصر ثم نصر ، للعرب فى جميع ديارهم ، وللقومية العربية التى تمتد من المحيط إلى الخليج ، وعاد للعرب وطنهم الكبير الذى يشرف على بحار واسعة ، ويمتد فى داخل قارتين عظيمتين ، لا تفصله فواصل ، ولا يقف أمامه سد من السدود ، إذا سار أحدنا على شاطىء البحر الأبيض ، وتطلع إليه ومد بصره بعيداً ، استطاع أن يجد طريقاً أمامه يمتد مع البحر الأبيض المتوسط ، يصل الإسكندرونة بانطاكية واللاذقية وطرابلس وبيروت وصور وصيدا

وعـكا وحيفا ويافا وعسقلان وغزة والعريش وبور ســـعيد والبرلس والإســكندرية وطبرق وبنغازى وطرابلس والجزائر وطنجة والرباط والدار البيضاء إلى إفنى فى الجنوب . ويمتد بنا هذا الطريق الجميل عشرات الآلاف من الأميال ، إنه طريق العرب لا يوجد لبلد مثله ، ولا ينعم بمثله وطن آخر فى العالم . . فهل نتطلع إلى هذا الطريق وقد تم إعداده فعبد وسوّر وغرست على جانبيه الأشجار !

إنه لو تم إعداد هذا الطريق لأمـكن للسائر أن يسير منحدراً من الشمال إلى الجنوب ، منحرفاً إلى الغرب ، على يمينه البحر الأعظم ، وعلى شماله وجوه عربية كريمة تتحدث لغة عربية مبينة . . لا يشعر السائر بغربة ، وإنما يشعر بأنه يسير بين أهله ومواطنيه وينتقل من دار بنى أبيه إلى دار بنى عمومته ، لا غرابة فى ذلك ولا صعوبة أمامه . . وكانا نتطلع إلى أن يتحقق هذا العمل يوماً وسيتحقق ذلك إن شاء الله حين تقوم الدولة العربية المتحدة التى أصبح وجودها قريباً ...

عقبات فى الطريق

غير أن هذا الطريق الجميل الذى ننتظره ونرجوه وشيكاً ، تقف أمامه بعض العوائق ، إنها قواعد لم تزل فى يد العدو ، اغتصبها من ديارنا ، وعمل على إقامتها فى طريقنا الموحد ، وفى سبيل قطع أوصال ، وتفريق جماعة ، وفصل رابطة . .

وأول هذه العوائق فى طريق العرب على البحر الأبيض هى إسرائيل .. إسرائيل التى أوجدها الاستعمار لتقف أمامنا إذا سرنا على الأقدام وتعرقل الطريق أمام سياراتنا .. إنها وجدت لتكون حربة موجهة لكل سائر فى هذا الطريق. . ولكنها ستزول وسيسير الطريق البرى الذى يصل بين الإسكندرونة وطنجة . .

أما العائق الثانى فهو الاستعمار الفرنسى فى الجزائر ، وقد شبت ثورتها منذ ثلاث سنوات ووقف الشعب الجزائرى المناضل ، يقاوم حرباً دامية ، وقد قارب أن ينتهى من معركته المظفرة ...

والإسكندرونة ، عائق لاينسى ، فهى جزء كبير من سوريا ، وكان عربياً لحماً ودماً ، اقتطعه الفرنسيون من وطننا العربى ، وأرادت فرنسا أن تتقرب به إلى تركيا لمنافع استعمارية فباعته لتركيا بيع الفضولى الذى لاحق له فى البيع دون أن يعرف أصحابه من أمره شيئاً . . .

هذه بعض مواقع العدو فى بلادنا ووطننا . . المواقع التى مايزال يتخذها أداة لتهديدنا ، ومراكز يطلق علينا النار منها ، بعد أن غاب على أمره ، وطرد من أكثر بلادنا ، وكانت مقاومتنا له وحربنا عليه ونضالنا لجبروته ، صحائف مجد وفخار للعرب جميعاً . . إذ أن قوميتنا العربية قد استفادت من هذا الكفاح ، وطهرتها سنوات النضال المريرة ، فعرفنا نواياه ، وخبرنا ماضيه ، وكان ماضياً أسود جر على بلادنا شروراً كثيرة .

كفاح قديم

وإذا لم يقتصر موقف القومية العربية فى نضالها على موقفها الحاضر فإن هذه القومية قد طهرتها التجارب خلال القرون الماضية واستطاعت أن تحتفظ بمقوماتها الأساسية فى وجه كافة أنواع الطغيان ، وفى وجه كل هجوم شن عليها من الشرق أو من الغرب . فى سنة ١٢٥٦ م انحدرت موجات التتار من الشرق ، فاكتسحت كل شىء فى طريقها حتى واجهت القومية العربية فى الشام وفى مصر ، فإذا بهذا المد الرهيب يتحول إلى جزر ، وإذا بالقومية العربية تنتصر على التتار فى موقعة «عين جالوت» فى فلسطين عام ١٢٦٠ م وتبقى هى لتؤدى رسالتها على مر الزمان . .

وقبل ذلك ، كان المد الصليبى الاستعمارى من الغرب ، يقاتل العرب باسم الدين ، ويستهدف كعادته دائماً السيطرة والاستغلال ، ولكنه لم يلبث أن لقى حتفه فى معركة «حطين» عام ١١٨٧م ، وتراجع أمام الجيوش التى قادها صلاح الدين وكان قوامها جنود مصر والشام ، وباءت تلك الحملات الظالمة التى جنوا بها على الحق وعلى المسيحية ، فنسبوها إليها ، وهى منها بريئة ، فإن صاحب الصليب عليه السلام هو صاحب دين المحبة والرحمة والسلام .

ولما أخفقت حملات الاستعمار الصليبية التى قام بها الإنجليز والفرنسيون وغيرهما فى الشام وفى مصر وفشل العدوان على الوطن العربى ، فكروا فى الحروب الاقتصادية حتى يزعزعوا من كيان وطننا

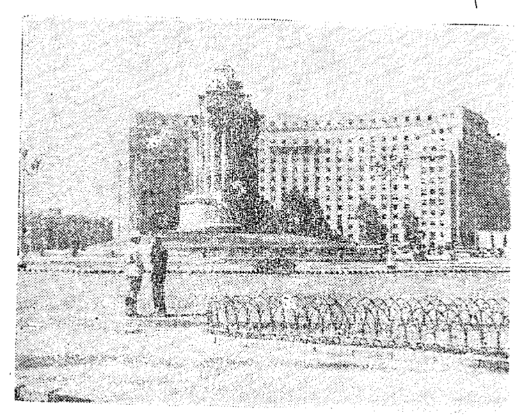
ويضروا بنا فحولوا الطرق التجارية ، وجهدوا حتى يبعدوا عنا تجارات العالم ، ويجعلوا وطننا معزولا ، ولكن هذا كله قد فشل أيضاً ، وظل العالم العربى متماسكا ، وحدة قوية نابضة بالحياة .

وقد حاول الأتراك باسم الدين والخلافة ، أن يستعمروا الوطن العربى وأن يقضوا على شخصيتنا القومية ، وكان استعماراً خبيثاً ، ومع ذلك استطاعت القومية العربية أن تصمد وأن تستمسك بشخصيتها بالرغم من وجود حكم رجعى مستبد .

الاستعمار الحديث

وأعقبت ذلك موجة أخرى من موجات الاستعمار الأوربى ، حين بدأ انهيار الأمبراطورية العثمانية ؛ لتولى أوربا على الأقطار العربية ، فنزلت فرنسا فى مصر عام ١٧٨٩ ، وقاتلها الشعب بكل سلاح فى يديه حتى انسحبت عام ١٨٠١ ثم احتلت فرنسا الجزائر احتلالا غادراً فى عام ١٨٣٠ م ، وفى عام ١٨٣٤ بدأ الاحتلال الإنجليزى لعدن ، ثم فرض بعد ذلك معاهدة على المستعمر العثمانى خولت لبريطانيا حق اتخاذ عدن مركزاً تجارياً ، وبهذا تمكنت بريطانيا من تحقيق غرضها الاستعمارى فى جزء من الوطن العربى ، باحتلال جنوب الجزيرة العربية ، وسلبت ثرواته وتحكمت فى ممراته المائية ، وهى طرق مواصلات للتجارة العالمية .

وفى عام ١٨٨١ م، احتلت فرنسا تونس ، وفى عام ١٨٨٢ م،احتلت بريطانيا مصر باسم الدفاع عن العرش ضد الشعب ، ثم اتفقت بريطانيا وفرنسا على تقسيم الأسلاب ، فعقد بينهما اتفاق ودى عام ١٩٠٤ ، تعهدت فرنسا بمقتضاه ألا تعرقل الاحتلال البريطانى لمصر ، فى مقابل تسليم بريطانيا بحق فرنسا فى إطلاق يدها فى مراكش . وتمت سيطرة فرنسا على مراكش عام ١٩١٢ م ، كما بدأت إيطاليا فى غزو ليبيا عام ١٩١١ م ، واستعمر البريطانيون السودان باسم الحكم الثنائى فى عام ١٨٩٩ . . .



ميدان التحرير بالقاهرة

ومع هذا ، فقد هبت المقاومة الشعبية فى سائر البلاد العربية ولم

تقف الثورات والمعارك ضد الإنجليز والفرنسيين بالرغم من المذابح الكبرى التى صاحبت هذا الاحتلال . ولم تفتر المعارك بين العرب فى ليبيا وبين إيطاليا حتى الحرب العالمية الثانية . . .

واستمر العدوان واستمر الاستعمار ينتقص أطراف العروبة ففرض الحماية على أجزاء الخليج العربى وجنوبى الجزيرة . . .

وواصل الشعب العربى كفاحه ضد الاستعمار . . وكان فى هذا الكفاح يصارع قوى عدة ، هى الاستعمار والرجعية والإقطاع ، التى اتحدت مصالحها جميعاً ؛ لاستغلال الشعب العربى وابتزاز أمواله وسلب خيراته .

ولكن الحركات الوطنية التى شبت فى أوائل القرن العشرين لم تلبث أن دخلت فى طور جديد ، واتسع نطاقها الشعبى ، فلم تصبح قاصرة على فريق محدود من ذوى الرأى أو المثقفين ، فرسخت جذورها فى جموع الشعب ، وأصبح من المستحيل القضاء عليها .

وكان أول مؤتمر للمكافحين العرب ، هو المؤتمر الذى عقد عام ١٩١٣ وعرف باسم المؤتمر العربى السورى ، وكان يضم جمعيات قوية بعضها علنى والآخر سرى ، حيث اتخذ هذا المؤتمر قرارات تهدف إلى الاحتفاظ بالشخصية العربية كما طالب بالحكم الذاتى لأقطار العروبة . . .

حلفاء الاستعمار

وظل الصراع بين قوة الشعب العربى وبين الاستعمار . . .

ولم يهدأ الاستعمار بل أخذ يعمل من ناحيته على تثبيت دعائمه ، فاستسلم له عدد من حكام العرب ، ومكنوا له من شعوبهم ، حتى يتحكم فيها ويستغلها كيفما شاء ، لقاء ثمن بخس هو البقاء فى الحكم أو دراهم معدودة ، فسارع بعضهم إلى الاتفاق مع بريطانيا على أن تكون راعية للثورة العربية ، فقدمت لهم المعونة وثبتتهم على عروش صنعتها لهم ، وضمنت لهم ولأبنائهم ولأحفادهم مصالحهم . ولو لم يتدخل هؤلاء الحكام فى توجيه الثورة العربية بهذه الصورة لكان للتاريخ وجه آخر .

وبالرغم من هذا التحالف بين الإقطاع وبين الاستعمار ، فإنه لم يتورع عن خداع عملائه ، لأنه حين أيقن أن نمو القومية العربية فى كفاحها ضد الاستعمار التركى الذى أرادته الثورة العربية ، حين أيقن أن هذه القومية ستكون خطراً عليه ، بدأ يدبر لها أكبر مؤامراته ، وأخطرها ، وكانت هى محاولة إيجاد وطن قومى لليهود فى فلسطين . فحين كان « الشريف حسين » يتبادل الرسائل مع مكماهون عام ١٩١٥ ، ١٩١٦ وهى التى تعهد فيها بتسليم بريطانيا باستقلال العرب بعد الحرب مقابل تأليف جيش عربى يساعد بريطانيا فى حربها مع الأتراك ، فى هذا

الوقت ذاته ، كانت بريطانيا قد عقدت معاهدتين سريتين تتضمنان تقسيم البلاد العربية بينها وبين فرنسا ثم إيطاليا ، وكانت إحدى هاتين المعاهدتين هى المعاهدة المعروفة باتفاقية القسطنطينية ، وهى خطابات تبودلت بين سفراء هذه الدول سراً فى القسطنطينية فيما بين ٤ مارس ، ١٠ أبريل ١٩١٥ ، والثانية هى المعاهدة التى عقـدت فى لندن عام ١٩١٥ . .

ولم تـكتف بريطانيا بهذا الخداع ، بل أعقبت ذلك باتفاقية أخرى فى أكتوبر عام ١٩١٦ هى اتفاقية (سايكس — بيكو) التى قسمت بمقتضاها البلاد العربية بين الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى تحت اسم الانتداب ، ثم اتبعت بريطانيا ذلك فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ ، بوعد بلفور المشهور الذى منحت بريطانيا بمقتضاه وطناً قومياً لليهود فى قلب الأمة العربية ، فى فلسطين . .

وانتهزت بريطانيا فرصة القتال بينها وبين تركيا لـكى تتوغل فى داخل الوطن العربى ، واتخذت من الحرب ذريعة لإعلان الحماية على مصر عام ١٩١٤ ، كما أعلنت حمايتها على الـكويت والمناطق المحيطة بالخليج العربى ، بعد أن بدأت بشائر البترول تظهر فى البلاد ، فعقدت معاهدات الحماية مع الـكويت عام ١٩١٤ ، ومع نجد عام ١٩١٥ ، ومع قطر ١٩١٦ .

وقد حدث كل هذا ودبرت إنجلترا كل هذه المؤامرات على الوطن الـكبير ، فى الوقت الذى كانت تخادع فيه حكام العرب ، وتعلن لهم أنها فى جانبهم وتقول لهم « إن القوة المتحالفة مصممة على أن تعطى الجنس

العربى جميع الفرص الكاملة ، لكى يكون أمة واحدة ، فى العالم ، وإن هذا الهدف سوف لا يتحقق إلا باتحاد العرب فيما بينهم ، وإن بريطانيا وحلفاءها سوف يتبعون سياسة هدفها الأخير تحقيق هذه الوحدة » .

. . ذلك ما كان يفعله الاستعمار فى الحرب العالمية الأولى .

* * *

وبعد أن انتهت الحرب الأولى ، وكسب الاستعمار غنائمها ، هبت الثورات فى الوطن العربى ، فقامت ثورة فى مصر عام ١٩١٩ ، وظلت ثورتها تتجدد حتى خرج الاستعمار من ربوعها بعد ثورتها الكبرى فى سنة ١٩٥٢ وأصبحت سيدة نفسها ، وبدأت سياستها العربية تستقر فى خط واضح هو خط القومية العربية المتحررة بغير تحفظ أو تردد .

وظلت القومية العربية تصارع الاستعمار . . . وكان الصراع من القوة بحيث أجبره على الاعتراف باستقلال بعض البلاد العربية وإن كان قد قيدها بقيود ظلت تحد من حريتها وانطلاقها . . فبالنسبة إلى مصر صدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى يلغى الحماية ولكنه يحتفظ لبريطانيا بتحفظات تجعل يدها تكاد تكون مطلقة فى شئون مصر ، وفى ١٥ مارس ١٩٢٣ أعلن الاستقلال وبقيت التحفظات ، واستمرت مفاوضات ومباحثات ومحادثات تتصل ثم تنقطع بين مصر وبريطانيا حتى عقدت معاهدة ١٩٣٦ التى اعترفت باستقلال مصر ولكنها ربطتها



ساحة الشهداء بدمشق

بعجلة بريطانيا ربطا أبديا . . أما فى العراق فقد عقدت معاهدة بينها وبين بريطانيا فى ١٠ أكتوبر ١٩٢٢ بدلا من إعلان الانتداب . . وذلك لأن الشعور الوطنى فى العراق لم يسمح لبريطانيا بالوصول إلى مقصدها مباشرة ، فاضطرت إلى عقد هــذه المعاهدة إرضاء للرأى العام العراقى من جهة ، وخداعاً له من جهة أخرى .

ولــكن الأمر لم يستقر بين بريطانيا والعراق ، فاستمر الرأى العام فى العراق ثائراً ، واضطرت بريطانيا إلى عقد معاهدة جديدة فى عام ١٩٣٠ بين نورى السيد والمندوب السامى البريطانى ، وأعطى العراق بمقتضى هذه المعاهدة استقلالا وهمياً ، حيث ثبتت المعاهدة احتلال بريطانيا للعراق .

وكان مولد شرق الأردن مجرد حادثة من حوادث التاريخ ، فقد اعترفت بريطانيا فى عام ١٩٢٢ بالأمير عبد الله حاكما مؤقتا للمنطقة التى تقع شرق نهر الأردن ، لسبب غريب ، هو أن هذا الأمير قد هدد بأن يقوم بعمليات حربية ضد الفرنسيين فى سوريا ، مما جعل بريطانيا تخشى أن تجد فرنسا فى ذلك حجة لــكى تحتل جزءاً من المنطقة المخصصة لبريطانيا . وتحولت الاتفاقية المؤقتة للأمير عبد الله إلى اتفاقية دائمة فى ٢٥ مايو سنة ١٩٢١ . . .

أما فى سوريا ، فقد أعلن قيام الحــكومة العربية فى ٥ أكتوبر سنة ١٩١٨ ، وبعد مناورات عدة ، بدأ الفرنسيون يتحرشون بهذه

الحكومة حتى انتهى بهم الأمر إلى زحف الجيش الفرنسى على دمشق واستيلائه على سوريا خلال شهر يوليه سنة ١٩٢٠ بعد أن كان قد استولى على لبنان وبعض المدن الساحلية فى سوريا قبل ، ذلك وطرد الفرنسيون الأمير فيصل من عرش سوريا ، وانتقل بعد ذلك إلى عرش العراق حيث تتابعت الأحداث التى ذكرت من قبل .

. . وجاءت الحرب العالمية الثانية ، وكانت القومية العربية قد فطنت إلى خطر الاستعمار على وحدتها وعلى استقلالها وحريتها ولكن هذه الدول الاستعمارية شعرت بهذه المقاومة العنيفة ، فكانت الحرب بينها وبين القومية العربية سافرة ، ولجأ الحلفاء إلى التدخل فى أخص شئون الحكم فى هذا الوقت . وقامت ثورة العراق عام ١٩٤١ ، وانتهت بإعلان الحكم الوطنى المتحرر ، وتدخلت بريطانيا بقواتها العسكرية ، كما استعانت بقوات شرق الأردن التى كانت تحت إشرافها فى ذلك الوقت ، واستطاعت أن تخمد الثورة وأن تعيد الحكم فى العراق إلى سابق عهده من الخضوع الكامل للاستعمار ، ثم كانت معاهدة بورتثموث عام ١٩٤٦ التى كافحها الشعب العراقى وأسقط الوزارة التى عقدتها فولدت ميتة .

أما فلسطين ، فكانت معركة مستمرة بين القومية العربية وبين الاستعمار والصهيونية ، وكانت المؤامرة التى دبرها الاستعمار للقومية العربية كلها ، إذ مكن لليهود من أن يكون لهم وطن فى أرض العرب . وأعلنت الدول العربية الحرب على عصابات الصهيونية فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨

ولكن الفساد الداخلي فى الدول العربية وتآمر الرجعية والاستعمار ، جعل هذه المسألة مأساة ترتب عليها جرح عميق .

وكان الاستعمار يريد أن تكون إسرائيل موطىء قدم له ليستخدمها فى الوثوب على البلاد العربية ومركزاً تتجمع فيه القوى الرأسمالية والقوى الصهيونية ، لكى تسيطر منه على الوطن العربى فتسلبه خيراته وتمكن للاستعمار فيه وفى غيره من بلاد آسيا وإفريقيا .

كما أراد أن تكون سيفاً مصلتاً على رقاب العرب يهددهم ويمنع انطلاقهم واكتمال نموهم فى أية ناحية من نواحى الحياة ، وأن تكون عقبة فى سبيل الوحدة العربية الشاملة ، إذ تفصل بين عرب المشرق وعرب المغرب .

وحدة العرب

إلا أن الاستعمار قد خاب فيما قدر ، وكانت مؤامرة فلسطين باعثاً جديداً ومرحلة جديدة فى الكفاح الشعبى . حيث شعر الشعب كله فى الشرق والغرب بخطر الاستعمار على كيانه الوطنى العربى ، كما شعر بخطر الاستعمار الجديد الذى بدأت تحمل وزره أمريكا حين أرادت لنفسها نفوذاً ومناطق أخرى تستغلها ، وأن تنال بعض ميراث الاستعمار القديم الذى بدأته انجلترا وفرنسا . . وهكذا أصبح الشعب العربى أمام

الاستعمار وجهاً لوجه ، فاجتاحت الثورات مصر ومراكش وتونس وسوريا وليبيا والجزائر والأردن والعراق والسودان وجنوبى الجزيرة ، وكان أبرز عامل هو ثورة مصر التى قامت عام ١٩٥٢ فكانت عاملا حاسماً من عوامل التضامن العربى وزيادة الوعى القومى ، ونما هذا الوعى حتى جعل الشعب العربى شعباً واحداً متماسكا وصار هذا الشعب ينادى بنداء واحد ، وكانت مبادئه واحدة .

لقد اعتنق هذا الشعب مبادىء القومية العربية وسارت الحكومات العربية فى نفس التيار استجابة لضغط هذا الشعب ، فإذا القومية العربية قوة فى المحيط الدولى يحسب حسابها .

وكان طبيعياً أن يعتنق هذا الشعب مبادىء السلام ، لأنه كافح ضد الاستعمار والطغيان واكتوى بنار حربين عالميتين وعانى من العدوان ، وكان من الطبيعى كذلك أن يعتنق مبدأ حق تقرير المصير لأنه عرف ماهو هذا الحق ، وفى سبيله كافح وما زال بعض أجزائه فى ميدان الكفاح .

واعتنقت القومية مبدأ الحياد الإيجابى ، بين كتلتين متناحرتين فى العالم ووجدت فى هذا المبدإ ضماناً لتطورها وتقدمها كما وجدت فيه مجالا للعمل من أجل رخائها وحريتها .

واعتنقت القومية العربية كذلك مبادىء التعايش السلمى ، لأنها لا تريد العداء أو العيش فى أتون الحرب . . وإنما تريد تعايشاً سلمياً



توقيع الاتفاقية الثقافية فى دمشق سنة ١٩٥٧

يحقق لها كل ما ترجوه من استقرار ورخاء .

ولهذا ظهرت القومية العربية ، قوة عظيمة تدعو إلى السلام وإلى العمل الإيجابى ، وتعمل على البناء لا الهدم ، وصارت رسالتها تتعلق بالفرد والجماعة ، فى محيط الوطن العربى ، فى المحيط الدولى ، فكانت ظاهرة لافتة لأنظار العالم كله . .

* * *

ومن أجل هذا كله ، كانت الدعوى والعمل للتضامن العربى حتى يتمكن الشعب العربى من مواجهة الاستعمار الغربى والخطر الصهيونى ، ويحقق أهداف هذا الشعب فى الحرية والاستقلال والرخاء .

وكانت أولى هذه المحاولات هى الاتفاقية الثنائية التى أعقبتها اتفاقية القيادة المشتركة بين مصر والسعودية والأردن واليمن ، وتلا ذلك اتفاق التضامن العربى الذى تعهدت بمقتضاه حكومات سوريا ومصر والسعودية بدفع المعونة للأردن لكى يتم له موازنة ميزانيته بما فيها الميزانية العسكرية ، ولكى يستطيع الأردن أن يتحرر من المعاهدة البريطانية ومن المعونة البريطانية ، وأن يسير فى ركب العروبة المتحرر .

مكايد الاستعمار

وقد أقضت هذه الاتفاقيات فى مجموعها مضجع الدول الاستعمارية . فأخذت تدبر المؤامرات سراً وعلناً على كل المظاهر التي تمثل وحدة العرب وجمع شملهم ، ولكن هذه المؤامرات قد فشلت وكانت دليلا لقوة التضامن بين شعب واحد ، ووطن واحد هو الوطن العربي ...

وقد حاول الاستعمار غير هذا ، حاول إيجاد أحلاف عسكرية مثل حلف بغداد وكان يستهدف من وراء ذلك :

١ — تمكين بريطانيا من السيطرة على السياسة الخارجية لبلدان هذا الحلف . .

٢ — صرف الأنظار عن مشكلة فلسطين إذ أن هذا الحلف يسعى إلى تجسيم خطر وهمى حتى تقف البلاد لمكافحته .

٣ — صرف أنظار العرب عن خطر الاستعمار الناشب بين ربوعهم وتجميد قضايا العرب ضد الاستعمار ، وإقامة تحالف بين العرب و بين الدول التى اعتدت عليهم .

وفى كلمة كان هذا الحلف وسيلة لدخول الاستعمار من النافذة بعد أن خرج من الباب ، لأن تحالف العرب مع الاستعمار لا يعنى إلا إسقاط

قضية أساسية حارب العرب من آجلها أجيالا طويلة ، وهى قضية استعمار بريطانيا لجانب كبير من بلادهم بغير حق ، وضد كل قواعد العدالة والحق والإنسانية والقانون الدولى . . .

ومن أجل هذا كانت معركة حلف بغداد معركة كبرى بين القومية العربية وبين الاستعمار ، وأظهرت أن الشعب العربى يدرك تمام الإدراك أن هذا الحلف لم يوضع إلا لتكبيله وفرض القيود عليه ، وتثبيت الاستعمار وصرف الأنظار عن قضاياه الأساسية . ووقفت حكومة مصر وسوريا والسعودية ، موقفاً صلباً ، فلم يستطع هذا الحلف أن يحقق من أغراضه فى البلاد العربية شيئاً ، إلا تكبيل شعب العراق بقيود الاستعمار ، وقد حاول بعض أعوان الاستعمار فى الأردن ، أن يدخلوا الأردن فى هذا الحلف ، فكان شعب الأردن لهم بالمرصاد واستطاع أن ينزل الهزيمة الماحقة بمن تآمروا على إخضاعه لهذا الحلف . . .

مؤامرات الاستعمار

وفرغ صبرهم . . وأكل الحقد قلوبهم فباتوا يدبرون . . دبروا العدوان على مصر ، التى أرادت أن تسترد جزءاً منها ، بتأميم شركة قناة السويس ، إذ رأوا فى هذا التأميم إثباتاً لمعنى جديد من معانى الاستقلال ، ورداً لحق قد أخذوه غدراً وسرقة ، ورأوا فيه مثلا تتطلع

إليه البلاد العربية الأخرى ، ولهذا دبروا الاعتداء وأشركوا معهم عصابة إسرائيل ..

ولكنهم فشلوا وردوا على أعقابهم أمام انتفاضة القومية العربية التى هبت لنصرة مصر ، البلد العربى ..

ثم فكررا فى مشروع استعمارى آخر يقوم على الإغراء بالمال ، وهو المعروف باسم مشروع أيزنهاور ، حتى يستطيعوا أن يتدخلوا فى بلادنا عن طريقه ويعود لهم استعمارهم من جديد .. ولكنهم فشلوا كذلك أمام موقف مصر وسوريا ..

وكانوا يخيلون للناس بأسماء وهمية ، مثل سد الفراغ ، ومثل المساعدات الفنية ، ومثل الشيوعية . ولكنهم كانوا يهدفون إلى تثبيت مصالحهم والاستيلاء على مواقع الاستعمار الإنجليزى والفرنسى الذى هزم وطرد ، وفشلوا .. فدبروا مؤامرات حتى يطيحوا بحكومات الدول العربية المتحررة التى ترفع راية القومية العربية ، فكانت المؤامرة على سوريا ولكنهم فشلوا كذلك ، فلم يجدوا ملجأ لهم إلا عملاء ضعافاً من الرجعيين وأصحاب المصالح فى بعض أجزاء الوطن العربى ، فارتبطوا بهم ولكنهم ظلوا حتى اليوم موضع نقمة الشعوب العربية .. وصارت القومية العربية قوة ، منتصرة ، أمام كل قوى العالم ، وظهرت شخصيتها أمام أعدائها ، وأمام شعوب العالم جميعاً ..

دولة عظمى

وكان لا بد أن تتحرر هذه القومية ، وأن تثور على الاستعمار . . . وهذا هو الذى حدث ، وأصبح الوطن العربى قوة عظمى ، يضم أكثر من مائة مليون عربى فى مساحة من الأرض تمتد من المحيط إلى الخليج ، وفى رقعة خصبة تكفى حاجة السكان وتفيض . فنى أرضنا معادن تزيد عن حاجة أهلها ، وفى أرضنا مناجم تعطينا كفاية صناعية ينتفع بها العالم كله ، وفى بحارنا وعلى امتداد سواحلنا ثروات ضخمة انتفعنا بها فى الماضى منذ أيام الأساطيل العربية التى كانت تجوب بحارنا فى الشرق وفى الشمال وفى الجنوب ، وأدت خدمات للعالم كله ، كما كانت تلعب دوراً كبيراً فى الاتصال بين شعوب الإنسانية كلها .

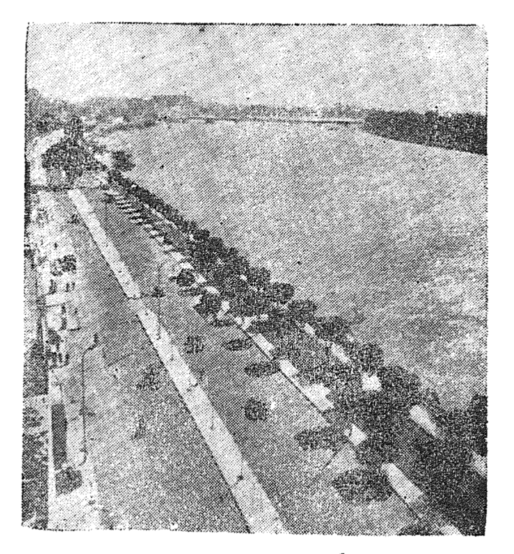
وهذا جونا أصفى جو وأنقاه ، يساعد على النشاط الإنسانى والعمل من أجل الرخاء لنا وللعالم كله ، ولدينا كل مقومات الوحدة ، فنحن أمة فيها هذا العدد الضخم من الأفراد ، ولها هذه المساحة الواسعة من الأرض ، وفيها هذه المواد الأولية ، تستطيع أن تنشىء دولة عظمى أكبر من إنجلترا وأكبر من فرنسا وأكبر من ألمانيا، وأكبر من دول كثيرة كانت تعد نفسها دولا عظمى ، ونحن بهذه المقومات والإمكانيات أغنى من إنجلترا وفرنسا وغيرهما من الدول التى تصف نفسها بأنها عظمى والتى تحتاج إلى جو وإلى أرض وإلى سماء مثل جونا وأرضنا وسمائنا ؛ وحين تكون فى أيدينا كل هذه الإمكانيات ونملك كل هذه

المقومات ، فلن نكون فى حاجة إلى دولة أخرى لأننا سنكون أغنياء وسيكون غنانا هو الاستكفاء بما لدينا فى أرضنا وفى بحرنا وفى جونا .

إن بعض بلاد الوطن العربى قد يشكو ضعفاً فى قوته أو يشكو سيطرة على أجزاء منه ، أو يشكو من ضعف الصناعة عنده ، وانخفاض مستوى المعيشة بين سكانه ، لكن كل إمكانيات القوة وإمكانيات التحرر وإمكانيات التقدم وإمكانيات الرخاء عندنا ، ويمكننا أن نحقق كل ما نريده لوطننا من تطور وتقدم ؛ فإن كل العوامل الطبيعية والبشرية فى صفنا ، فلدينا الطبيعة ولدينا القوى البشرية ولدينا الثروة وقد بدأنا نعرف قيمة كل هذا ، فى تطوير حياتنا وتوفير أسباب الرخاء والنهضة بيننا .

قوانا البشرية

إن القوة التى فى وطننا العربى قوة هائلة جبارة . . . فى كل قطر من أقطار الوطن العربى قوة بشرية عاملة : فى مصر وحدها ٢٥ مليوناً ، وهذا العدد نصف سكان بريطانيا وفى السودان عشرة ملايين ، وفى كل بلد من البلاد العربية أعداد من الملايين هى فى ذاتها الأعداد التى تكون دولا متقدمة بل تزيد عليها ، غير أننا نمتاز فى قوتنا البشرية ، بأنها قوة عاملة ، لم تتعود الراحة والكسل ، لأنها قوة منتجة تعلمت أن تعيش للكفاح ، والتاريخ نفسه يؤيد هذه القوة الجبارة ، فهو الذى يسجل أن كل جندى مصرى يساوى عدة جنود أوروبية لأنه تعلم



كورنيش النيل بالقاهرة

الطاعة من أجل الكفاح والإنتاج ، ولأنه يعرف طريق التعاون مع غيره حتى يصل إلى هدفه المنشود .

وأمامنا اليوم شواهد قوية ، نعرف منها قيمة قوتنا البشرية فى العمل والإنتاج ، فإن العمال العرب هم الذين يقومون الآن بأكبر العمليات ، وعلى أكتافهم قامت كل المشروعات الكبرى فى الرى وفى البناء وفى التجارة وأعمال الموانى وفى الصناعة أيضاً . . . فالقوة البشرية عندنا ليست كثرة عدد فحسب ، ولكنها طاقة أيضا .

ثروتنا

وثروتنا ضخمة كانت وما تزال هدف الطامعين فينا ، فلدينا ثروات زراعية كبيرة . . . فى مصر ٦ مليون فدان من الأراضى المزروعة ، وفى العراق ٣٠ مليون فدان ، وفى سوريا ٤ مليون فدان ، وفى غير هذه البلاد ملايين من الأفدنة المزروعة والصالحة للزراعة ، وهذه الأرض تكفى مئات الملايين من السكان بخيراتها وبإنتاجها وتفيض عنهم ، لنفع البشرية كلها .

وليس فى أرضنا ضيق وإن بدا ذلك ، فإن مصر التى تزرع ٦ مليون فدان قد استطاعت أن تحمل معيشة ٢٥ مليون نفس مع كل المحاولات التى بذلها الاستعمار والإقطاع لإفقار بلادنا والعمل على جمود إنتاجنا ، وفى البلاد الأخرى ملايين الأفدنة مع قلة عدد السكان حتى لتشكو

سوريا ويشكو العراق من كثرة الأرض وقلة الأيدى العاملة هناك ، وهذه الأرض ثروة ليست فى مساحتها فقط ، ولكن فى المناخ وفى الجو أيضاً ، إذ أن لدينا كل الخصائص الجوية ، عندنا الدفء ، وعندنا البرودة ، عندنا المناطق العاليةوالمنخفضة ، عندنا غلات الشرق والغرب ، وثمرات الشرق والغرب ، وعندنا زيادة فى الطاقة على الإنتاج ، وعندنا التنويع فى الإنتاج ، وكل هذه صفات لاتتحقق فى عمومها وفى شمولها وفى تنوعها فى وطن آخر ، فما بالنا إذا كانت متوفرة فى وطننا العربى ! .

ثرواتنا المعدنية

إن هذا الوطن الذى يمتد من المحيط إلى الخليج ، قد حباه الله تعالى بثروة معدنية لم تتوفر فى وطن آخر ، وإذا ذكرنا الثروة المعدنية فإننا نذكر البترول ونذكر حقيقة هى أنه حين اجتمعت علينا دول أوروبا ومعها أمريكا وأخذت تهددنا ثم اعتدت علينا فى بورسعيد كان العامل الحاسم فى المعركة هو البترول حين قلنا لهم إن بترولنا ليس لكم ! . .

وقد شهد العالم كله انتصارنا عليهم ، فإن أوربا إلى الآن وقد مضى أكثر من عام على العدوان ، ما تزال تعانى آثار انقطاع البترول عنها منذ أيام العدوان .

لقد توقفت سياراتهم ومصانعهم وتعطلت ما كيناتهم ، ولفحهم البرد ، وجاعوا حين قطعنا عنهم بترولنا .

وهذه حقيقة تضاف إلى حقائق كثيرة ، فإن ثروتنا فى البترول ثروة ضخمة وعليه نجاحنا فى الصناعة وفى التجارة وفى الزراعة ، إذ أنه قوة اقتصادية ، وقوة حربية ، ومن أجله كانت أطماع الدول وكانت حروب عالمية ! . .

ولدينا غير البترول ، الحديد والذهب والنحاس من المواد التى كان أول اكتشافها فى بلادنا ، وكان أول استخدامها فى الصناعة فى بلادنا ، وظلت مخبأة فى أرضنا يحجبها عنا ويخفيها الاستعمار حتى لا تقع أعيننا عليها .

إن فى بلادنا من حسن الحظ ثروات معدنية نعرفها ، ولا تزال لدينا ثروات أخرى مخبوءة نكتشف منها كل يوم جديداً ، منذ أن تحررنا وسعينا إلى معرفة ما فى جوف أرضنا .

وإن فى وطننا ثروات وثروات عليها يقوم صرح الاقتصاد والرفاء للعرب جميعاً وتفيض نعمتها على الإنسانية كلها .

التكامل الاقتصادى

ففى كل جزء من أجزاء هـذا الوطن ثروة فى باطن الأرض وعلى ظهرها ، ومن الممكن أن تتكامل مع ثروة الجزء الآخر . .

فى مصر قطن يحتاجه اليمن أو يحتاجه لبنان ، وفى سوريا قمح تحتاجه مصر أو غير مصر .

فى وطننا الخامات والمواد الأولية ، وفى وطننا الأرض والأيدى

العاملة ، فى وطننا السوق التى تصرف فيها منتجاتنا ، ونستطيع أن نستغل خاماتنا ، وأن نشغل الأيدى العاملة عندنا ، وأن نبيع فى سوقنا وهى السوق التى دفعت أوروبا إلى أن تستعمرنا لتروج فيها بضائعها ، وتنهب فيها أموالنا ، وتقضى على صناعتنا وتغرقنا بما لا حاجة إلينا به من مصنوعاتها .

فإذا عرفنا أننا نستطيع أن نستكفى بما عندنا من خامات وأيد عاملة وسوق واسعة ، كانت وحدتنا سبيلا إلى الانتفاع بثروتنا والنهوض فى حياتنا . .

وحدة خالدة

إن الرابطة التى تربط أجزاء هذا الوطن الكبير لم تنفصم عراها ، بالرغم مما حاوله أعداء العرب وأعداء حريتهم ، إذ أن الدماء قد مزجت بينهم على تباعد أوطانهم ، فكل عربى فى جزء من هذا الوطن الكبير على صلة ما بأخيه العربى فى أى طرف من أطرافه ، وكل عربى له صديق أو قريب أو نسيب أو أخ أو ابن عم ، حتى جمعت هذه الرابطة بين العرب جميعاً فى أحلك المواقف ، على الرغم من وجود العوائق التى كانت تفرض عليهم .

لقد ضربت دمشق عام ١٩٢٥ وكان الاستعمار فى أوج بطشه وجبروته ، فهب العالم العربى قلباً ويداً لنصرة سوريا ، ولما قامت الثورة

فى سورية ولبنان عام ١٩٤٣ حين انتكس الاستعمار الفرنسى واعتقل رئيسى جمهوريتى الشام هب العالم العربى فى وجه الاستعمار وكان نصيراً لاستقلال بلاد الشام وحريتها . .

وقد ظلت لهذه الصلة الثابتة العميقة ، آثارها التى تمثلت فى مواقف مشهودة وأيام معدودة فى تاريخ هذا الوطن العربى ، فحين ثارت مصر عام ١٩٥٢ كانت الفرحة عامة فى بلاد العرب كلها ، وكل عربى اليوم دائم الحنين لأخبار الجزائر وانتفاضتها من أجل حريتها ، وكل عربى قد ثارت عاطفته حين قبض على محمد بن يوسف فى الرباط ، وكل عربى يذكر كفاح عبد الكريم الخطابى بطل الريف ، الذى لا يزال يقيم فى مصر .

وهذه الرابطة كانت ولا تزال حقيقة واضحة ، تتمثل فى مظاهر المجتمع العربى كله . . . فى تقاليده وعاداته ، وفى لغته ، وفى آماله وأفراحه ، والأنساب التي نراها فى الشام والمغرب والعراق وفى مصر والسودان والسعودية واليمن وفى سائر بلاد العرب ، دليل على الوحدة الجامعة والرابطة القومية التى خلدت مع الزمن .

وإنك اليوم لترى أسرة العراقى فى المغرب وأسرة المغربى فى العراق ، وتجد الشامى فى اليمن والكويت والبحرين والسعودية ، وتجد المصرى فى العراق وسوريا والسودان والمغرب ، حتى أصبح هذا النسب أعظم برهان على الدماء التى تنحدر من أصول واحدة .

وكل عربى يعرف أن الحبيب بورقيبة الرئيس التونسى العظيم قد بدا كفاحه السياسى فى مصر ، وانتهى الشيخ محمد الخضر حسين التونسى الذى حكم عليه الاستعمار بالإعدام إلى أن يكون شيخاً للأزهر فى مصر ، وقد مات ودفن بالقاهرة ، ومن أشهر الفنانين فى مصر : بيرم « التونسى » وفى القاهرة تجد الجزائرى والمانسترلى والأرفلى ، ولم تستطيع السياسة أن تقطع نسبنا وما بيننا من صلة الرحم والقربى ، تلك الصلة التى حرم الله قطعها ورأى فى قطعها إثماً فى ديننا ، وهى إثم فى دين الإنسانية كلها التى تدعو إلى أن نتواصل وأن نكون أبناء أمة واحدة .

فى سبيل الوحدة

على امتداد تاريخنا الطويل بذل المجاهدون من أبناء الوطن العربى جهوداً كثيرة فى سبيل وحدة العرب ولم شملهم بعد الفرقة .

وعلى امتداد التاريخ كانت الأحداث الكبرى تجمع بين أجزاء هذا الوطن فوجدنا اتحاد بعض أجزائه ووحدتها ، فكانت مصر والشام فى أيام الدولة الطولونية والإخشيدية وحدة ، وكانت مصر والشام فى أكثر أيام الدولة الفاطمية وحدة ، ولما ضعف أمر الفاطميين بقى جنوب الشام (فلسطين) متحداً مع مصر ، كما عاشت مصر ، مع الحجاز وبلاد العرب واليمن وعمان والبحرين فترات تاريخية طويلة فى

جامعة القاهرة

وحدة كاملة ، ولن ننسى تلك الوحدة الجامعة التى كانت تجمع كل شعوب العرب فى ظل الدولة العربية الكبرى . . .

وكان الوطن العربى فى أيام الأيوبيين تحت راية واحدة هى راية صلاح الدين الذى كون دولته فى مصر وما يزال قبره من أكبر المشاهد فى دمشق بجانب من الجامع الأموى الكبير . .

وفى العصر الحديث عادت الوحدة أمراً لازماً للعرب شعروا به وعملوا من أجله ، وكانت الثورة العربية الكبرى من أجل وحدة العرب واستقلالهم وحريتهم ثم تتابعت الجهود من أجل تحقيق هذه الوحدة . .

الجامعة العربية

وقد أحست البلاد العربية عام ١٩٤٤ أنه لابد أن تلتقى على نظام ما . حتى تتقارب وتتحد أهدافها ، فكانت جامعة الدول العربية التى تم التصديق على ميثاقها عام ١٩٤٥ ، وكان التفكير فى التضامن بين هذه البلاد العربية ، أسبق إلى التنفيذ من إنشاء الأمم المتحدة ذاتها ، وكان إحساس العرب بالفائدة من وحدتهم قائماً على أصول ثابتة من التاريخ ومن المصالح المتبادلة ، ومن الكفاح المشترك ، ومن المصير الواحد . لعل الظروف التى أنشئت فيها هذه الجامعة ، التى قامت بها حكومات الدول العربية هى التى عاقت هذه الجامعة عن أن تحقق ميثاقها تحقيقاً كاملا . .

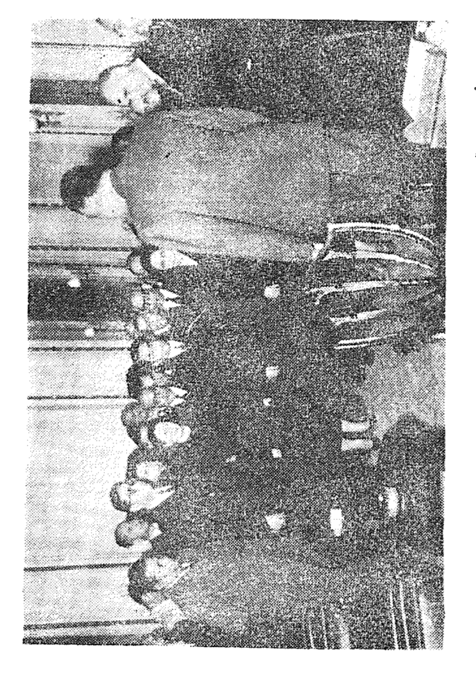
على أن الدول العربية المتحررة قد ابتدأت تعمل فى نطاق هذا

الميثاق الذى وافق عليه العرب كلهم ، وكان من ذلك اتفاق الوحدة الثقافية العربية ، وكان التعاون الثقافى العربى وكانت اتفاقيات الحصار الاقتصادى على إسرائيل . . .

بشائر المستقبل

ولم يكن هناك بد من أن تنتهى هذه المقدمات إلى نتيجة واحدة هى الوحدة الحقيقية ، التى تنبع من صميم تطورنا وواقع حياتنا . . .

وكان من الطبيعى أن تتجمع الحبيبات لتكون كرة متماسكة كبيرة ، وكان لا بد أن ينتهى جهاد الأبطال المكافحين إلى ثمرة . . وكان الفضل فى الوصول إلى هذه الحقيقة الرائعة إلى زعيم كبير شكرى القوتلى ؛ البطل الذى قضى أكثر من خمسين عاماً فى الكفاح والنضال ؛ ناضل تركيا ، وناضل فرنسا ، وناضل الاستعمار فى كل صورة ، ناضله شاباً ورجلا وكهلا وما يزال يناضل ، فى عزيمة وإصرار لا يلين . لقد حكم عليه بالإعدام ثلاث مرات ، وذاق كل أنواع السجون ، فلم يرهب المشنقة وظل دائب العمل من أجل تحقيق أمل العرب جميعاً ، وهو الوحدة ، فلما أمن وسلم من كيد الاستعمار ، وتبوأ أعظم منصب فى بلاده قال الآن أستطيع أن أصحح وضعاً ، وأن أصلح خطأ صنعه الاستعمار ، وساعدت عليه أسباب الفرقة والخلاف . . وقال بلادى جزء من الأمة العربية ، وقالت مصر : ونحن جزء من الأمة العربية . وامتزجت مصر



أعضاء مؤتمر توحيد المناهج الدراسية بالبلاد العربية ، في زيارة الرئيس

وسوريا ، وأعلن قيام الجمهورية العربية المتحدة ، وكانت حدثاً في التاريخ ، وكانت بشرى من بشائر الوحدة الكبرى بين العرب جميعاً . .

وحدتنا الكبرى . . .

وسارت البشرى تعم بلاد العرب كلها . وصار كل عربي على يقين من أن البشريات تترى ، بالرغم مما يقولون أو يتقولون . . .

إن الأعداء . . أعداء العرب ، وأعداء أنفسهم ، وأعداء الإنسانية المتحررة كانوا يوهمون بعض الملوك والرؤساء بأن الوحدة خطر عليهم ، فأثبت شكرى القوتلى أن هذا الخطر المزعوم هو الأمل الذى يسعى إليه العرب جميعاً ، ثم لم تمض ساعات حتى أثبت الإمام الناصر أحمد ملك المملكة المتوكلية اليمنية ، أنه لا يمكن أن تجوز عليه حيل الاستعمار ، وها هى ذى بلاد اليمن العربية السعيدة ، فى طريقها إلى الوحدة .

لقد وحدت الجمهورية العربية المتحدة بين الشعب المصرى والسورى ، ورأينا بشائر الوحدة الفيدرالية التى تضم حكومة الملك الناصر أحمد وحكومة الجمهورية العربية المتحدة ، الدولة التى تضم ملايين من العرب وملايين من الأيدى العاملة ، وملايين من الأفدنة ومساحات واسعة من الأرض ، وثروات ضخمة زراعية ومعدنية ، وثروات ضخمة من الطاقة البشرية القادرة على أن تصنع للدولة العربية المتحدة تاريخاً جديداً هو تاريخ التقدم والرقى والحرية والرخاء .

حقائق

عن الجمهورية العربية المتحدة

سورية

● مساحتها — بما فى ذلك لواء الأسكندرونة السليب — ١٨٩ ألف كيلو متر مربع .

● عدد سكانها ٣٫٨٥٠٫٠٠٠ ، عدا نصف مليون تقريبا من المهاجرين إلى الأمريكتين وأفريقيا الغربية ومصر وبلاد أخرى .

● من هؤلاء السكان ٨٥٪ مسلمون ، والباقون مسيحيون .

● تنقسم سورية إلى تسعة أقسام إدارية هى :

محافظة دمشق . وإلى الجنوب منها محافظة : درعا ، ومحافظة السويداء (جبل الدروز) . وإلى الشمال محافظات : حمص وحماة وحلب . ثم اللاذقية على الساحل . وفى الشمال الشرقى : الفرات ، والجزيرة .

كفاح سورية

● كانت سورية فى طليعة الداعين إلى القومية العربية واستقلالها عن الدولة العثمانية ، واشترك رجالاتها فى الثورة العربية الكبرى (١٩١٦ — ١٩١٨) واستشهد منهم كثيرون على أعواد المشانق يوم ٦ مايو ١٩١٦ .

● أعلنت استقلالها الكامل وتألفت أول حكومة عربية مستقلة يوم ٨ مارس ١٩٢٠ بزعامة الملك فيصل الأول بن الحسين .

● هاجمها الفرنسيون يوم ٢٤ يولية سنة ١٩٢٠ وكانت معركة « ميلسون » عنواناً على الكفاح الرائع ، واستشهد فى هذه المعركة الزعيم يوسف العظمة وكثير من المجاهدين ، ثم احتل الفرنسيون دمشق بعد أن ضربوها بالقنابل .

● استمرت الثورات ضد الاحتلال الفرنسى ، وكانت الثورة الكبرى التى امتدت من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٢٧ .

● وضع الدستور الثورى الأول سنة ١٩٢٨ .

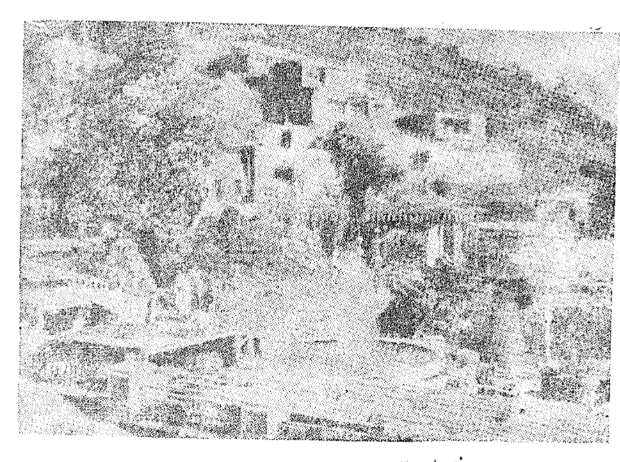
● أعلنت الجمهورية لأول مرة سنة ١٩٣٢ .

● اضطر الفرنسيون أمام قوة النضال والإضراب العام مدة ٥٠ يوما إلى عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ .

● قام العهد الوطنى الأول من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٩ ثم استغل الفرنسيون فرصة الحرب العالمية الثانية فتآمروا على حقوق سورية واقتطعوا منها لواء الاسكندرونة وضموه إلى تركيا ، ثمناً لخيانتها لقضية العرب !

● اضطرت الدول المتحالفة إلى الاعتراف باستقلال سورية الكامل ، وقام العهد الوطنى الثانى منذ سنة ١٩٤٣ بزعامة الرئيس شكرى القوتلى .

● اعتدى الفرنسيون على سورية فى ٢٩ مايو ١٩٤٥ لإعادة سيطرتهم عليها ، فوقفت سورية فى وجه هذا العدوان ووقف معها العالم ، وتم الجلاء فى ١٧ أبريل ١٩٤٦ .



متنزهات الفردوس . . . فى الطريق إلى بلودان

● وقفت فى الصف الأول لدعم القضايا العربية وأحبطت دسائس الاستعمار ، فعقدت أول حلف عسكرى ثنائى للدول العربية المتحررة بينها وبين مصر ، ثم بينها وبين المملكة العربية السعودية ، وبينها وبين المملكة الأردنية الهاشمية .

أهم المدن السورية

● دمشق : عدد سكانها ٤٠٠ ألف نسمة تقريبا ، وهى مركز النشاط السياسى والعلمى والاقتصادى ، وبها المسجد الأموى ، وقبر صلاح الدين الأيوبى ونور الدين زنكى . ومن معالمها الهامة (الغوطة) وبها سوق الحميدية الذى يتميز بطابعه الشرقى .

● حلب : عاصمة الشمال ، عدد سكانها ٤٥٠ ألف نسمة تقريبا ، بها كلية الهندسة ، وفيها يلتقى الماضى بالحاضر ، والشرق بالغرب ، والعرب بالعجم ، ومنها يبدأ قطار الشرق السريع رحلته من سوريا إلى تركيا وأوربا .

● حمص : عدد سكانها ١٥٠ ألفا ، وبها معمل السكر ، والكلية العسكرية ، وفيها قبر خالد بن الوليد ، ومن معالمها حديقة الروضة ، ومتنزه « المياس » وسوق البازركان .

● **حمـاة** : مشهورة بالنواعير التى تنبعث منها موسيقى شجية طول الليل ، وقد تعود أهلها ألا يناموا إلا على صوت هذه الموسيقى . ينسب إليها المشمش الحموى ، مع أنه من فاكهة الغوطة فى دمشق .

● ومن المدن الهامة — مراكز المحافظات — اللاذقية ، دير الزور ، الحسكة ، السويداء ، درعا .

مناطق ومعالم أثرية . . .

● **رأس شمرا** — قرب اللاذقية ، حيث اكتشفت أول كتابة أبجدية فى العالم يرجع تاريخها إلى سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد .

● **بصرى** ، حيث يوجد أوسع وأكمل مسرح رومانى فى الشرق الأوسط ؛ ولها ذكر كريم فى السيرة النبوية .

● **تدمر** ، حيث تركت « زنوبيا » أروع آثار قومها .

● **الجامع الأموى بدمشق** (بناه الوليد بن عبد الملك)، وتتمثل فيه عظمة فن العمارة فى العهد الأموى .

● **قلعة حلب** ، ولها ذكر متصل فى تاريخ مصر والشام .

● **قلعة الحصن** — غربى حمص — من العهد الأيوبى .

• متاحف ومكتبات عريقة

• **متحف دمشق** ، وبه بعض الآثار الفريدة وخاصة «الكنيس المصور» وقصر «الحير الغربي» الذي بناه هشام بن عبد الملك .

• **متحف حلب** ، ويتميز بما فيه من آثار آشورية وحيثية .

• **دار الكتب الظاهرية في دمشق** ، وبها ٨٠٠٠ مخطوط ، ونحو ٦٠ ألفا من المطبوعات . وقد تأسست سنة **١٨٧٨** .

• **دار الكتب الوطنية بحلب** ، وهي مركز ثقافي متجدد .

التربية والتعليم والثقافة

• الجامعة السورية ، بها سبع كليات : الآداب ، الحقوق ، الطب ، العلوم ، الشريعة ، الهندسة ، التربية . وعدد طلبة الجامعة أكثر من خمسة آلاف طالب وطالبة .

• في سوريا أكثر من ثلاثة آلاف من المدارس في مختلف المراحل ، تضم نحو نصف مليون طالب ، وبها نحو **١٥** ألف معلم ومعلمة .

• تبلغ ميزانية الجامعة أكثر من ٧٠٠ ألف جنيه ، وميزانية وزارة التربية أكثر من خمسة ملايين من الجنيهات ، ونسبة المتعلمين ٦٠ ٪

● **المجمع العلمى العربى** ، وهو من أقدم المجامع العربية .

الصحافة

● تصدر فى دمشق الصحف اليومية الآتية :

الأيام ، النصر ، الفيحاء ، المنار ، العلم ، القبس ، الإنشاء ، بردى ، الرأى العام ، صوت العرب ، الجمهور ، الشام ، الأخبار ، الحضارة ، الأنباء ، ألف باء ، الصرخة ، أخبار النهار ، وصحف أخرى .

● وتصدر بها المجلات الأسبوعية الآتية :

النقاد ، الدنيا ، الرقيب ، الطليعة ، المضحك المبكى ، المختار ، الجندى ، البعث ، ومجلات أخرى .

● تصدر فى حلب الصحف اليومية الآتية :

الشباب ، الميزان ، الحوادث ، النذير ، التربية ؛ بوق الشمال ، وصحف أخرى .

● وتصدر بها شهرياً : الحديث ، الضاد ، الكلمة .

● تصدر فى حمص جريدة العاصى باسم نهر العاصى الشهير ، وثلاث مجلات شهرية هى : الهدف الرائد العربى ، النواعير .

● تصدر فى اللاذقية صحف : البلاد ، الجلاء ، الإرشاد ، الاستقلال .

الاقتصاد القومى

• تعتمد سوريا على الزراعة والصناعة والتجارة ، وهى تنتج الحبوب عامة ، ولها شهرة ببساتين الفاكهة والنقل ، وبدأت زراعة القطن على نطاق واسع منذ سنوات ، وبها عدد كبير من المصانع الحديثة للنسيج والصناعات الزراعية ، واسم عاصمتها (دمشق) مشتق من (الدمقس) لشهرتها بالحرير !

• بها مصارف مختلفة تمارس الشئون المصرفية بينها وبين جميع بلاد العالم ، ومنها بنك مصر — سوريا .

• أساس العملة الآن (الليرة) وتتراوح قيمتها بين ١٠ قروش مصرية واثنى عشر قرشاً تقريباً .

المواصلات

• لسوريا ميناء بحرى واحد هو اللاذقية ، وبينها وبين ميناء طرابلس فى لبنان طريق ساحلى يمر بعدة مدن سورية ذات شأن .

• وميناء جوى دولى فى دمشق ، ومطارات فى المدن الرئيسية .

• المواصلات الرئيسية هى السيارات .



متحف التقاليد والعادات بدمشق

• بها خط حديدى عريض (سكة حديد الشرق) يبدأ من (رياق) فى لبنان ويمر بحمص وحماة وحلب، ثم يتفرع فرعين أحدهما إلى اسطنبول والآخر إلى بغداد، وبها خطان ضيقان أحدهما إلى بيروت والآخر إلى درعا .

• سكة حديد الشرق كانت قبل احتلال اليهود للجزء الذى احتلوه من فلسطين ، متصلة بمصر عن طريق خط القنطرة .

مصر

إن أعظم الهجرات العربية هى التى وقعت حين ظهور الإسلام وانتشار دعوته؛ فقد حملت الفتوح آنئذ عدداً كبيراً من بداة العرب ومتحضريهم إلى البلاد التى فتحت، فامتزجوا بسكانها الأصليين، وقد كان من تداخل العروبة والإسلام هذا الازدواج الفذ وهذا الانسجام فى تاريخ العرب .

وليس من قبيل المصادفات أن تكون « هاجر » مصرية، وهاجر هى أم إسماعيل ، جد العدنانيين وجد قريش الأول ؛ فلمصر نسب موصول بهذا الأصل الطاهر الذى جمع كل أمجاد العرب فى صعيد واحد . كما كانت « مارية القبطية » زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام، مصرية .

وتقوم هاتان الحقيقتان رمزاً لصلات مصر القديمة، فهى صلة نسب وعرق قبل أن تكون صلة عقيدة ولغة وحضارة .

ويذهب أكثر المؤرخين إلى أن كثيراً من أهل الدلتا من أصل آسيوى ، دخلوا مصر عبر شبه جزيرة سيناء .

ويؤيد ابن خلدون ذلك ، إذ أن صحراء مصر الشرقية وشبه جزيرة سيناء كانتا عامرتين بالضياغم ، وهم من عرب الشمال ، ولم تكن هذه الصحراء قديماً قاحلة بالصورة التى هى عليها الآن ، بل كانت متحضرة فى كثير من أجزائها .

وقد عرفت فى مصر فرعى العرب الكبيرين ، عرفت عرب الجنوب القحطانية الذين كانوا يعبرون البحر الأحمر ويستقرون فى الوادى ويختلطون بالسكان ، لأنهم كأهل مصر أهل استقرار وزرع وضرع ، وعرفت عرب الشمال العدنانية ، إذ كانوا يجوبون صحارى مصر الشرقية .

* * *

ظلت مصر جزءاً من الدولة العربية الكبرى ، حتى بدأت عوامل التفرق والانفصال فى القرن الثانى بعد الهجرة ...

ظهرت طلائع التفرقة حين انفصلت الأندلس .

ثم انفصلت مراكش والجزائر وتونس .

وقامت هنا وهناك دويلات صغيرة لا كيان لها ولا قوة .

كان ذلك حين انتقلت قاعدة الدول العربية من الشام إلى العراق ، فبعدت الشقة على الولاة والقادة والجيوش .

بعدت الشقة فانفرط العقد ، وكان لابد من قاعدة عربية جديدة تتجمع حولها البلاد العربية ، قاعدة وسطى تضم الشرق العربى وتضم الغرب العربى مثلما كانت الشام فى أيام الأمويين .

وكما تجمعت بقايا حضارة الإغريق فى مصر بعد غزوة الأسكندر فاستأثرت بالحضارة العالمية — إذ ذاك — فى أيام البطالمة ، تجمعت قوى العالم العربى — بعد تفرقها — فى مصر .

وارتبطت مصاير الشام بمصاير مصر وظلت مصر والشام بلداً واحداً طوال هذه العصور كلها . فالدولتان الطولونية والأخشيدية

كانتا مصريتين شاميتين فى آن معا . وكذلك كانت الحال فى أوائل عهد الدولة الفاطمية ، ثم كان تقلص حكم الفاطميين من الشام سببا من الأسباب التى يسرت على الصليبين غزوه .

وتجدد الاتحاد بين البلدين عند قيام الدولة الأيوبية واتصل ذلك على نسق واحد حتى كان الغزو العثمانى .

وعندما وقع العدوان الأثيم على مصر شعرت سوريا بنفس الألم الذى شعرت به مصر فضحت بكل ما يمكنها أن تضحى به لنصرة شقيقتها الكبرى :

قطعت علاقتها بالدول الغاشمة .

وحطمت أنابيب البترول .

وجهزت جيشها .

وعبأت كل قواها .

وأرسلت من بنيها من استشهد مع أبطال الكنانة .

ولما قامت المؤامرات الاستعمارية محاولة أن تعصف بأمن سوريا واستقلالها هبت مصر لنصرة سوريا وفضحت ألاعيب الاستعمار فى الصحافة وفى المحافل الدولية ، ولما لم تجد هذه الوسائل أرسلت إليها بزهرة شبابها وبنيها للدفاع عن شطر الوطن الغالى .

ثم قامت هذه الجمهورية العربية المتحدة الفتية ، وكانت رجوعاً بالبلدين إلى الوضع الصحيح الذى عاشا فيه أحقاباً طوالا.

الاتحاد العربي

وكان اعلان الجمهورية العربية ووحدة مصر وسوريا ، كما قال الرئيس جمال عبد الناصر ، أول انبثاق الفجر على القطر العربي الكبير فلم تمض إلا أيام قلائل حتى كان إنشاء الاتحاد العربي بين العراق والأردن . .

وقد أعلن فى عمان أن الملكين فيصل وحسين وقعا فى الساعة السابعة والنصف من صباح أمس اتفاقا يقضى بقيام دولة الاتحاد العربى .

وقد عاد الملك فيصل والأمير عبد الإله ولى عهده وأعضاء الوفد العراقى من مباحثات الاتحاد إلى بغداد بعد إعلان نبأ الاتفاق ، وكان فى وداعهم فى مطار عمان الملك حسين وأعضاء الوزارة الأردنية .

وكان مجلس الوزراء الأردنى قد اجتمع برياسة الملك حسين فى القصر الملكي فى الصباح وأقر الاتفاق الجديد ، وسيعقد اجتماعا للشروع فى اتخاذ الاجراءات اللازمة لوضع الاتفاق موضع التنفيذ .

وفى يوم ١٠ من فبراير ١٩٥٨ تم توقيع ميثاق هذا الاتحاد بين العراق والأردن وصدر البيان الرسمى التالى :

***

قررت الدولتان الهاشميتان إنشاء اتحاد بينهما ، وتحقيقا لهذه الغايات تم الاتفاق على ما يلى .

أولا — إنشاء اتحاد عربى بين المملكتين باسم « الاتحاد العربى » اعتبارا من يوم الجمعة ١٤ فبراير ويكون مفتوحا للدول العربية الأخرى التى ترغب فى الانضمام إليه .

ثانياً — تحتفظ كل من الدولتين بشخصيتهما الدولية ونظام الحكم القائم فيهما .

ثالثاً — تكون المعاهدات والمواثيق والاتفاقات الدولية التى سبق ارتباط الدولتين بها قبل عقد اتفاق الاتحاد مرعية بالنسبة للدولة التى عقدتها ، أما الاتفاقيات الدولية التى ستعقد فى المستقبل فتكون من اختصاص حكومة الاتحاد .

رابعاً — تنفذ إجراءات الوحدة بين البلدين اعتبارا من تاريخ الإعلان الرسمى للاتحاد وذلك فى السياسة الخارجية والتمثيل الدبلوماسى وتوحيد الجيشين فى جيش عربى واحد تحت قيادة واحدة وإزالة الحواجز الجمركية .

خامساً — اتخاذ الإجراءات اللازمة لتوحيد النقد فى البلدين .

سادساً — تتخذ الإجراءات اللازمة لتوحيد أى أمر من الأمور الأخرى عندما تقضى الضرورة .

سابعاً — علم الثورة العربية هو علم دولة الاتحاد العربى .

ثامناً — يتولى شئون الإتحاد حكومة اتحادية تنبثق عن مجلس تشريعى واحد .

تاسعاً — يكون ملك العراق رئيساً لحكومة الاتحاد .

عاشراً — يكون مقر حكومة الاتحاد بصورة دورية لمدة ستة أشهر فى بغداد وستة أشهر فى عمان .

أحد عشر — تضع حكومة الاتحاد دستور الاتحاد وفقاً لهذا الاتفاق وتتخذ التدابير اللازمة لإقامة حكومة الاتحاد خلال مدة لا تزيد عن ثلاثة أشهر من تاريخ توقيع الإتفاق .

إثنا عشر — يبرم هذا الاتفاق وفق الأصول الدستورية فى كل من البلدين .

* * *

وأذاع الملك فيصل كلمة إلى الشعب فى هذه المناسبة ، قال فيها .

« اخوانى أبناء الشعب الكريم .

« من الطبيعى أن تستعيد ذاكرتنا فى مثل هذه الساعة المباركة صحائف الثورة العربية الكبرى التى حمل لواءها جدنا المغفور له الحسين ابن على منذ أربعين عاما . والتى توارث مشعلها أولاده واحفاده حتى انتقلت الينا ، أنا وأخى صاحب الجلالة الحسين بن طلال حفظه الله »

***

كما وجه الملك حسين الكلمة التالية إلى شعبه :

« شعبى العزيز . أيها العرب فى كل مكان .

«فى هذا العام الأغر الأبلج من تاريخ العروبة تشرق شمسه ساطعة قوية مع تحقيق هدف من أسمى أهداف أمتنا العربية المجيدة .

— وتوكيد مطلب من المطالب الحبيبة على قلب كل عربى ، وتؤدى فيه الرسالة التى حملها آل البيت كابرا عن كابر ويطيب بها ثرى المنقذ الأعظم — عليه رضوان الله — الذى ضحى فى سبيل هذه الأمة ووهب نفسه فداء لوحدة العرب وجمع كلمتهم ولم شملهم تحت راية واحدة هى راية العروبة التى حمل لواءها جدنا العظيم الحسين بن على » .

* * *

ومهما تكن الأسباب والدوافع الظاهرة والباطنة التى انتهت إلى هذه الخطوة التالية من خطوات الوحدة العربية الكبرى — فإنه مما لاشك فيه أنها صدى قوى الانفعال فى نفوس الشعب العربى كله الذى عرف ما يدور حوله فى هذا الدور من أدوار تاريخه كما أنها صدى قوى لانفعال نفوس الشعب العربى فى المملكتين الهاشميتين :

إنها خطوة ثابتة ولابد أن تتبعها خطوات متعاقبة تهدف جميعاً إلى عودة الدولة العربية الكبرى فى وطننا العربى الكبير يظلها علم واحد وتسير إلى غاية واحدة .

ومن هذا الأثر الذى تركه إنشاء الاتحاد العربى فى نفس كل مواطن عربى ، كانت البرقية الرائعة التى بعث بها الرئيس جمال عبد الناصر إلى ملك العراق . .

برقية الرئيس ...

إلى جلالة الملك فيصل

«حضرة صاحب الجلالة الملك فيصل :

« إن الاتحاد العربى الذى وحد اليوم ما بين العراق وبين الأردن هو خطوة مباركة تتطلع إليها الأمة العربية كلها بأمل كبير باعتبارها اتجاهاً يستمد قوته من أعماق الضمير العربى .

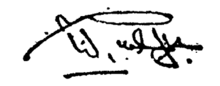
وأننا لواثقون تمام الثقة أن الاتحاد العربى سوف يكون قوة لكل

العرب على كل أعداء العرب .

« إن الأيام التى تعيشها الأمة العربية الآن أيام خالدة مجيدة ، ومامن شك فى أن الأحداث التى عاشتها أمتنا فى الفترة الأخيرة تبشر بأن فجر الوحدة الذى أشرق على كل الآفاق العربية هو مطلع تاريخ جديد للأمة العربية المناضلة . وأن القومية العربية لتفخر وتعتز بالخطوة التى اتخذتموها فى عمان اليوم واثقة أنها تقرب منا يوم الوحدة العظمى .

« وما من شك أن شباب جلالتكم وإيمانكم وصادق إخلاصكم سوف تكون من القوة الدافعة فى سبيل تحقيق حلم العرب الكبير .

« وإنى إذ أبعث لجلالتكم بتهانى أتمنى من صميم قلبى أن يوفقكم الله وأن يسدد خطاكم وأن يبارك شعبكم العظيم » .



إن هذه البرقية وحدها جزء من تاريخ اليوم والغد ، إنها حديث إلى ضمائر الحكام والمحكومين جميعاً فى الوطن العربى الكبير . . إنها برقية إلى ملك الاتحاد العربى ولكنها مع ذلك حديث ضاق الذيل إلى كل مواطن من الشعب العربى الذى يضمه ذلك الاتحاد . .

وإننا نعود لنذكر : أن فجراً جديداً طلع وأن تاريخا جديداً قد بدأ يتألق . وأن هذه البشائر سوف تنتهى إلى الوحدة الكبرى . .

حقق الله الآمــال ...

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

الجزء الثالث : ... ...

صفحة

صفحة

مطابع دار الكتاب العربي بمصر
مؤسسة مصرية للطباعة الحديثة



الانتاج الفنى
قسم التأليف والنشر